المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

العنقاء

(مختارات من أعمال د. هـ. لورانس)

ترجمة : محمد قدرى عمارة

مراجعة : إلهامى جلال عمارة

1237

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٢٣٧
- العنقاء (مختارات من أعمال د. هـ. لورنس)
- محمد قدرى عمارة
- إلهامى جلال عمارة
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة مختارات من القصص القصيرة
والمقالات للكاتب دى. إتش. لورنس

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

Cairo‹ El Gezira‹EL Gabalaya st. Opera House

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

العنـــقاء

(مختارات من أعمال د . هـ . لورنس)

ترجمة : محمد قدرى عمارة

مراجعة : إلهامى جلال عمارة



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

العنقاء

مختارات من أعمال: د . هـ . لورنس ، ترجمة : محمد قدرى عمارة ، مراجعة: إلهامى جلال عمارة.

ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة – ٢٠٠٨

٤١٢ ص ، ٢٤ سم ، العدد ١٢٣٧

العنوان

رقم الإيداع ١٦٦٣٤ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977- 437 - 856 - 3

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الفهـــــرس

الصفحة

الصفحة

استهــــــلال

" ما أحلى اللذة بعد الألم..."

(١)

فى مطبخ مزرعة صغيرة، جلست امرأة ضئيلة الجسد أمام النـار، وهـى منهمكة فى تقطيع الخبز والزبد. كان وهج النيران المشتعلة ينعكس على وجنتيهـا اللامعتين، وعلى المريلة البيضاء التى ترتديها، ولكن شعرها الرمادى لم ينل شـيئا من اللمسات الدافئة لوهج النيران. كانت تفرد الزبد الطرى ببراعة على الخبز الذى قطعته شرائح ووضعته فى حجرها. ملأت طبقين، ولكنها استمرت فى العمل.

فى الخارج كانت الأغصان العارية للنبات المتسلق تحـدث صـوتا عنـد اصطدامها بحافة النافذة، نظرت الأم ناحية النافذة، ووضعت الخبز والزبد بـالفرن وقامت تستطلع الأمر. كانت السماء ملبدة بالغيوم الرمادية فـوق الـدغل القريـب فاستدارت، وذهبت لتنظر من النافذة الصغيرة التى توجد فى الجانب الآخـر مـن الغرفة. كانت السماء أكثر سوادًا.

ابتعدت وهى تتنهد والتقطت قطعة من القماش لتخرج الخبز من الفرن. بعد ذلك أعدت المائدة لخمسة.

كانت هناك أصوات صلصلة بركن الغرفة، وقد دقت الساعة تـشير إلـى الخامسة، وككثير من الساعات فى مطابخ المزارعين كانت تزيد بنـصف الـساعة عن الوقت المضبوط. أسرعت المرأة لتحضر الحليب والأشياء الأخرى، وأخرجت البطاطس من الفرن، وهى لا تفتأ تنظر عبر النافذة من وقت لآخر بقلـق. كانـت رقبتها تؤلمها، وهى تراقب الباب أيضا. سمعت صليل بوابة الفناء فهرعـت إلـى النافذة، ولكنها عادت مرة أخرى لتمسك بالإبريق لتضع فيه حفانا من الـشاى ثـم تصب عليه الماء. سمعت أصوات وقع الأقدام بالخارج وانفتح الباب ودخل رجـل ضخم ملتح. كان منحنى الظهر، ويميل قليلا للأمام بما يوحى بأنه قضى حياته كلها فى العمل.

- "مرحبا أيتها الأم" قالها بصوت عال وبابتهاج، ثم قال:
- هل أنا أول القادمين؟ ألم يحضر أحد من الأولاد؟
- "سيكون فريد هنا فى لحظة". أجابت الأم.
- أرجو أن يأتوا فى الحال، وإلا فستمطر السماء قبل أن يصلوا.
- نعم، لقد بدأ المطر بالفعل، وإنه لمطر بارد، وأعتقد أنها ستمطر ثلجًا.
- جلس فى مقعده بتثاقل ناظرا لزوجته وهى تنحنى وتقلب الخبز فى الفرن، ثم صاح بنبرة حماسية:
- "حسن أيتها الأم، ها هو كريسماس جديد لك ولى. السنوات تمر بنا". أجابت الأم:
- الأيام تجىء وتذهب ولا نكون أفضل حالاً أبدًا.. قال الرجل وقد طغى الأسى على صوته.
- يبدو ذلك، كان حظنا هذه السنة شديد السوء، ولكننا مستمرون على أى حال، ولم نأسف على ذلك الكريسماس أيضا، لقد مضى سبعة وعشرون عاما ونحن هكذا!!
- ربما، ولكن ها هو فريد لم يحصل على أكثر من ثلاثة جنيهات مقابل عمل سنة بكاملها، والولدان الآخران يعملان أيضا بالمنجم.

صاح باستياء:

- وما الذى أستطيع عمله؟ لو لم أفقد الجزء الأكبر من الدريس ورأسى الماشية لما صرنا بهذا السوء.

تنهدت الأم وقالت:

- لو، آه من لو هذه، ما هى الفرص التى أمامه؟ ها هو يعمل كل سنة من أجلك ولا يحصل على شىء فى النهاية. عندما كنت أنت فى مثل عمره، فى

الخامسة والعشرين، كنت متزوجا وعندك ولدان، كيف يمكنه أن يسأل أية فتاة أن تتزوجه؟

- لا أعرف أنه يريد ذلك، هو قانع بما هو فيه. لا تقلقى عليه وتجعليه أكثر يأسا، فلربما يكون العام القادم أفضل حالاً، ويمكننا أن نعمل لتحقيق ذلك.
- هذا ما تقوله.
- لا تقنطى هذه الليلة يا فتاتى، ربما لم تجر الأمور كما كنا نأمل. لم أعتقد مطلقا أنك ستقومين بكل ذلك العمل الذى تقومين به، ولكننا كنا مرتاحين جدا بالنظر إلى الأمور جميعها، أليس كذلك؟
- لم أتصور أبدا أننى سأرى ابنى الأول عاملاً فى مزرعة، وأن أرى الولدين الآخرين يعملان فى المنجم.
- أنا متأكد من أننى فعلت ما أستطيع.

سمع صوت جلبة فى الخارج فلم يضف شيئا.

(٢)

دخل الابن الأكبر وحذاؤه الضخم ملطخ بالوحل، نزع معطفه المبتل ووقف أمام النار المشتعلة يفرك كفيه ويمدهما أمامه تجاه النار. نظر مبتسما لأمه وهى تتحرك فى أرجاء المطبخ وقال:

- تبدين دافئة ومستريحة يا أمى. عندما كنت خارجًا من المنجم بالحِمْلِ الأخير، فكرت فيك وأنت تمشين فى أرجاء المطبخ بمريلتك البيضاء، تعدين الطعام وترقبين الطقس. ها قد جاء الأولاد. ألست سعيدة وقانعة الآن؟
- ضحكت الأم ضحكة صغيرة وشرعت فى صب الشاى. جاء الولدان الآخران من المنجم مبتلين ومتسخين، وإن بدا وجهاهما أقل اتساخا من أثر المطر،

بدلا ملابسهما وجلسا حول المائدة. كان الابن الأكبر شابا ضخم الجثة لـــه أنف طويل وذقن مدببة وبعض التجاعيد حول عينيه، أما الأصـــغر، "آرثــر" فكان صبيا وسيما، أسود الشعر والعينين، وكان حين يضحك أو يـتكلم فـإن احمرار شفتيه وبياض أسنانه يظهران فى تناقض تام مع السواد الذى يـصبغ وجهه. قال لأمه بمشاعر صبيانية صادقة:

- سعيد أنا بأن أراك يا أمى.

- ما الذى تبغينه أكثر من ذلك أيتها الأم؟ صاح زوجها فى جزل.

- قضمت قطعة من الخبز وهى ترمقهم بنظرة ساخرة، كما لو أنها لـم تـوف حقها، ولكنها كانت مسرورة وأحست بقليل من الخجل والارتيـاب. صـاح هنرى:

- إنها ليلة الكريسماس ويجب أن تشتعل النار وتتوهج، وسأتناول حبة أخـرى من البطاطس، فالكريسماس مناسبة جيدة للأكل الشهى، لكن ما الذى سنفعله؟ هل سنقيم حفلا يا أمى؟

- نعم، إذا أردتم.

ضحك الأب قائلا باستياء:

- حفل؟ ومن سيأتى إليه؟

صاح هنرى:

- نستطيع أن ندعو البعض. قد ندعو نيللى، وتيشرلى التـى اعتـادت المجـئ، وأيضا ندعو دافيد جارتون.

رد الأب بحنق:

- لن ندعو نيللى. لقد قابلتها صبيحة الأحد وهى فى الطريق إلى البيت، وكانت بصحبة امرأة أخرى، وتوقفت وسألتنى إذا ما كان لدينا شجرة لعيد الميلاد، وقلت لها لا.

(٣)

نظر فريد من فوق الكتاب الذى كان يطالعه. كانت عيناه بنيتان كعينى أمه ويلفتان النظر دائما عندما يوجههما لأحد، وقال:

- هناك شجرة فى الغابة..

رد هنرى:

- إنها ليست شجرتنا، أليس كذلك؟ وطالما كانت شديدة التكبر بحيث لا تأتى لترانا فهل أذهب أنا لأقطع الشجرة من أجلها؟ لو أنها جاءت إلينا، وقالت إنها تريد شجرة لكنت قطعت لها نصف الغابة. ولكنها جلست فى تعالٍ ونظرت إلىّ وقالت: هل يوجد لديكم شجرة لعيد الميلاد؟

إن برستون لم يجد غصنا لتزيين البيت، إنها قد دعت بعض الناس للقدوم من المدينة، عندئذ قلت لها إننا جميعا نتألم حيث لا يتوافر لدينا ما نزين به بيتنا، ونحن نحتاج ذلك بصورة خاصة؛ لأننا لا ننتظر أحدًا سواء من المدينة أو الريف، ومن الممكن أن ننسى أنه يوم الكريسماس إذا لم يذكرنا بذلك أناس أو أشياء.

سألت الأم:

- وماذا قالت؟

- قالت إنها آسفة لذلك، وقلت لها لا عليك، فمن الأفضل النظر إلى الناس عن النظر إلى شجرة الكريسماس. كانت المرأة الأخرى تضحك، وأرادت أن

تعرف أى أناس أقصد؟ فقلت لها أى أناس، طالما أنهم بلا أشـــواك كـــشجرة الكريسماس لتبعدك عنهم.

ضحك الأب فسألته:

- وهل قنعت بذلك؟ ورد الأب:

- لكزتها الفتاة الأخرى بكوعها وانفجرتا فى الضحك، ثم طلبت نيللى أن أرسـل لها المهرجين الليلة. قلت لها إننى سأفعل ولكنهم لن يذهبوا.

- ولم لا؟ سأل فريد.

رد الآخر:

- بيلى سمبسون وجهه متورم بينما ذهب بيلى إلى نوتنجهام.

قال أرثر:

- لن يجد الجميع بمطحن رامزلى من يضحكون عليه الليلة.

فأجابه هنرى:

- سنذهب نحن.

- كيف ذلك؟ أسنذهب ثلاثتنا معًا؟

قال هنرى بإصرار:

- نستطيع أن نلبس ما يجعلهم لا يعرفوننا ونحظى بشيء من الترفيـــه، وصـــاح فجأة لفريد الذى كان يقرأ ولا يلقى بالا لما يجرى "ســـنذهب إلـــى المطحـــن للتهريج".

- من الذى سيذهب؟ سأل الأخ الأكبر مندهشا.

صاح الأب بحدة:

- أنت وأنا وآرثر، وسوف أكون بيلزبوب. وعندها لوى وجهه ليبدو كالـشيطان وضج الموجودون بالضحك.

قال الأب:

- تعال معنا فستجلب لنا الحظ.

صاح مستنكرًا:

- ماذا؟ لأجعل من نفسى أضحوكة؟ المثل يقول الحمقى يجلبون الحـظ، فـأى أحمق تريد منى أن أكون؟ سوف أكون الشيطان أليس كذلك؟، ثم صاح فـى أمه: هل سمعت يا أمى؟" ثم نظر إلى آرثر قائلا "وما الذى ستكونه يا آرثر؟"

صاح آرثر:

- أنا لا أبالى، نستطيع أن نضع بعضا من الدهان الأحمر على وجوهنا، وقلـيلاً من الرماد الأسود، ولن يتعرفوا بذلك علينا. هل ستذهب يا فريد حقاً؟

- لا أعرف؟

قال فريد بنبرة مستحثة:

- لماذا؟ أود أن أراها هى وصاحباتها، لا أعرف لماذا كان لهـا هـذا التكبـر. نستطيع أن نترك لها شجرة عيد الميلاد بالمطبخ.

- على رسلك إذن.

(٤)

بعد الغداء انشغل الجميع بحلب وتغذية الماشية، ثم أخذ فريد سـكينا كبيـرا ومصباحًا وخرج إلى الغابة لقطع شجرة لعيد الميلاد، وعندما عاد وجدهم غارقين فى الضحك وهم يقفون أمام المرآة. كانت وجوههم ملطخة بالأحمر والأسود وقـد

لصقوا فوق شفاههم بعض شعر ذيل الحصان كشوارب بحيث أصبحوا من الصعب معرفتهم. صاحت بهم الأم:

- إن شكلكم مخيف، وإنه لمن العار أن تشوهوا خلقة الله على هذا النحو.

اغتسل فريد وبدأ فى ارتداء الملابس، ولم يستطيعوا إقناعه بأن يستخدم الطلاء أو الرماد الأسود. قام بطى أكمامه حتى كتفه، ولف نفسه فى ملاءة كبيرة، وقام بربط قطعة من القماش الأبيض حول رأسه كما يفعل البدو، وبرم شاربه. نظر إلى نفسه برضا، وأخذ السيف القديم من على الحائط وشهره فى يده، وقال متمتما:

- بالتأكيد، هذا شكل مميز، وأنا أبدو هكذا فى أحسن حال.

صاحت الأم حين دخل عليها المطبخ "هذا رائع" فلمعت عيناه بالسرور لسماعه ذلك. كانت تبدو عليه الإثارة، وكان وجهه يفيض بالزهو وهو ينظر لثيابه البيضاء. كانت عيناه تلمعان كعينى عربى حقيقى، لكن عضلات ذراعه كانت مرتخية قليلا لإمساكه بالسيف في يده. كان غريبا أن الملاءة الملفوفة حول جسمه قد أكسبته منظرًا رائعًا، وهو الذى يبدو فى أفضل ثيابه غير مهندم.

(٥)

انطلقوا عبر الحقول فى طريقهم إلى المطحن، وكانت نتف الجليد المتساقط تغطى رؤوسهم، وتجعل الأرض زلقة تحت أرجلهم، فكانوا يتساندون على بعضهم البعض خشية السقوط.

كانت الليلة حالكة الظلمة، ولكنهم كانوا يعرفون الطريق إلى المطحن جيدًا. وصلوا بسرعة إلى البوابة التى تؤدى إلى فناء المطحن، وبدأ الكلب فى النباح الصاخب، ولكنهم نادوه باسمه ولأنه يعرف صوتهم هدأ وسكت.

طرق فريد البوابة صائحًا "ألا تريدون مهرجين؟" سمعه رجل طويل القامة بدرجة كبيرة وجاء إلى الباب، وقال بصوت غليظ "لا، نحن لا نريدكم"، ولكن هنرى صاح به وهو يهز قدميه "ها قد جاءكم بيلزبوب، جاء بيلزبوب إلى المكان المناسب".

جاءت فتاة ضخمة من عاملات المزرعة إلى البوابة وسألتهم:

- من تكونون؟ أجابوا بسرعة:
- بيلزبوب ورفاقه، أنتم تعرفونه جيدا.
- سأسأل الآنسة إيلين إذا ما كانت تريدكم.

غمز هنرى للفتاة قائلا:

- بالله عليك لا تتركى الملائكةَ على عتبة الباب، ودلفوا بسرعة إلى المطبخ.

هرولت الفتاة إلى الداخل، وبعد لحظات سمعوا ضحكات وأصواتًا نسائية تقترب من المطبخ. صاحت إحداهن:

- دعيهم يدخلون.

دخل الثلاثة وراحوا ينظرون حولهم، وكان باستطاعتهم رؤية بتى تجلس على حاشية وإلى جانبها يجلس والدها الزنجى على كرسى هزاز، بينما كانت امرأتان من أقاربهم تجلسان بعيدا فى الركن القريب من المدفأة.

صاح بيلزبوب "هذا أفضل كثيرا وأدفأ، إن الشيطان ليحس بأنه فى بيته هنا".

بدأوا فى المسرحية الهزلية القديمة للكريسماس والتى يعرفها الجميع جيدا. كان أداء بيلزبوب يتسم بالصخب والقوة وخفة الظل. أما سان جورج – أى فريد – فقد أدى دوره بحماس وجرأة، ولكنه وفى لحظة حرجة نسى تماما ما كان يجب أن يقول، ولكن بيلزبوب تدارك الموقف بسرعة وأصلح الأمر. كان آرثر عصبيا مما

جعل بيلزبوب يذكره بما يجب أن يقوله. بعد كثير من الطعن والسقوط والنهوض على الأرض، وصلوا للنهاية وانتظروا فى صمت.

- وماذا بعد؟ صاحت إحدى النسوة من الركن البعيد.

- هذا دوركم. رد بيلزبوب.

- ماذا تريدون؟

- أقلِ ما يسمح به كرمكم.

قال صوت كانوا يعرفون صاحبه جيدا:

- ليس لدينا الرغبة فى أن نعطيكم شيئا على الإطلاق.

- أنتم لا تعرفون كيف تؤدون أدواركم جيدا. قالت ذلك بلانش، الغريبة عن المكان.

- الشاب الضخم الذى يرتدى ثياب البدو لا يستحق شيئا.

سألها آرثر، وماذا عنى أنا؟

أجاب الصوت نفسه:

- أنت ولد لطيف والشكر الذى تقدمه لك السيدة يكفيك.

احمر وجهه، وغمغم بكلمات غير مسموعة.

قال بيلزبوب:

- يبقى بذلك الشيطان لتدفعوا له.

نظرت بلانش إلى نيللى قائلة "أعط الشيطان شيئا يا نيللى".

قذفت نيللى بقطعة فضية على الأرض بطريقة عصبية، فتدحرجت القطعة حتى وصلت إلى أقدام برستون وهو فى مقعده العالى فصاح بدهشة:

- نصف جنيه، أعطهم ثلاثة قروش فقط، فهم لا يستحقون أكثر من ذلك.

(٦)

كان ذلك فوق احتمال سان جورج فلم يستطع الوقوف وهو يلبس ذلك الزى المضحك، فقام بخلع ما يرتديه ووضع الملابس على ذراعه، وأمسك بيلزبوب بيده الأخرى، وكان على وشك أن يلتقط قطعة النقود. وقف سان جورج وقد تحول إلى المزارع البسيط الصغير بجدائل شعره المجعد، وجبينه المقطب، وذراعيه العاريتين، ونظر إلى السيدة بتحفز، فبادرته قائلة:

- إذا لم تكن ستسمح له بأخذها فقل لنا ماذا تريد؟

صاح الآخر:

- لا شيء، شكرا لكم، نحن آسفون لإزعاجكم.

ثم سحب بيلزبوب من يده وخرج الثلاثة من المطبخ. ضحكت بلانش بشدة مرة ثانية لرؤيتها الفارس وهو يخرج مطأطئ الرأس. لم تضحك نيللى، وتذكرت طفولتها الفقيرة قبل أن يجمع أبوها مالا وفيرا من تجارة المواشى. كانت فقيرة وصغيرة لكن أباها استطاع أن يصبح غنيا ومالكًا للمطحن والمزرعة الكبيرة، وحين مات أبوها أصبحت هى المالكة الوحيدة لكل ذلك. بعد ذلك جاء برستون، رئيس العمال، ومعه بتى وسارة ليعيشوا معها ويتولون مسئولية المزرعة.

لم تر نيللى صديقها القديم كثيرا منذ ذلك الحين، فقد عاشت بالمدينة زمنا طويلا، وعندما ذهبت لزيارة أسرته بعد عودتها وجدتهم غير مرحبين بها، وبالتالى لم تزرهم ثانية، وقد مرت سنة تقريبا لم تر فيها فريد ولم تكلمه كلمة واحدة.

قطع تأملاتها صرخة صدرت من بتى أعقبها اندفاع بعض الصبية إلى الداخل، فسألها أبوها "ماذا يجرى؟".

صاحت الأخرى:

- لا شيء، لقد أمسك أحدهم بقدمى.

أحست نيللى فجأة بوحدتها، ثم أشعل برستون ثقابا، وأخذ يجول فى المكان، ثم عاد بعد قليل ممسكا بشجرة عيد الميلاد وقال بسخرية:

- ها هو ما تظنينه قد أمسك بقدمك، وقذف بالشجرة على المائدة.

صاحت بلانش "ما أجملها شجرة .. إنها رائعة".

نظرت نيللى إلى الشجرة وأسرعت إلى غرفة المعيشة تتبعها بلانش، وجلست تبكى.

صاحت صديقتها بدهشة:

- ما الأمر؟

مرت عدة دقائق قبل أن تقول نيللى "أنا بائسة ووحيدة، أعتقد أن ويل وهارى ولوى وكل الباقين كانوا بخلاء لعدم قدومهم فى ليلة الكريسماس وإلا ما كان قد حدث ما حدث. إن هذا لأمر مخجل ومشين".

- ما الذى كان مخجلا؟ صاحت بلانش..

- لقد أحضر لى فريد شجرة عيد الميلاد وجاء ليرانى.. ثم توقفت عن الكلام وقد احمر وجهها.

- من تقصدين؟ البدوى.

استطردت نيللى وهى تتنهنه:

- وأنا التى لم أره منذ شهور، بالتأكيد سيعتقد إنى دنيئة ومتكبرة.

- أتقصدين أنك تهتمين به؟

قالت وهى تذرف الدمع مرة أخرى "نعم وأتمنى لو أن هذه المزرعة البائسة والمال الذى عندى لا يصبحان سببًا فى التفرقة بيننا على هذا النحو، إنه لن يأتى إلى هنا مرة أخرى، أعرف ذلك".

هتفت بلانش:

- إذن عليك أنت أن تذهبى إليه..
- نعم، سأفعل.
- هيا بنا إذن.

(٧)

كان الأخوة الثلاثة قد وصلوا إلى بيتهم، وكان فريد قد خلع ملابسه البدوية وارتدى معطفه وهو يتمتم معربا عن رغبته فى الخروج للتجول بالقرية. خرج من البيت وعينا أمه تشيعه بتعاسة كبيرة، وكان أبوه ينظر إليه من تحت نظارته بتعاطف كبير. سمعاه يركض فى الفناء ويدخل الحظيرة؛ فأيقنوا بأنه سوف يتحسن فى الحال.

خرج بعده الولدان الآخران، ولم يكن يسمع بالمطبخ سوى دقات الساعة، ومواء القطة، وصوت قرقعة العجين فى الوعاء، حيث كانت الأم تعجن بعض الفطائر لتحشوها باللحم المفروم.

فى ضوء الحظيرة الخافت، كان فريد يحدث نفسه ويلومها؛ لأنه لم يتوقع ما حدث من نيللى، وقد حان الوقت ليتوقف عن خداع نفسه بالأوهام، وبأنه قد شفى أخيرا، فهى حتى لو كانت قد دعته للبقاء فكيف كان له أن يلبى ذلك؟ ولا بد أنها تعتقد بأنه يرغب بإلحاح فى أن يصبح السيد فى مطحن رامزلى. لقد كان غبيا حين ذهب إلى هناك، لتعتقد ما تشاء، فلست مهتما. قد تتذكر إننى اعتدت إصلاح أحذيتها فى بيتنا، وكانت تذهب لبيتها بحذاءى أنا، قد تتذكر إن أمى هى التى علمتها القراءة والكتابة وعمل الملابس، لا بد وأن تتذكر ذلك فى وقت ما.

كان متأكدا من أنها لم تنس. فهو يحس أنها كانت تود إنهاء الجفوة بينهما بسرعة، لكن لماذا لم تنه هى هذا الجفاء؟ إنها لم تفعل! قد تكون تفكر فى ذلك الفتى المبتسم الذى يعمل كاتبا. دعها تفعل فأنا لا أهتم.

سمع فجأة أصواتا آتية من ناحية الحقل خلف الحظيرة فجلس منصتا.

- هذه بركة من الوحل ولن نستطيع الدخول عبر البوابة. فلنتسلق السياج. هل تستطيعين يا بلانش؟ عليك الانحناء تحت شجرة البرقوق.
- هيا، هيا، همست بلانش، وزحفت الاثنتان فوق السور حتى وصلتا إلى نافذة المطبخ الصغيرة حيث كان الضوء ساطعا. خرج فريد من الحظيرة واختبأ خلف برميل الماء ورآهما تتوقفان عند النافذة وتنظران إلى الداخل.

(٨)

فى المطبخ كان الأب جالسا يقرأ الجريدة ويدخن وينظر إلى نار المدفأة، وكانت الأم تضع لمساتها الأخيرة على فطائر اللحم قبل إدخالها إلى الفرن.

همست نيللى:

- يبدو يا بلانش إن الأولاد قد خرجوا.
- يبدو ذلك.
- ربما كان بالداخل ولم يخرج، من المحتمل أن يكون فى الردهة.
- الأمر على ما يرام إذن، فقد ظننت أنه سيكون شديد التعاسة، ولن يدع أمه تراه كذلك.
- لا بالتأكيد.

ضحك فريد في سره.

استطردت بلانش قائلة:

- ولكن إذا لم يكن قد خرج فما الذى سنفعله؟ ما الذى سنقوله لأمه؟
- نقول لها إننا جئنا لبعض المرح.
- وإذا لم يكن بالداخل؟
- نمكث حتى يعود.
- وإذا تأخر الوقت؟
- لا عليك، إنها ليلة عيد الكريسماس.
- ربما يكون هو غير مهتم بالأمر.

قالت بلانش بنبرة ذات مغزى:

- أنت تعتقدين أنه مهتم وأنا كذلك. هل أنت شديدة التأكد من أنك تريدينه؟

قالت نيللى:

- بالطبع أريده يا بلانش ودائما ما كنت أريده.
- فلنبدأ إذن، لنغنى مقطعًا من "الملك الطيب وينسزلاس".

فوجئ الأب والأم بالأصوات التى يسمعانها بالخارج. كادت الأم أن تهرع إلى الباب، ولكن الأب أشار إليها بيده قائلا "دعيهما تنتهيان مما تقولانه".

نزلت الفتاتان من عند النافذة خشية أن يراهما أحد، ووقفتا بالقرب من بركة الماء. بدأت نيللى تغنى:

عد مرة أخرى وخفف آلامى

فبعيدا عنك قلبى يتألم

وبينما هى تغنى كانت تمسك بفرع من شجرة البرقوق العتيقة على مقربة شديدة من فريد. أسعدته الأغنية لدرجة أنه منع نفسه بصعوبة من أن يطوقها بذراعيه.

انتهت نيللى من الغناء، وفتح الباب وظهرت الأم وهى تمد يديها للأمام. اتجهت الفتاتان صوب الأم، ولكن فريد همس "نيل، نيل" وأمسك بها بين ذراعيه.

صاحت نيللى بفرح من المفاجأة، ودخلت بلانش إلى المطبخ، وأغلقت الباب وهى تضحك. جلست على المقعد الهزاز تثرثر وتتكلم عن مئات الأشياء. لاحظت أن الأم قد وضعت يدها على يد زوجها وهى تجلس بجواره، ولاحظت أن الأب قد أمسك بيدها، وربت عليها بعاطفة جياشة، وبعد قليل دخل الاثنان. كانت نيللى فى شدة الخجل، وبدون أن تقول أية كلمة أسرعت وطبعت قبلة على خد الأم، وتمهلت قليلا قبل أن ترتمى فى أحضان الأب. خلعت القبعة، وسوت خصلات شعرها، وجلست إلى جوار فريد وهى تحس بأنها فى بيتها بالفعل.



ذبابة في الزبد

(١)

أرسلت لى موريبل بعض زهور البنفسج وبعض الياسمين البرى فـــى باقـــة أنيقة مع بعض الورود الخضراء محاطة ببعض غصون البندق. وصلت الباقة فـــى علبة من الكرتون وأنا فى طريقى للذهاب إلى المدرسة.

قلت أنا للسيدة ويليامز "ضعيها فى الماء" وغادرت على الفور.

أثرت تلك الزهور البنفسجية فى مزاجى طيلة اليوم؛ فقد ظللت حالمًا ورقيقا، وبدت المدرسة وجلبة الصبية بعيدا عن اهتمامى، فرفاقى فى المدرسة كانوا ســبب شقائى البائس. أسعدتنى زهور الربيع اليانعة وأغصان البندق الشاحبة التى أرسلتها ميرييل لى، لكن الصبية اعتقدوا أننى أحمق فارغ الرأس، مما أثار حنقى وأضـــاع إحساسى بالسعادة.

تملكنى الفرح بقدوم الليل وظهور النجوم فى السماء، والتى كانــت تتـــوهج بزرقة قاتمة أرجوانية فوق المصابيح الذهبية. كنت مسرورا كما لو كنـــت أســـرع لأرى ميرييل، وأنها ستفتح لى الباب وستتركنى لحظات فى وهج النـــار قبـــل أن تضحك وتطل برأسها وهى تنثر الضياء على أقداح الـشاى. ولكنـــى تـــذكرت أن إليانور، فتاة المنزل هى التى فتحت الباب لى فى آخر مرة، وقامت بـصب قـدح الشاى لى وتركتنى وحيدًا.

كانت السيدة ويليامز قد وضعت باقة الزهور على المائدة. فأطلـــت النظـــر إليها وتذكرت الأشياء الجميلة التى قمنا بها أنا وميريـــل فـــى بيتنـــا بالميدلانـــدز، وبالنظرة البديعة التى كانت تنظر بها إلىّ، وبالأشياء الجميلة التى قلتها لها أو التى كنت أود أن أقولها لها، ورحت أتخيل الأشياء الجميلة التى سأقولها لها وهى تنظر إلىّ بعينيها الجميلتين عبر أغصان أشجار الغابة.

ورغم كمّ العمل الكبير الذى كان علىّ إنجازه، ورغم أننى انشغلت بعد ذلك فى العمل فإننى لم أنجز شيئا فى النهاية، وأحسست بالبؤس الشديد، قلت لنفسى، لن يجدى ذلك أبدًا، والتقطت قلمى وكتبت خطابا لميرييل، قلت لها فيه:

- كان رائعا منك أن ترسلى لى بتلك الزهور، فقد سحرتنى. كان طيفك ينبعث من داخلها ويتبعنى أينما ذهبت ويدفعنى للتفكير فيك، فلم أتمكن من القيام بالعمل الذى كان علىّ أن أنجزه، وكنت طوال الوقت الذى أقوم فيه بالقراءة مشغولا بك ومعك، لم أفهم شيئا مما قرأت لأنك كنت تستحوذين على عقلى، كنت أكتب موضوعا للإنشاء عن زهور الربيع وجاء رائعا؛ لأننى كنت أنظر لباقة الزهور التى أرسلتيها وأكتب مستوحيا منها. أحبك يا ميريل.

(٢)

لن أقول متى انتهيت من كتابة الخطاب، لكنى أتذكر إحساسى المفعم بالعاطفة وابتسامى لنفسى وأنا أغلق الخطاب وأضع كتبى وأوراقى فى أماكنها دون أدنى معرفة بأننى فعلت ذلك لأحافظ على الإحساس الخاص بوجودى بالقرب منها رغم أننى بعيد عنها. لا أتذكر أننى أطفأت النور. الأمر الوحيد الذى أتذكره هو أننى فتحت باب المطبخ.

يقع المطبخ فى مؤخرة البيت، وخارجه يوجد الفناء وحديقة صغيرة. نزلت عبر الممر من حجرتى المواجهة للمنزل، ودفعت باب المطبخ لآتى بكوبٍ من الماء. كان المطبخ مظلما فيما عدا بعض الجمرات المشتعلة فى الموقد. أصابنى الفزع قليلا، ربما من الفضول أكثر من أى شىء آخر. فتحت عينىّ قليلا فرأيت شخصا يختبئ بين الموقد والجدار. لم أنزعج، فقد كنت لا أزال شاطحا بخيالى بعيدا، فوقفت أراقبه فى فضول.

- لماذا؟ قلت ذلك بهدوء شديد، ربما كان ذلك هو السبب فى شعوره بالرعب؛ لأنه فى تلك اللحظة انكمش وبدأ فى التحرك بين المائدة والموقد، وهو يزمجر بصوت مزعج:

- لا تلمسنى، ولا تحاول الإمساك بى، سوف أضربك بهذا القضيب بين عينيك، أنا لم أفعل شيئا لك. لا تلمسنى أيها الجبان.

كان يتحرك طوال الوقت فى البقعة التى حاصرته فيها ما بين المائدة والموقد. كنت منزعجا لدرجة أننى لم أستطع عمل أى شىء سوى النظر إليه. بدا لى أن دمى قد تغير وأصبح باردا من شدة إحساسى بالضيق. كنت معتادا على هذا الإحساس مع رفاقى بالمدرسة. أحسست مرة أخرى بالازدراء والقرف. لم يكن ليجرؤ على ضربى إلا إذا حاولت الإمساك به وأخفته.

قلت له:

- توقف عن الصياح.. وقفت بعدها ساكنا لأتيح له فرصة التجول فى المكان الذى يقف فيه، ثم صحت بحدة "توقف عن صياحك البائس، أتريد أن توقظ الأطفال؟

رد بسرعة:

- ولكن لا تلمسنى ولا تقترب منى.

ثم توقف عن الحركة وأخذ وضع الدفاع وقد ضعف صوته تماما.

قلت له بازدراء:

- ضع القضيب جانبا أيها الغبى. وأشرت إلى ركن الموقد الذى يوضع فيه القضيب.

فعل ما أمرته به، وقذف بالقضيب إلى مكانه فتدحرج على الأرض محدثا جلبة. نظرت إليه وقد تملكنى إحساس بالغضب من هذا الساذج الجبان، ولكن قلبى

كان قد بدأ يدق بشدة. كان ارتباكه الشديد قد أفقده أعصابه فـانكمش فـي مكانـه بمذلة.

(٣)

أخذت علبة ثقاب من فوق المدفأة وأشعلت الفانوس المعلق فى سقف المكان، فلاحظت أنه شاب فى حوالى التاسعة عشرة من عمره، رفيع الوجه دقيق الملامح، لم يكن قبيح الخلقة، ولا يبدو عليه سوء التغذية ولكنه كان من أدنى طبقـة. كـان شعره محلوقا حول رأسه فيما عدا بعض خصلات ساقطة على جبهته تظهر أنه لم يحلق شعره فى السجن.

- لم أفعل شيئا. زمجر غاضبا وفى صوته نبرة تهديد.

قلت بصوت حاد:

- أسكت. أتريد إيقاظ الطفل وتجعل الجميع ينزلون؟ اغلق فمك.

ذهبت إلى الباب لأرى ما إذا كان صوتى قد أزعج أحدًا، ثم أغلقـت البـاب والنافذة التى كانت تأتى بهواء بارد، وأثناء قيامى بذلك أحسست برعشة، فقد كـان الطقس باردًا جدًا وقد سطع ضوء القمر على الثلج الذى يغطى أرض الفناء.

كان الفتى لا يزال واقفا فى مكانه، فجلست فى المقعد الهزاز، وسـألته فـى فضول:

- لماذا جئت إلى هنا؟

رد بسرعة:

- ألن تفعل أنت ذلك إذا لم يكن عند مكان تبيت فيه فى ليلة كهذه؟

قلت ببرود:

- انظر إلىّ، لا أريد وقاحة.

قال بخنوع:

- لقد جئت إلى هنا من أجل التدفئة فقط.
- لا أظن، لقد جئت لتسرق شيئا، ولا فائدة من إنكارك.

نظر الفتى نحوى ثم إلى يديه ثم نظر إلىّ مرة أخرى. كانت عيناه البنيتان يظهر فيهما المكر والدهاء، وقال بصوت يشوبه الخوف:

- ربما كنت سآخذ حذاءً.
- وبأى حق كنت ستأخذ حذاءً من أناس لا يستطيعون شراء غيره؟
- لم أفعل ذلك من قبل، وهذه هى المرة الأولى.
- أنا لا أصدقك أيها الحقير البائس.

نظر نحوى بحنق، فسألته:

- أين تعيش؟
- بشارع إكستر.
- وهل تقوم بأى عمل؟
- لم أستطع الحصول على عمل، فيما عدا توصيل الملابس من المغسلة لأصحابها.
- وهل فصلوك بسبب السرقة؟

تململ فى وقفته وبدا لى أنه غير مستريح، ولما أدركت عدم ارتياحه لم أضغط عليه أكثر، فسألته بنبرة طيبة:

- أين تعيش؟
- أعيش فى البيت.

- وماذا يعمل أبوك؟

تملكه العناد ولم يجب. فكرت فى عصابة الشباب الذين يقفون عند ناصية الشارع الرئيسى بالقرب من المدرسة طوال اليوم يلهون مع فتيات المغسلة ويسخرون من المارة، فقلت بانفعال:

- ما الذى سيصير إليه حالك؟

طأطأ رأسه وراح ينظر إلى الأرض، وبدا عليه الخجل ولم يجب، ويبدو أنه أحس بالضيق من تذكيره بالموضوع.

استطردتُ بسخرية:

- تتزوج فتاة تعمل بالمغسلة لتعولك أليس كذلك؟

ابتسم الفتى بمرارة، وأحسست بعدم جدوى الحديث معه، لكنى لم أتوقف، وصحت بصوت مشوب بالمرارة:

- سوف تظل تحوم حول ناصية الشارع إلى أن تتعفن. فنظر إلىّ بجمود وقال:
- لا أستطيع أن أجد عملا.

كان فى نظرى إنسانًا بائسًا وبلا طموح، وينتظر أن يعوله الآخرون، وقلت له بغيظ:

- إذا كان الإنسان يستحق أجرًا، فإن الأجر يستحق أن يكون من يأخذه إنسانا، وأنا لا أعتقد أنك إنسان.

(٤)

حدجنى بنظرات وقحة ولم يقل شيئا، لكنى لم أسكت وقررت أن أستمر فى تعنيفه بكلمات قاسية وقلت له:

- لا أظن أن هناك امرأة تسمح لك بأن تلمسها وأنت بهذا الوضع المزرى.

قلت ذلك، فابتسم وأخفى وجهه متحاشيا النظر إلى عينىّ، فكرت فى زهور الربيع الملونة وفى وجه ميريل البديع ثم فى هذا الفتى بثيابه القذرة وجلده المتسخ واستطردت قائلا:

- مهما قلت، فلن يجدى أى شىء معك.

حدجنى بنظرة من عينيه الضيقتين، وقال باستكانة:

- أنت لا تعرف عنى كل شىء.

فكرت فيما قال وأقررت بأننى لا أستطيع فهمه، وليست لدى مشاعر أخوية تجاهه. قلت له يائسا:

- من الأفضل أن ترحل، ولكن أستحلفك بالله أن تسرق فى أماكن أخرى.

تركت مكانى وقد تملكنى إحساس بأنه انتصر علىّ، فقد استطاع التأثير على أفكارى ولم أستطع أنا التأثير عليه. خرج عبر الممر وراقبته وهو يسير خائفا تحت أعمدة الإنارة، ثم أقفلت الباب.

وقفت ساكنا لبضع لحظات أمام الحاجز أتعجب من أمر هذا الفتى، ثم صعدت درجات السلم. كان الأمر أشبه بالكابوس، فقد كان ماثلا فى عقلى كأنه شىء ثقيل سقط على روحى، شىء أسود لم أستطع الفكاك منه.

عندما خلعت معطفى وجدت خطاب ميريل لا يزال فى جيبى فأحسست بالشجن وقلت فى نفسى:

- لا، أنا لا أريد التفكير فيها الآن، فقد كنت أشعر بالمرارة.

❀❀❀❀❀

أرانب ليسفورد

(١)

صبيحة الثلاثاء، كان علىّ أن أكون بالمدرسة فى الثامنة والنصف صباحا للإشراف على الإفطار المجانى. كانت وجبة الغذاء تقدم فى المقصف حيث يأكل الأطفال فى غرفة تتبع الكنيسة مزينة برسومات تظهر العشاء الربانى، بينما كنا نقدم الإفطار بالمدرسة فى غرفة أخرى بأعلى المبنى.

اندفعت صبيحة ذلك اليوم صاعدًا الدرجات الحجرية الست، فى التاسعة إلا خمس وعشرين دقيقة، فقد كان من عادتى أن أتأخر. غالبا ما كنت أجد جمعا صغيرا من الأطفال ينتظرون فى غرفة الرسم التى كانت تستخدم فى إعداد الطعام. أسرعت مخترقا الجمع الصغير لكى أتحقق من أن الأمور تسير على ما يرام. كان هناك فتاتان تضعان الأوانى، ومعهما فتاة أخرى تقف بجانب قدر اللبن حتى يغلى. كانت الحجرة دافئة وتبدو مريحة لأن النوافذ عالية والحوائط مغلفة بالخشب المدهون بالورنيش. كانت منضدة العمل على شكل المربع ناقصا ضلعا من أضلاعه. عندما وضعت صحائف الصبية على طول الحافة الخارجية للمائدة وصحائف البنات على الحافة الداخلية وصحائف الصغار على الخزانة بجوار الحائط، كنا قد أتممنا الاستعداد. أدخلت الثلاثين طفلا فتوجهوا إلى أماكنهم ووقفوا بالترتيب، البنات فى الداخل والأولاد يواجهونهم، والصغار بمحاذاة الحائط.

(٢)

فى الأسبوع الماضى لم تحضر المسئولة عن الصغار وكنت وحدى، هى امرأة ذات صلافة ودائما ما تحكم الأوضاع. وقفت متألما فقد أحسست بأننى أصبحت المسئول الوحيد.

بينما كنت أقوم بإدخال الأطفال، دخل المشرف وهو رجل صغير الجسم بأعين حادة وشارب كث، وبيده سلة كبيرة مليئة بقطع الخبز. نظر حوله دون أن يقول شيئا. ثم سأل:

- ألم تأت السيدة كالوك؟

قلت على الفور:

- "كما ترى".

زمجر ووضع السلة على الأرض، ثم شد قامته ومد ذراعه إلى الباب المقابل ثم صاح فى الأطفال:

- لا يلمسن أحدكم هذا الباب، أتسمعون؟ دعوا هذا الباب وشأنه.

نظر الأطفال نحوه بدهشة ولم ينبسوا بأية كلمة.

أردف:

- لقد وضعت أقفالا لتلك الأبواب. وأشار بذلك لى بأصبعين من يده كما لو أنه يشرح لى ما فعل، وينبهنى إلى اختراعه، فقلت:

- تلك الأبواب مزعجة. فنظر إلىّ بعينيه الحادتين وأسدل بذراعه إلى جانبه وقال:

إن الأطفال يتسربون واحدًا تلو الآخر ومعهم الطعام.

ثم نظر تجاهى لأؤيده، فانحنيت له مؤيدا، ثم قال فى النهاية:

- سوف يكون ذلك أمرا طيبا كما أعتقد، وانحنيت له مرة أخرى، فقال بصوت ودود:

- الوظيفة الأساسية وربما الوحيدة للمشرف هى أن يراجع أعمال الآخرين كما يفعل مراجع الكتب. وتركنى وذهب.

قلت للفتيات أن يعطوا ثلاث قطع من الخبز لكل لطفل، وأخرجت من اللبن حشرة كانت تطفو على سطحه. ملأت إبريق اللبن وبدأت فى توزيعه، لكل طفل حوالى ثلاثة أرباع اللتر إذا كان الطفل كبيرا، ونصف اللتر للصغير. كان كل

شيء قد تم بانتظام، وكان عليّ أن أتلو بعض الصلوات. لم أشأ أن أقول ما تقوله المسئولة عن الصغار والتي كانت تشكر الرب على كرمه، ثم تقول "فلنأكل ونشرب ببركة عظمتك الخالدة، آمين؟". نظرت إلى الصبية الذين يلبسون ثيابا صنعت من الملابس القديمة وإلى الفتيات بشعورهن المعقوصة كذيل الحصان، وإلى الصغار الذين يشبهون القرود الصغيرة.

تعجبت ما الذي ينبغي لي أن أقوله، كانت الصلاة الأخرى الوحيدة التي أعرفها هي "مقابل هذا ومقابل كل الأشياء الطيبة، ليجعلنا الرب شاكرين بحق لأنعمه". أصابني العجب مرة أخرى فمن ينبغي أن نشكره على الأشياء غير الطيبة. أصابني اليأس فقلت:

– استعدوا وامسكوا بأيدي بعضكم وأغمضوا عيونكم، فلنأكل ونشرب ونمرح لأننا قد نموت غدًا. أحسست باحمرار وجهي من الارتباك، ولكن أصوات الملاعق في الأوعية، وجلبة تناول الأطفال للطعام عمت المكان، فلم يلاحظوا ما قلت وسارت الأمور على ما يرام. كان الصغار ينحنون على صحائفهم، ويمدون أفواههم عند إدخال الملاعق فيها، وكانوا يسكبون اللبن على ملابسهم ويمسحوه بأكمامهم وهم مستمرون في الأكل.

(٣)

– كفوا عن ذلك أيها الأولاد، وكونوا مهذبين. قلت ذلك بصوت مرتفع من مكاني العالي. فكانوا ينظرون لي عندما يضعون الملاعق في أفواههم.

أحصيت عددهم فكانوا تسعة أولاد، سبع بنات وأحد عشر صبيا صغيرا، فغالبا لا يحدث أن يسجل عدد كبير من الأولاد أسماءهم للحصول على وجبات مجانية. كان من عادتي أن أسأل أحد الصبية الذي كانت تبدو عليه ملامح الفقر سؤالاً، فكان سؤالي من نصيب كيليت:

– هل أنت متأكد أنك لا تريد غداءً أو إفطارًا يا كيليت؟

نظر نحوى بفضول وقال:

- لا يا سيدى.

- ولكن هل لديك ما يكفى؟

- نعم يا سيدى.

كان شديد الهدوء ويخجل من أسئلتى، فلا أحد أو بالأحرى القليل جدا من الأولاد يقبلون الوجبات المجانية؛ لأن آباءهم لا يتحملون مهانة أسئلة المسئولين لأولادهم، مثلهم مثل أكثر الحيوانات غباءً فهم يفضلون الجوع عن قبول الإحسان؛ ولأن أقرانهم بالمدرسة سيعرفون ذلك.

- أين هالكت؟

- والدته مشغولة بالعمل. أجاب ليسفورد، وهو أحد تلاميذى الأقوياء.

كثير من الصبية فى الإفطار المجانى كانوا عنوانا للصحة، ما عدا ليسفورد فقد كان عديم المسئولية، وغير قادر على القراءة أو الكتابة أو الرسم، وإن كان متميزا فى الحساب، ولكنى أعتقد أنه من سلالة ذات تاريخ طويل فى الفقر المدقع. كان بارعا فى السوقية، حاد الذكاء فى الحساب، ولكنه يبدو شديد الغباء عند أى أمر يحتاج إلى دقة الإدراك. كانت له عادة مثيرة وهى النظر نحوى خلسة بعينيه الضيقتين وتكرار ذلك مرات ومرات، وعلى الرغم من أنه ليس متلصصا، فقد أعطى لنفسه هذا المظهر. كان قوى البنية وطيب الهندام فى ردائه الصوفى الأزرق على الرغم من ذلك الثقبين الواسعين عند كوعيه، واللذين يظهران من تحتهما قميصه الأبيض. كان نهما فى وجبة الإفطار ويلتهم خمس قطع من الخبز ويطلب أكثر.

(٤)

كنا نطعم الأطفال خبزا ولبنا فى يوم، وكاكاوًا ومعه خبز الزبيب فى اليوم التالى. لكن حدث وأن ذهبت فى أحد الأيام التى نقدم فيها الكاكاو وخبز الزبيب

للإشراف على الأطفال، فلاحظت أن ليسفورد لم يأكل كثيرا كما يأكل فـى الأيـام التى نقدم فيها الخبز العادى. كنت مندهشا فسألته "ألا تحب خبز الزبيب؟"، فقال إنه يحبه! صرت فضوليا فسألت المدرسين عما يعتقدونه فيه. قال السيد هيوارد الـذى كان مشرفا فى أحد أيام خبز الزبيب إنه متأكد من أن الصبى يحصل علـى وجبـة إفطاره قبل المجيء للمدرسة، وقال السيد جونسون الذى كان مشرفا فى أحد أيـام الخبز واللبن "إن الصبى كان شرها لدرجة أثارت تعجبه، راقبته وأنا أسـأل الأولاد "هل هناك من يريد المزيد من اللبن؟". وبينما كنت أنظر إلى وعاء اللبن وأنا أفرغ محتوياته، نظرت جانبا فجأة فضبطته وهو يخبئ قطعة من الخبز تحـت ملابسه وهو ينظر نحوى بطرف عينه. لم أظهر له أننى لاحظت ما فعل، ولكـن بعـد أن انتهى من تناول طعامه قمت وتتبعته. سألته أن يدخل الفصل معى، وأغلقت البـاب وجلست عند المنضدة. وقف مطأطئ الرأس وهو يعبث بقدمه فـى الأرض، تقـدم نحوى ببطء عندما أمرته بالقدوم، وضعت يدى على البلوفر الذى يرتديه وأحسست بوجود شيء ما تحته فلم يقاوم. سحبت ذلك الشيء فوجدته القلنسوة التى يغطى بها رأسه. ابتسم رغما منه ومد شفتيه للأمام وتصنع السكون. تحسست خـصره مـرة أخرى، فوجدت ثلاث قطع من الخبز فى جيب خفى داخل سـرواله، فنظـر لـى باستكانة وأنا أضعها على المنضدة أمامه.

- ما هذا؟، لكنه لم يجب.

- أيمكنك أن تخبرنى ما حاجتك لهذا؟

غمغم ببضع كلمات ثم نظر إلى الأرض، فوضعت يدى تحت ذقنه ورفعـت وجهه لأعلى. أغلق عينيه وحاول الإشاحة بوجهه كما لو كان هناك ضوءًا شـديدًا مسلطًا عليى عينيه يسبب له الألم.

- لماذا فعلت ذلك؟ أنا أعرف جيدا أنك تناولت الإفطار قبل مجيئك ولـم تأت لتأكل. لقد جئت لتأخذ الطعام معك.

- لم أفعل ذلك قط قبل اليوم. قالها بعناد.

- أنت لم تأخذ شيئا بالأمس، ولكنك فعلت ذلك أول أمس.

- لم أفعل، لم أفعل. رد بإصرار، فقلت له:

- أول أمس كان الأحد، وأنت أخذت يوم الخميس أربع أو خمس قطع من الخبز.

لم يقاطعنى، ونظر للأرض ثانية فقلت:

- خمس قطع على ما أعتقد. مسح الأرض بقدمه. وكان واضحا بأننى على صواب، فسكت ولم ينكر، ولم أحصل على كلمة أخرى منه. وقف يسمع ما أقوله وهو لا ينظر نحوى أو يجيب على أسئلتى. فأحسست بالغضب وقلت له:

- حسن، إذا جئت مرة أخرى للإفطار فسأبلغ عنك المشرف.

(٥)

فى اليوم التالى غاب عن الإفطار، وحين سألناه قال إن والده قد حصل على وظيفة.

كان دائما ما يجيء بحذائه متسخًا بالوحل، بما يوحى بأنه يجرى حول الحقول وفى كل مكان. استنتجت أنه لا بد وأن تكون فى عروقه بعض دماء الغجر من جنوب لندن. كان هالكت هو صديقه الوحيد. ولم يكونا يلعبان معًا أبدًا بالمدرسة أو كان بينهما شيء مشترك. كان هالكت ذكيا وواعدا بأن يصبح شيئا وشديد الحيوية لكنه كان ينقلب بسرعة من الدموع إلى الضحك، فى حين كان ليسفورد خنوعًا وضعيفًا وعلى الرغم من ذلك فقد كانا دائمًا معًا.

فى أحد الأيام وصل سارق الخبز فى الساعة الثانية والنصف بعد انتهاء تسجيل الحضور وهو يلهث وغارقا فى عرقه. لم يقدم تفسيرا لتأخره، وإنما وقف بالقرب من السبورة وهو مطأطئ الرأس، قمت من مكانى وصحت فيه:

- لماذا تأخرت وما الذى لديك لتقوله؟ وبالطبع لم يكن لديه ما يقول.

صحت فيه ثانية:

- لا تحاول خداعى. دعنى أسمع منك ما حدث.

كان يعرف أن عليه أن يقول شيئا. نظر إلىّ وهو يوشك على البكاء وقال:

- لقد ذهبت أرانبى جميعًا. قالها بنشيج حاد كما لو كان رجلا يعلن مصرع زوجته وأطفاله.

سمعتُ هالكت يتنهد فنظرت إليه. كان خارجا من مكانه ووجهه شديد الاحمرار، ثم همس له فى أذنه قائلا:

- من الذى أخذها؟

- لابد وأنك تركت لهم الباب مفتوحا؟ قالها لسفورد وهو فى شدة الغضب، ويوشك على الانقضاض عليه.

هز هالكت رأسه نافيا بشدة، وقال:

- لا، لم أذهب إلى هناك اليوم.

(٦)

ساد الصمت، وكان هذا هو الوقت المناسب لاستعادة سلطتى. أمرتهم بالجلوس واستأنفت الدرس.

زحف هالكت إلى قرب رفيقه وبدأ يهمس له ثانية، ولكن الثانى سكت ولم يرد، ثم جلس ساكنا دون أن ينبس بأية كلمة ولساعة كاملة.

عند الفسحة سألت هالكت:

- كم أرنبا لديكم؟

- عندما يولدون، أحيانا ما يصل عددهم إلى ستة عشر فلدينا اثنتين من الأمهات وذكر.

- منذ متى وأنتم تقومون بتربية الأرانب؟

- منذ وقت طويل يا سيدى. كان لدينا ست مجموعات من الأرانب الصغار.

- وماذا كنتم تفعلون بهم؟

- نقوم بتسمينهم. قالها بفخر ولم يقل شيئا آخر.

- وبماذا كنتم تغذونهم؟

نظر الصبى نحوى واحمر وجهه وبدا عليه الاضطراب وقال:

- حشائش خضراء وما نحصل عليه من الحديقة أو من الحقول.

قلت بهدوء:

- وخبز، أليس كذلك؟ نظر نحوى فلاحظ أننى لست غاضبا، تردد الصبى، أيكذب أم يقول الصدق، ولكنه اعترف:

- نعم يا سيدى.

- وماذا كنتم تفعلون بالأرانب؟ سكت ولم يجب!

- قل لى، فأنا أستطيع أن أعرف.

- نبيعها! قالها بإحساس المذنب.

- ومن الذى كان يقوم بالبيع؟

- أنا يا سيدى. كنت أعطيها لبائع الخضر.

- فى مقابل ماذا؟

- ثمانية بنسات للواحد.

- وهل كانت أمهاتكم على علم بذلك؟

هز رأسه بالنفى وقال:

- لا يا سيدى.

سألته مبتسما:

- وماذا كنتم تفعلون بالنقود؟

أطرق برأسه وقال بخجل:

- كنا نذهب إلى الملاهى.

بعد يوم أو يومين سألته إذا كان قد وجد الأرانب، فأجاب بالنفى. سألت هالكت عما يظن قد حدث لها.

قال بصوت مختنق بالدموع:

- أعتقد أن أحدًا قد سرقها. الباب لم يكن مكسورًا، ويستطيع فتح القفل بسهولة. هناك شخص جاء خلفنا الليلة الماضية ونحن ذاهبون لنطعمها، وأعتقد أننى أعرفه يا سيدى.





درس على السلحفاة

(١)

كان هذا هو الدرس الأخير. بعد ظهر الجمعة، وهو مخصص لدراسة الأحياء، من الثالثة والنصف وحتى الرابعة والنصف، عادة ما يكون الدرس الأخير فى الأسبوع مملاً للمدرسين والتلاميذ، ولأنه نهاية الأسبوع فلا داعى للحفاظ على الانضباط فى الفصل، وحيث إننى كنت أسمع بعض الصخب بين التلاميذ، فلم أعبأ.

ولكن درس الأحياء كان من الدروس الممتعة بالنسبة لى، وذات يوم وفى فترة بعد الظهر جئت بسلحفاة كبيرة ضخمة لم تكن قد دخلت فى شهور البيات الشتوى بعد. وكنت أعرف أن التلاميذ سوف يستمتعون برسمها ووضعتها تحت المدفأة. كانت السلحفاة تمد عنقها الجلدى ببطء وتنظر بعينيها إلى ولدين بجوارى. كان مزاجى طيبا فلم آمرهم بالخروج إلى الفناء خاصة أننا كنا فى فترة بعد الظهر يوم الجمعة ونهاية الأسبوع. أمرتهم بإخراج كتب الأحياء وجلست أنظر إلى السلحفاة وأنا أربت على رأسها بإصبعى. كانت شديدة الحيوية وتتشبث بالأرض بمخالبها.

كنت منشرح الصدر لأننى أعرف أن الأولاد سيستمتعون بالدرس، وقلت فى نفسى "لن تحاول السلحفاة السير، وإذا مشت فسيثيرهم ذلك، لكنى أستطيع إيقافها بسهولة لتحافظ على وضع السكون". انتظرت قدوم الأولاد بعد نهاية الفسحة وأحصيتهم وهم يدخلون الفصل. كان عددهم حوالى الثلاثين، وكانوا خليطا متنوعا من نوعيات مختلفة، فهم كانوا ستة من الصبية اللندنيين، وخمسة من أبناء الممثلين الأثرياء، والباقى من الصبية العاديين الفقراء الذين يلبسون أحذية ضخمة ممزقة والذين يحضرون معهم أحذية خفيفة ليلبسوها فى المدرسة فى الأيام التى يسقط فيها الجليد. كانت أصعب المجموعات هى مجموعة جوردون والتى كان من السهل

التعرف عليها؛ لأنهم حليقو الشعر، ودائما ما يكذبون، حتى يصيبوننى بالغثيان إذا ما وجهت إليهم اتهامًا ما، ولكنهم كانوا يستجيبون جيدا للرجاء.

كان أبناء الممثلين من نوعية أخرى، فبعضهم كان رقيقًا يسرك النظر إليه، والبعض الآخر مهذب ومطيع وغير مبالٍ، لكن جميعهم كانوا مهذبين.

(٢)

تزاحم الصبية حول المنضدة عند اكتشافهم وجود السلحفاة وهم يتهامسون.. هل هى حية؟ .. انظر إن رأسها تخرج .. هل تعض؟ .. وساد الصخب. أمرتهم بالجلوس فى أماكنهم فى مجموعات صغيرة وحركت المنضدة قريبا منهم. كانت السلحفاة ساكنة، وكان الصبية يلكزون بعضهم بعضا وهم يهمسون بملاحظاتهم عن السلحفاة، ثم بدءوا فى رسم السلحفاة، لم يستطيعوا التزام الهدوء أمام هذه الإثارة،

سألنى أحدهم:

– سيدى، هل نرسم العلامات الموجودة على الصدفة الخارجية؟، وسألنى آخر "هل لها فقط أربعة أصابع؟، ثم صاح ثالث "إنها تتحرك يا سيدى".

وضعت إصبعى على عنق السلحفاة وجعلتها تهدأ فى مكانها، ثم صحت:

– لا تجعلونى أندم لأننى جئت بالسلحفاة إلى هنا، كفى هذا واستمروا فى الرسم.

أحسست بالحاجة إلى بعض الهدوء، واستمروا هم فى الرسم باجتهاد، وقفت ونظرت من النافذة أتأمل الغروب الذى كان غروبا ذهبيا رائعا وعظيما، يمتد بجمال آخاذ ويغطى المدينة التى بدت تحته مجرد شريط داكن. تحت تلك الروعة السماوية كان الضوء الذهبى ينتشر ويغمر كل شىء فرفعت يدى لأمسك بضوء الغروب وأنا أبتسم، فقاطعنى من يقول:

– من فضلك يا سيدى، نحتاج لأساتيك.

كان الطلب محزنا، فقلت لهم إنهم لن يحصلوا على أساتيك مرة أخرى، وإن ما معى قد نفد، ولم يكن صحيحًا!

(٣)

فى نهاية اليوم الجمعة، كان مزاجى طيبا وسعيدًا، فتراجعت، وقلت لأحد التلاميذ بأن يذهب إلى الدولاب ويأتى بالأساتيك، فذهب وأخرج علبة حمراء وصاح بى قائلا بعد أن حصر عددها:

سيدى، إنها إحدى عشر فقط بينما كان بالصندوق خمسة عشر حين قمت بعدها يوم الأربعاء!

توقف الدرس ونظر الصبية نحوى. كانت السلحفاة تقف ساكنة، وكانت تلك لحظة أخرى من اللحظات الكريهة التى جاءت فى وقت غير مناسب، مما جعل بهاء الغروب وسحر المساء يذهبان عنى فى لحظة. كانت أعصابى متوترة، وصحت فيهم:

– لقد أصابنى اليأس والإحباط لأن بينكم مجموعة من اللصوص التعساء الأوغاد.

كنت أرتعد غضبا وحنقا، وصحت ثانية بقوة أكثر:

من هو اللص؟ أنتم تعرفونه!، كلكم مذنبون لأنكم تعرفونه أيها البؤساء. ثم نظرت إليهم بغضب شديد.

كان الصبية من مجموعة جوردون بوجوههم الباعثة على الريبة فى مواجهتى، فصحت فى أحدهم بقوة:

- ماربلز، أين هى الأساتيك؟

- لا أعرف يا سيدى.

- اشتد غضبى وصرخت فيه بأعلى صوتى:

- لابد وأنك تعرف، إنها لم تتبخر فى الهواء. نظرت إلى آخر بجانبه وسألته:

- راوسون، هل تعرف أى شىء عنها؟

- لا يا سيدى.

- سألت ثالث:

- وود، هل لديك أية فكرة عن الأساتيك الأربعة التى اختفت؟

صاح بوقاحة:

- لا يا سيدى.

- تعال هنا، وأنت يا بيرتون، أحضر العصا، سأضع حدا لهذه الوقاحة وللسرقة وكل شىء.

(٤)

جاء الصبى إلى مقدمة الفصل متثاقلا ووقف ينظر فى وجهى، أما باقى مجموعة جوردون فظلوا فى أماكنهم ينتظرون العقاب الذى سأوقعه على زميلهم.

ساد صمت ثقيل لعدة لحظات، وأعطانى بيرتون العصا واتجهت إلى وود. كان هو أقرب أفراد مجموعة جوردون إلى نفسى، فقلت له:

-الآن، سوف تنال عقابك على وقاحتك.

نظر إلىّ وعيناه تفيض بالدموع وصاح:

- أنت دائما تضطهد مجموعة جوردن.

كان ذلك أمرا يجافى الحقيقة تماما مما جعلنى أقل انفعالا. قلت له:

- يا لها من أكاذيب بشعة. أنا دائما ألتمس لكم العذر وأعفو عنكم.

- ولكنك تضطهدنا، ودائما ما تبدأ بنا، ماربلز وراوسون وأنا.. دائما ما تبدأ بمجموعة جوردن.

أجبته محاولا السيطرة على انفعالى:

-أليس هذا طبيعيا؟ .. ألم تسرقوا، ألم يسرق أولئك الصبية مرات عديدة وضبطوا متلبسين؟

- ليس هذا مبررا لما يحدث الآن.

-وكيف لى أن أعرف؟ أنتم لا تساعدوننى، فكيف أعرف؟ أليس من الطبيعى أن أشك فيكم؟

-لسنا نحن من فعل ذلك. نحن نعرف الفاعل وكل صبى يعرف من هو، ولكنهم لا يقولون.

نظرت فى عينيه وسألته:

- من الذى يعرف؟

- راوسون ومادوك ومارلنج يعرفون.

سألت أولئك الصبية أن يقولوا لى، لكن كل واحد منهم هزّ رأسه وقال: "لا يا سيدى". تجولت فى الفصل ولم أحصل على إجابة، أنكروا جميعا معرفة من الذى فعلها منهم.. ولم يقل من فعلها.

قلت للصبى وود:

- أترى ما يحدث؟ .. فأجاب:

- لن يقولوا. وأنا لم أكن لأقول لولا أنك هددتنى بالضرب.

(٥)

كانت صراحته مؤلمة ولكنى فضلتها عن الكذب. أمرتهم بالجلوس جميعا وسألت وود أن يكتب من هو على قطعة من الورق، ووعدته بألا أشى بالسر، ولكنه رفض. سألت الأولاد الذين ذكرهم، فرفض كل منهم الإجابة.. توسلت إليهم، فأصروا على الرفض. قال وود:

- فليفعل كل واحد ذلك.

قمت بتقطيع بعض الأوراق، وأعطيت كل ولد ورقة قائلا:

- على كل واحد منكم أن يكتب فى الورقة اسم الولد الذى يشك أنه اللص، فقد سبب لنا ألما ومتاعب، ومن واجبكم أن تفعلوا ذلك.

كتبوا ما شاءوا وجمعوا الأوراق، فوضعتها فى غطاء الصندوق وجلست لأتفحصها وساد الصمت وراح الجميع يراقبوننى. انسحبت السلحفاة إلى درقتها ولم يهتم بها أحد.

كانت بعض الأوراق بيضاء، وبعضها كتب فيه "لا أشك فى أحد". ألقيت تلك الأوراق فى سلة المهملات. كان هناك ورقتان عليهما اسم لص قديم فقمت بتمزيقهما، بينما اشتملت إحدى عشرة ورقة على اسم صبى من النجباء، فتذكرت كيف كان شديد الأدب عندما كنت أسأله. وكيف كان مستعدا لتقديم مقترحات، وتذكرت نظراته القلقة خلال الاستجواب، وكيف كان مستعدا لعمل أى شىء من أجلى. كنت أعرف أنه اللص، دون تذكر أى شىء. فقلت وقد شعرت بالأسى عندما اقتنعت بأن الأوراق على حق "أكملوا الرسم". كانوا غير مرتاحين وقلقين لكنهم ظلوا هادئين، وكانوا من لحظة لأخرى يراقبون ما أفعل. بعد قليل، دق الجرس

وقلت لأول الفصل ومساعده أن يجمعوا الأشياء وأرسلت الأولاد لبيوتهم. لم نقم بأداء الصلوات فقد كنا فى مزاج لا يسمح بذلك.

عندما انتهى مساعد أول الفصل من العمل وأطفئت الأنوار طلبت من أول الفصل أن يذهب لبيته وأبقيت مساعده وسألته:

- سيجر، هل تعرف أى شىء عن الأساتيك؟
- لا يا سيدى. كان صوته عميقا ورجوليا وهو ينفى بشدة، كما لاحظت احمرار وجهه وهو يتكلم.
- ولا عن أقلامى، ولا الكتابين اللذين ضاعا منى.
- لا يا سيدى، لا أعرف شيئا.
- وماذا عن الأقلام؟
- لا أعرف شيئا عنها يا سيدى.

هززت رأسى وقلت بنبرات مرتابة:

- ألا تعرف يا سيجر؟
- لا يا سيدى.

رفع رأسه وبدا ذليلا وهو الصبى الوسيم، لدرجة أننى تنازلت عن الأمر كله، وعلى الرغم من ذلك كنت أعرف أنه سوف يفعل ذلك ثانية عندما تحين الفرصة.

- حسن، لن تكون مساعدا لأول الفصل بعد الآن.
- كما ترى يا سيدى.
- اذهب إذن.

خرج وأغلق الباب خلفه وأطفأت النور، وتحققت من الدواليب وتركت المدرسة فى طريقى إلى البيت.

كنت متعبًا وأشعر بالضيق والضجر، ثم أقبل الليل، وشرعت السحب فـــى الحركة، وبدت لى الشوارع الساكنة القريبة من المدرسة وكأنها صحراء موحشة، فمشيت بخطى ثقيلة أفكر فيما جرى هذا اليوم.



كنيســة بـين الجبــال

(١)

من الأمور الطيبة أن يتجول الإنسان برومانسية بين هضاب جبال الثيرول. جلست حزينا فى الفراش وقد بدت رأسى بين الوسادة الضخمة كرأس ملاك بين السحب، كانت زوجتى أنيتا ترقد على السرير الأخر بجانبى وهى مغتاظة، فقد كانت السماء تمطر منذ يومين بغزارة غير معهودة. شرعنا فى التحرك وسحابات الرومانسية الزاهية تصحبنا ونحن نتجه جنوبا من إيسار إلى إيطاليا، ولم نبتعد كثيرا حتى تحولت السحابات الزاهية إلى سيول لا تنقطع.

لم ألق بالا لمتاعب البداية المتوقعة وأنا أنظر لوادى إيسار من خلف النافذة، والزهور الزرقاء متفتحة على جانبى الطريق، ولن أصف زحفنا وقت الظهيرة عبر سفح الجبل، والأمطار تسقط على رؤوسنا فوق قبعات القش التى نرتديها، وتتسرب إلى أحذيتنا بعد أن تتشرب حقائب الظهر التى تحوى أغراضنا بالماء. دخلنا إلى حانة صادفتنا بالطريق لنستريح قبل أن نستأنف المسير، فوجدنا بها سبعة من الفلاحين، ثلاثة منهم بملامح وسيمة استقبلونا أنا وأنيتا بحرارة وجلستُ أنا فى ركن بعيد والماء يتساقط من ثيابى.

كان الطقس رائعا بالأمس طوال الفترة من بعد الظهر وحتى المساء. تناولنا الغداء بجوار شلال تحيط به الزهور ونحن نشاهد الجبال وهى تطل علينا برؤوسها والفراشات تطير من حولنا. قالوا لنا إن هناك مدقًا عبر الجبل يقود إلى جلادشوت على مسيرة ثلاث ساعات ونصف فى الجبال الوعرة، وأرشدونا إلى بداية الطريق الذى كانت نباتات الفراولة تغطى جانبيه كالنجوم. تسلقنا قمة شديدة الانحدار ثم دخلنا إلى غابة من أشجار الصنوبر، فكانت موحشة ورطبة وكئيبة.

(٢)

تجولنا فى المكان لمدة ساعة قاطعين جانبا من المنحدر ونحن ننظـــر عبـــر الأشجار إلى منحدر آخر كان مظلما وكئيبًا هو الآخر، ولمدة ساعتين كنا نحـــاول التقدم ولكننا لم نستطع، ظللنا على ما نحن عليه بين المنحدرين نراقب المطر الذى يهطل بلا انقطاع ويتدفق إلى قاع المنحدر.

كانت حرارة أجسادنا تضايقنا من كثرة الحركة ومن ثقل حقائب الظهر التى نحملها على ظهورنا والتى من عيوبها أنك لا بد أن تكون متأكدًا من توازنك وأنت تقف فى مكان زلق؛ لأنك حين تحاول الالتفاف تدفعك الحقيقة فى ظهـــرك فتجـــد نفسك مطروحا على الأرض.

كان جانب المنحدر شديد الميل وبه العديد من البرك الصغيرة التى تجمعـــت فيها المياه وتسيل منها كشلالات صغيرة، ووسط تلك البرك كانت تظهـــر بعـــض الأشجار، وظللنا نخوض بأقدامنا فى البرك نبحث عن مخرج.

اختفت الأغصان فجأة وظهر الطريق أمامنا. قالت أنيتا:

- أنت تفقد أعصابكَ بسرعة.

تنحيت جانبا وتركت لها القيادة. اتخذت هى مسارًا آخر لأسفل، وبدأت تترنم بلحن خفيف. انزلقنا عبر المسار الذى اختفى تحت شلال من المياه ولم يظهر ثانية.

- حسن.. قلتها بضيق، فأجابت هى الأخرى بضيق:

- لا أعرف الطريق.

صحت بضيق أكثر:

- أترين!، حتى مسارك ينتهى إلى لا شىء.

صاحت بغيظ:

- أنا أكرهك عندما تعظ.

رددت قائلاً:

- على أى حال نحن لا يمكننا النوم عند نهايته.

(٣)

وجدت مسارًا آخر، ودخلته بحذر وأنا أتحسس موضع أقدامى. سرنا فيه لفترة ولكنه قادنا إلى الشلال الصاخب نفسه. صاحت بى:

- لا تنظر لى هكذا!

سرنا مرة أخرى فى الاتجاه المعاكس للمنحدر فوجدنا ممرا آخر، لكننا فقدناه هو الآخر؛ لأننا وجدناه ينتهى عند الشلال اللعين، قلت لها:

- ربما كان علينا أن نسير بالعرض.

صاحت بسخرية:

- لماذا أصاحب رجلا محبطًا مثلك؟

نظرت إليها باستغراب، ثم نظرت إلى الشلال الهادر والماء يندفع منه فوق الصخور محدثا صوتًا صاخبا. وضعت معطف المطر فوق حقيبة الظهر وغامرت بالعبور. كانت الضفة المواجهة على الطرف الآخر عالية وشديدة الانحدار. جازفت بالدخول إلى الممر المظلم وبدأت فى تسلقه، وضعت معطفى فوق حقيبة الظهر كالعباءة ليسمح لى بالحركة. جاهدت حتى وصلت إلى قمة المنحنى ونظرت لأسفل فلم أر شيئا، ولكنى سمعت أصوات ضحكات متواصلة، فصحت بأعلى صوتى:

- من هناك؟. ولكن الصوت اختفى وراء صخب الشلال. زحفت عبر الحافة وجلست فى العزلة المقبضة وقد خارت قواى، وفجأة سمعت نداءً:

- أين أنت؟ كان صوت زوجتى.. صحت قائلا:

- تعالى إلى هنا.

وصلت أنيتا وهى فى رعب من تسلق المنحدر الحاد، ومن وحشة المكان. قالت:

- خفت ألا أجدك. فقلت مازحًا:

- لا أنوى أن تفقدينى. جلست بجانبى وبدأت تثرثر، وبعد قليل كانــت تــضحك، وصدرها يهتز مع الضحك، فسألتها:

- ماذا يضحكك؟. أشارت إلى حقيبة الظهر التى أحملها وقالت:

- لأنك تبدو كالجمل بهذا السنم وأنت تتسلق المنحدر صاعدًا لأعلى.

نهضت واقفا وقلت لها:

- من الأفضل لنا أن نتحرك.

(٤)

وصلنا أخيرا إلى طريق بديع. كان مصبًّا لشلال قديم ويقود لأعلى المنحدر. قالت أنيتا وهى تنظر أمامها:

- نحن نخرج الآن من المنحدر. كنت متأكدة من ذلك.

ولكن بعد ساعة من المشى كنا لا نزال فى الطريق نفسه بين الأشجار عند سفح الجبل. رأت أنيتا كوخا للصيادين مصنوعًا من الشجر وذهبت لاستكشافه. كان الليل على وشك الحلول. صاحت من بعيد:

- لا أستطيع الدخول!

صحت لها أنا الآخر: عودى إذن.

كان الجو باردا ورطبا لدرجة يستحيل معها النوم فى العراء بدلا من العودة، انحنت تجمع بعض ثمار الفراولة وكانت سعيدة وهى تفعل ذلك. صحت لها ثانية:

- يجب أن نجد مكانا للنوم.

أدركت أننا تائهون بين الجبال، وأن الليل والبرد والمنحدرات الشاهقة قد نالت منا وأنه لا حيلة لنا فيما نحن فيه من برودة ووحشة، فعادت بسرعة. صعدنا لأعلى صامتين ونحن متشابكى الأيدى. كانت أنيتا متأكدة من أننا بصدد الخروج من المكان، ولكن يبدو أنها فقدت الثقة أخيرا فى ذلك.

بعد دقائق وعلى الرغم من الظلمة الحالكة وجدنا كوخًا بجوار ممر تغطيه الأشجار. قالت أنيتا:

- يبدو أنه كوخ لأحد الحطابين.
- أعتقد أنه مزار مقدس.

كنت على صواب، فقد كان كوخًا خشبيا وعلى بابه إكليل من الزهور الجافة القديمة. دفعنا الباب لندخل فأحدث صريرا قطع سكون الليل البارد بين الجبال. دخلنا على الضوء الخافت القادم من الخلاء. تفحصنا معالم الكنيسة الصغيرة وقد وضعت الشموع على المذبح ومجموعة كبيرة من الصور على الحوائط، بالإضافة إلى أربعة صفوف من مقاعد الصلاة، فشعرنا بالأمان. قمت بإيقاد الشموع كلها وتسلل الضوء منها واحدة تلو الأخرى فأضاء الظلام من حولنا، خلعت قبعتى وأنزلت حقيبة الظهر وأحسست بالسرور وكأننى فى البيت.

(٥)

كانت جدران الكنيسة مغطاة بالصور الملونة التى رسمها الفلاحون على الخشب وصنعوا لها بروازا من الخشب. تفحصتها لأرى ما فيها، فكانت صورًا لأبقار وخيول فى المراعى الخضراء، وصورًا لرجال راكعين فى بيوتهم. كنت سعيدًا بأننى وجدت نفسى بين الملائكة، وقلت لأنيتا:

- يا له من حظ رائع.

- ولكن ما الذى سنفعله؟
- سننام على الأرض بين مقاعد الصلاة، فالمكان متسع.
- ولكننا لا نستطيع النوم على الأرض الخشبية.
- وهل لدينا ما هو أفضل؟
- لا بد وأن هناك كوخًا للدريس بالقرب من هنا، فلا يمكننا النوم هنا.
- كما ترين.

توقفت عن النظر إلى الصور وتسلقت أحد الكراسى، بينما وقفت أنيتا أمام المدخل كالملاك الغاضب. كان ضوء الشموع يظهر وجهها الحانق وخلفها أغصان الأشجار والليل.

استدارت واختفت فى العتمة، وكنت أسمع صوت حذائها وهى تمشى على الصخور، فتركتها ونظرت مرة أخرى إلى الصور التى أحببتها. نظرت إلى واحدة ثم إلى أخرى. كانت صورا كتابية وكأنها روح تتحدث إلىّ. كانت صورا موجهة إلى الرب لأن الجياد والبقر والرجال والنساء والجبال هى لغته الخاصة، لكن كيف للرب أن يقرأ الألمانية والإنجليزية والروسية؟ الفلاحون يثقون فى فهمه لصورهم ولكنهم لا يثقون فى أنه سيهتم بكتاباتهم.

أمعنت النظر فى صورة زرقاء باهتة تمثل غرفة نوم وامرأة ترقد فى الفراش وبجوارها فى المهد رضيع صغير. كان الفراش أزرق وبدا كما لو أنه سيسقط من الصورة مما أوحى لى بأحاسيس الخوف وعدم الأمان. كانت المرأة فى الصورة ترقد وتنظر نحوى مباشرة من تحت الغطاء الأزرق بوجهها المستدير كوجه دمية، والطفل بوجهه الأحمر يبدو كالدمية هو الآخر، كان مكتوبا على الصورة

"ماريا تضع طفلا. إى جى ١٧٧٧"

نظرت إليهما وخمنت أن الزوج هو الذى رسمها. كنــت أنظــر للــصورة وأتعجب. الزوج إى جى لم يظهر فى الصورة. لقد رسمها لزوجتــه، ولــم يكــن بمقدوره أن يشرح رؤيته لزوجته وهى تعانى آلام الولادة ثم ترقد ساكنة فى ســلام مع الطفل، لم يستوعب الأمر. ولكن على الأقل تمكن من تسجيله، وقــام بتعليــق الصورة أمام أعين الرب موضحا حالها الذى لم يتمكن من شرحه، وكان راضــيا. كنت أيضا كذلك على الرغم من أن قلبى كان يتلهف طلبا لمزيد من المعرفة.

(٦)

لا يرى الرجال أنفسهم إلا فى المواقف التى تنطوى على مجازفة، وتكــون حياتهم فيها مهددة حيث تنتابهم قوة هائلة من الإحساس بالذات، وتظل تتملكهم إلــى أن يتجاوزوا الموقف الذى استدعى ذلك، وهم يظهرون أنفسهم فى أوضــاع غيــر معقولة فى اللحظة التى يقع فيها الحادث، كما يظهر فى الصورة الأخرى لجوزيف ريك، فهو كان فى وضع يشبه وضع لاعب الكرة الذى يقوم بركلة عالية جدا ويفقد توازنه، ولكن الأمر هو أن قطعة صخر سقطت على كاحله الأيسر كادت أن تودى بحياته، وأدت إلى أن ينزف الدماء، بينما وقفت السيدة العذراء مريم فوقه وحولهــا قطع من السحاب وقد مدت إليه يديها بلهفة. كان مكتوبا تحت الصورة

"جوزيف ريك يشكر الرب ١٨٨٤"

كان غريبا لى أن يشكر الرب لأن صخرة سقطت على كاحله، ولكن ربمــا كان الشكر لأنها لم تسقط على رأسه أو ظهره على الرغم من أنه كــان مجروحــا جرحا فطيعًا فى الصورة. لم يكن يفكر فى أن يشكر الرب لأن جبال التيــرول لــم تنقض عليه يوم ولادته؛ لأن هذا ما يحدث لكل واحد منا، ننتظر حتى تسقط قطعــة الصخر علينا ثم نشرع فى رسم صورة لما حدث، ونشكر الرب لنجاتنا. كل البشر يقولون "أشكرك يا ربى" سواء لأن صخرة سقطت عليهم، أو شجرة وقعت فــوقهم أو حــين

يسقطون من فوق مرتفع أو تجرفهم الشلالات. كل الحوادث تجعلهم يقولون "أشكرك يا رب، لأننى ما زلت حيا".

(٧)

كانت هناك صورة لنساء يتلين الصلوات، وكانت شديدة التأثير لأنها الصلوات كانت من أجل غيرهن من الناس، فهى من أجل أطفالهن وليس من أجل أنفسهن. كانوا فى حجرة ضيقة تشبه الزنزانة وقد ركعت امرأة تلبس رداءً روسيا متسعًا وتواجه شابًا راكعًا هو الآخر، وبينهما على الجدار الصخرى تتدلى سلسلتان حديديتان تنتهيان بحلقتين وفوقهما المسيح على الصليب، وفوقه مريم تلبس فوق رأسها وشاحا أزرق يتدلى فوق جسدها وتبدو وكأنها تتألم. كانت المرأة الراكعة ترفع يديها فى ضراعة وهى تصلى من أجل ولدها، وكتب على الصورة

"سوزانا جريلن، ١٧٨٣"

أعتقد أن السيد جريلن كان يعرف أن الأمر لا يخص الأم المقدسة. يا لها من مسكينة سوزانا جريلن. كان طبيعيا وأنثويا أن تعتقد فى أن القوة التى تعوزها فى أزمتها هى القوة الإلهية، لكن ما لم أستطع فهمه هو ما إذا كان ابنها قد اقترف إثما أم أنها تصلى للرب من أجله كي يحفظه . أعتقد أن المرأة لم تعرف كيف تميز هذا من ذاك ولكن من الواضح أن الابن كان يدرك أنه فى محنة ولكنه لم يبادر لطلب المساعدة الإلهية.

كانت بعض الصور عائلية وإن كان الصوت الذى يتحدث دائمًا هو صوت الأم. ففى صورة أخرى كانت مارى شينبرجر تشكر الرب لأنه شفى ولدها. كانت تركع فى جانب من حجرة النوم وبناتها الثلاث من ورائها وفى مقابلها زوجها راكعا هو الآخر وبينهما مسافة، والولد خلفه وكانت الأم المقدسة تحلق فوق صلواتهم الشاكرة. كانت الأسرة بكاملها مجتمعة للشكر على أن المذنب ينتظر

العفو من الرب، وأمام القدرة الإلهية كان الرجل منفصلا عن المرأة، والبنات منفصلات عن الولد وكل مجموعة على جانب، فى مواجهة العظمة الخالدة.

كانت المجموعة الأخيرة من الصور تشكر الرب على إنقاذ ما يملكون. إحدى السيدات كان لها ست بقرات – كلها حمراء اللون – رسمتها ترعى وخلفها الصخور. كانت كل الأبقار فى الصور التى شاهدتها برتقالية اللون إلا هذه الأبقار فقد كانت حمراء. كانت الزوجة الطيبة تشكر الرب لأنه أعادها إليها بعد أن فقدتها لمدة خمسة أيام. البقرات الست والعجلة الصغيرة التى لم يظهر إلا جزء صغير منها فى الصورة والتى ذكرت على أنها كانت مفقودة مع الأبقار الستة، لا أعرف ما حدث لها؛ فالأبقار يمكنها أكل الحشائش ولكن خمسة أيام تعد طويلة بالنسبة لعجلة صغيرة ترضع اللبن.

(٨)

كانت هناك المئات من الحيوانات المرسومة واقفة فى المراعى ومرتبة فى مجموعات، مجموعة من الأبقار الحمراء ومجموعة من الأحصنة البنية ومجموعة من الماعز البنى ومجموعة من الخراف الرمادية كما لو أنها تصطف فى طابور مدرسى. كانت العذراء مريم تباركهم. كان وقوف الحيوانات على ذلك النحو ذا دلالة رمزية. لم تكن ترمز لمجرد الثروة وإنما ترمز للحيوانات الحية التى يستخدمها الإنسان كغذاء، وكان وقوفها على ذلك النحو مرتبة فى صفوف يبعث على الخوف كما لو أنها جيش يهدد وجودنا.

امرأة واحدة وقع لها حادث وسقطت من أعلى الدرج، وقد سقطت بالقرب من القطة النائمة بجوار الموقد. استمرت القطة نائمة ولكن مريم ظهرت عبر السقف وقد ارتاعت، وكان انعكاس الهلع على وجه العذراء مؤثرًا جدًا فى الصورة.

كانت هذه الصور هى ما رسمه الفلاحون بالوادى الذى نطل عليه من أعلى لحساب النساء اللواتى دفعن مقابلاً لها. كانوا يعيشون تحت سفح الجبال حيث يخيم الخوف دائما. أحيانا يدركون أن الخوف إذا تملك رجلاً أو امرأة لا يـذهب إلا إذا تم تصويره، وإلى أن يتم تقديم الصورة إلى الرب الذى لا بد من إدراك قدرته وإن يتم ذكره وشكره فى الصورة.

فى وحشة العزلة وظلمة الجبل يقبع الخوف فى أعماق الناس. كان الخـوف هو أول الآلهة قبل الإله غير المعروف الآن والقادر على إفناء الحياة فـى أيـة لحظة، والذى كان ظله يتبدى فى كل شىء فى الوادى، وكان من دلائل معرفته تلك الصور التى رسمت بدافع الخوف وقدمت قرابين إليه. ولكن فى واجهة كل الصور كانت العذراء مريم هى المنقذة، فهى التى عانت لكنها انتصرت واستحقت الـشكر العلنى، ولكن الشخص الذى لم يعرف الخوف ولم يعانى لم يذكر اسمه على إطـار الصورة. إذن يجب على الإنسان أن يقر بخوفه حين يخاف.

عادت أنيتا ووقفت بأسفل وعلى رأسها القبعة ونظرت إلىّ بـضيق وسـقط الضوء على وجهها الذى كان ينطق بالحنق والإثارة وقالت:

هناك كوخ دريس على مقربة من هنا.

صحت أنا:

- امسكى بشمعة من أجلى لبضع لحظات.

قالت هى:

- إنه كوخ ضخم ملىء بالدريس فى منطقة مفتوحة .. لقد تسلقت ..

قاطعتها صائحا:

- أتمانعين فى إمساك شمعة من أجلى لثوانٍ؟

زمجرت قائلة:

- هيا بنا.

- أريد قراءة هذا .. إعطينى شمعة.

ناولتنى شمعة، وكنت منهمكا بقراءة بعض الكتابات على الجدار، فقالت:

- ألن تأتى؟
- نستطيع النوم هنا، فالمكان جاف وآمن.
- فلنذهب إلى كوخ الدريس .. وانظر بنفسك..
- سآتى فى التو.

اتجهت إلى المذبح وقالت:

- أليس هذا المذبح برائع. زهور ورقية جميلة.. وزينة وألوان.

كانت تلمس بأصابعها بعض الزهور الصناعية وتفكر فى أن تضعها فى شعرها. نزلت أنا من فوق الكرسى وقلت لها:

- إننى سوف أنتهى من قراءة الكتابات فى الصباح.

حملت حقيبة الظهر الخاصة بى، ونظرت إلى صندوق النذور بجوار الباب، وكان مفتوحًا ويحتوى على بضع عملات معدنية. وضعت فيه بعض المال كثمن للشموع، ثم ناديت على أنيتا وخرجنا، وأغلقنا الباب خلفنا وعدنا إلى ظلمة الجبال.



كوخ في الجبال

(١)

كنت غاضبا من أنيتا لإخراجى من الكنيسة إلى ظلمة الليل الموحشة، ففى الكنيسة شموع وأرضية خشبية، بينما فى الجبال كانت مياه الشلالات تسقط على الممرات وتجعلها موحلة. قالت أنيتا:

- لا تستطيع أن تتصور كيف بدت كنيستك رائعة عندما عدت من الظلام فوجدت الشموع مضيئة والداخل دافئا.
- إذن لماذا لم نبق هناك؟
- ولكن فكر فى النوم فى كوخ للدريس.
- الكنيسة تبعث الحماس فى الروح.
- نعم، ولكنها موجعة للعظام.

رحنا نجاهد ثانية حتى وصلنا إلى مرعى صغير بين قمم الجبال، أطلقت عليه أنيتا اسم "إبريق الشاى". بدت فيه الرؤوس السوداء للجبال الشاهقة من حولنا شديدة الرهبة، فأحسست بالضآلة وكأننى خنفساء فى قاع بئر. كان الكوخ يقف شامخًا متماسكا بين الأشجار. قالت أنيتا:

- أعرف كيف ندخل.

كانت الفرحة تغمرها لأننا سوف نبيت فى مكان مريح، فصاحت قائلة:

- الآن يجب أن نأكل ونشرب الشاى. قلت لها:
- أين الماء؟ أنصتت قليلا، وكان هناك ضوء يلمع بين أشجار الصنوبر. قالت:
- أنا أسمع صوت الماء.

قلت ساخرا:

- فى مكان ما بخندق بين الجبلين.

ردت هى:

- سأذهب لأستكشف..

اعترَضت أنا وقلت بحدة:

- لست بحاجة للذهاب إلى جانب الجبل، فلا توجد علامة على مكان للماء.

لكنها تقدمت عبر المرعى وأنا خلفها، وكاد أن ينكسر عنقى فى الأماكن شديدة الانحدار. كنت عطشان ولم يكن لدينا إلا القليل من الماء، فقلت لها:

- من المؤكد أن هناك ماءً فى الأماكن الواطئة.

تبعتنى إلى مكان قريب حيث وجدنا مستنقعًا، فقلت:

- هذا مستنقع.
- ولكنى أسمع صوت سقوط الماء.
- وما فائدة سقوطها إذا كانت رديئة؟

قالت بسخرية:

- أنت تواسيننى بالفعل. ثم اتجهت إلى الأمام وهى تشير بيدها إلى مكان بين الصخور، وهى تقول:
- أعتقد أنها ترتفع هنا، فإذا استطعنا الوصول إلى المنبع ستكون أفضل.

(٢)

تقدمنا عبر الطريق الموحل إلى أن وجدنا المكان الذى ينبع منه الماء. ملأنا أوعيتنا وعدنا. انزلقت قدمى فانسكب نصف الماء الذى أحمله، كانت قدماى شديدتى البرودة وكل شىء مبتل والظلام حالك، قلت لها ونحن ندخل الكوخ:

- لا بأس، ولكن الكنيسة كانت أفضل، فلم ترد.

جلسنا فى مؤخرة الكوخ وأعددنا شايًا وأكلنا لحما مجففا. طارد الريح المصباح فأطفأه، وبدأ المطر يسقط بشدة، وفقدنا فى العتمة مخزون السجق وعلبة الشاى، حيث سقطت بين الألواح. سمعتها تقول فى الظلام:

- أنا سعيدة تماما الآن.

أثارت كلماتها أعصابى وأنا أبحث عن علبة الشاى، وقبل أن ننتهى من تناول الطعام اشتد هطول الأمطار . أسرعنا بوضع الأشياء الباقية فى حقيبة الظهر واتجهنا إلى قلب الكوخ ولم يتبق معنا سوى القليل من الخبز للصباح.

كان الكوخ واسعا ومصنوعًا من الألواح المركبة فوق بعضها ولكنها غير جيدة اللصق، مما سمح للضوء أن يتسلل إلى داخل الكوخ حيث لم يكن ممكنا لنا إضاءته بالنيران حيث لا يجرؤ المرء أن يشعل الثقاب فى كوخ للدريس، صاحت أنيتا:

- ها هو السلم الذى يؤدى إلى الجزء الأكبر.

كانت الغرفة الأمامية ممتلئة لربعها بالدريس بينما كانت الغرفة الخلفية ممتلئة حتى السقف. تسلقت السلم وتحسست الدريس واضعا يدى فى مكان يبدو أن الماء كان يتسرب إليه من السقف.

- الدريس مبتل بالماء والرجل صاحب الكوخ سوف يفاجأ بأن الدريس قد تعفن تماما، إنه كوخ رديء الصنع. همست لى فى أذنى قائلة:

- أنصت إلى صوت المطر.

كان المطر يدق السقف بقوة والريح تضرب الباب بأسفل بقوة هائلة، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت سعيدا لأننى بداخله.

بعد قليل قلت مازحًا:

- للدريس عيبان، إنه يلسع كالحشرات الزاحفة، كما إنه يتطاير من شدة الريح.

ردت ساخرة منى:

- كيف يتطاير وهو مبتل؟

قمت بعمل بعض الترتيبات المهمة، وجمعت كل الأشياء الثمينة من بنس الشعر، حمالات الجوارب، الأقراط وأزرار الياقات ووضعتها بعناية فى قبعتى ووضعت القبعة فى مكان ما. خلعنا أحذيتنا المبللة وجواربنا ودفعت بالأحذية تحت الدريس لعلها تجف، ثم قمت بتعليق الثياب كذلك على أمل أن تجف أيضا، وقلت لأنيتا:

- عليك أن تربطى رأسك بمنديل، وسأقوم بجعل معطفى كغطاء لوسادة.

استجابت أنيتا بسهولة، فقد كانت السعادة تغمرها بحيث لا يمكنها الرفض. لم يكن لدينا بطاطين. لا شىء سوى ملاءة لكل واحد منا. قالت مازحة:

- إذا أصبت بالبرد فسوف أكرهك.
- لا عليك، فسوف أرعاك بعناية.
- يا لك من عطوف.

رقدنا فى المكان الذى يشبه القبر. قالت أنيتا فى الظلام:

- أخشى من أكوام الدريس التى تتساقط.
- لا بأس ، تستطيعين النوم تحتهم.
- سيكون ذلك بديعا.

قالت معقبة:

- والأبدع من ذلك لو أنك تخيلتها وسادة كبيرة.

ثم نظرت نحوى وهى تبتسم وقالت:

- أرجوك لا تفسد الأمر.

ابتسمت أنا أيضا، وقلت لها:

- إننى لأنام فى محارة لأسعدك.
- لا أريدك أن تسعدنى، أريدك أن تكون سعيدًا.
- فليساعدنى الله، ولسوف أكون سعيدًا.

(٣)

كان المكان دافئا، ولكن فى كل لحظة كان علىّ أن أهرش أنفى أو رقبتى من لسعات الدريس، وكنت مهما حاولت إبعاده، أجد بعدها قشة فى أنفى أو أخرى تسقط على جفنى أو شيئا منه يتسلل إلى رقبتي. قاومت كل ذلك وحاولت احتماله لكن بلا فائدة. كانت أنيتا تضحك فقلت لها:

- من الواضح أن جلدك ليس حساسا مثل جلدى.
- لا، فهو ليس بهذه الرقة.

سكتُ وحاولت أن أنام، لكنها لم تتركنى، وقالت:

- لماذا جعلت معطفك وسادة؟ دائما ما أجد وجهى فى أحد الأكمام.
- حاولى أن تضعيه بصورة أفضل.

نمنا، بعد أن عانينا من مداعبات الدريس السخيفة، وأيقظنى صوت الرعد. التصقت أنيتا بى فى خوف فقد كانت الظلمة مخيفة وصوت الرعد يدمدم خارجا بقوة هائلة تشبه انفجار القنابل، فقلت لها هامسا بسخرية:

- إنها أشياء إضافية لتزيد من مسرتك.

سألتنى بخوف:

- هل يضرب البرق أكواخ الدريس؟
- نعم، ينقض عليها ويحرقها ويحيلها ترابا.
- لا تخيفنى أرجوك.
- نامى إذن.

لم تنم أنيتا، فقد كان الرعد والبرق والريح وشلالات المطر ولسعات الدريس المؤلمة منغصات تجعل النوم مستحيلا. أحيانا ما كنت أختطف لحظات غفوة، ثم يجيء البرد وتهب الريح الثلجية على المكان من بين ألواح الجدران فأصحو، لم يفلح الدريس فى توفير الدفء لنا، فقد كانت الريح تمر إلينا من بين الألواح وهى محملة بكرات الثلج وتضرب وجوهنا حيث كانت الحماية المتوفرة لنا

ضعيفة. أصبح الجو أشد برودة بصورة بائسة. حاولت أن أغوص في الدريس بصورة أعمق، فلمست قدمى ساق أنيتا فوجدتها مثلجة، قلت لها مرتاعا:

- اخفضى رأسك لأسفل وغطيها جيدا وحافظى على الحرارة التى تتولد من جسمك.
- يجب أن أتنفس.
- الدريس يسمح بمرور الهواء.

(٤)

حل الفجر أخيرًا وانعكست على الجدران أشعة رمادية وظهر ضوء الفجر داخل الكوخ. تمكنت من تحديد مكان السلم ومكان حقائب الظهر. ظننت أننى سمعت صبيا يركل علبة من الصفيح بالخارج، ولكنها كانت صلصلة أجراس الأبقار أو الماعز.

- إنه الصبح.. صاحت أنيتا، فرددت مزمجرا:
- أتسمين ذلك صبحًا؟
- هل تشعر بالدفء يا عزيزى.
- قطعا، داخلى مثل الفرن!
- هل لنا أن نستيقظ؟
- نعم، ونستطيع أن نتحمل أكثر من ذلك البرد والبؤس.
- أنا سعيدة تماما .
- تبدين كذلك.
- هل شكلى سيئ لدرجة مرعبة؟

ثم نهضت ولبست معطفها وكان شعرها مليئا بالدريس. لبست أنا حذائى ونظرت من فتحة الكوخ، وقلت لها:

- تعالى وانظرى.

كان الجليد يتساقط طوال الليل فغطى الأماكن التى تعلونا مباشرة. كنا فى مكان تغطيه الحشائش وكل ماحولنا غابات أشجار الصنوبر، ثم تغير الوضع وارتفعت هامات الجليد الأبيض فى الفجر وغطت كل شيء. كان كل ما حولنا يكسوه البياض ومنعشاً وممتلئا بالغبطة. أحسست بالرغبة فى التسلق لأعلى فوق أشجار الصنوبر بحيث أصل إلى المنحدرات التى تخيلت أنها تنحدر من السماء، وبالتالى أصل إلى السماء. صاحت أنيتا "لا" وقد امتلأت عيناها بالدموع، فلم أفعل.

وقفنا لحظة ساكنين نتأمل بياض الجليد، وقد غمرنا الإحساس بأننا نحن الاثنان فقط هما من خلق الله. صاحت أنيتا، انظر.. أحسست كما لو أن الملاك جبريل كان يقف بجوارى، ولكنها كانت تعنى أن أنفاسى كانت تتجمد فى الهواء. قلت لها:

- البرد يختزل الإنسان إلى حفنة رماد.
- نعم يا عزيزى، يجب أن نشرب الشاى.

(٥)

أخذت وعاء لأملأه بالماء، كان كل شيء يبدو مختلفا فى نور الصباح واستطعت أن أجد مكان المستنقع بسهولة، ولكنى لم أجد منبع الماء. جاءت أنيتا لتبحث معى. كانت حافية القدمين لأن حذاءها مبتل. أخذت الوعاء منى ووجدت النبع وعدت أنا للكوخ لأعد الإفطار. كانت هناك شطيرة صغيرة وبعض الشاى، ثم جاءت أنيتا بالماء وقد حملته باتزان، ولكن كانت نظراتها حزينة.

قالت بانزعاج:

- كم هى مؤلمة تلك الأعشاب .. كأنها إبر..
- لا يفعل ذلك إلا مجنون، بأن يمشى عاري القدمين فى مثل تلك الظروف. كان يجب أن تؤلمك أكثر.. لا جريمة تفوق الغباء.

جلست لترى ما جرى لقدميها. أكلنا قطعة خبز بائسة وشربنا الشاى، وأوعزت لها بأن تخرج . قامت بوضع بعض مساحيق الزينة ثم خرجنا. كان الجليد يلمع فى الخارج، ولكن الأرض كانت مبتلة. صاحت أنيتا:

- أليس هذا رائعا!

اندفعنا عبر أحد الممرات ورأينا على البعد منزلا ريفيا ورجلاً يدلف إلى حظيرة الأبقار، همست لها:

- هنا يعيش اللصوص وقطاع الطرق.

أبصرنا امرأة تلبس سروالا أزرق كالذى ترتديه الفلاحات فى أثناء العمل. قالت أنيتا:

- خذ حذرك، فربما كانت ستقضى حاجتها.

- لا أعتقد.

كان المكان موحشا ومنعزلا، وباردًا وقذرًا. عند رؤيتها لأنيتا، جاءت المرأة ناحيتنا وكانت تبدو شاحبة كالموتى. سألتها أنيتا عن الطريق، فسارت أمامنا بخطىً تشبه خطوات الرجال، وأشارت إلى الطريق ثم عادت.

نظرت خلفى فرأيت المرأة تصعد الممر المنحدر بطريقة آلية وكأنها قد اعتادت صعوده مائة مرة كل يوم. كانت المزرعة ساكنة تماما، ويبدو أن المرأة قد تأثرت بهذا السكون والصمت، فهى لم تعبأ بنا ولم نهتم بأن تسألنا من أين جئنا وإلى أين سنذهب. رأيت الرجل عند باب حظيرة الأبقار. كان نحيفا وبشارب أصفر وشديد النحافة كما لو أن العزلة وقلة الغذاء يقربانه من الموت.

(٦)

أخذنا طريقنا لأسفل عبر الصخور فى فالق نحته نهر، على كل جانب منه كنا نسمع الشلالات الهادرة من حولنا. جرينا لكى نشعر بالدفء بمحاذاة الشلالات التى كانت تسقط فى برك خضراء بديعة لتعاود السقوط مرة أخرى. بعد ساعتين من الجرى لأسفل وصلنا إلى الوادى الذى يسمى وادى جلادشوت. كانت السماء

تهطل بغزارة شديدة، فدخلنا إلى كوخ صغير لأحد الحطابين. كان الموقد مشتعلا فشربنا القهوة ودخلنا للنوم. قلت لأنيتا.

- لقد قضيت الليل فى كوخ للدريس والآن تقضين اليوم التالى فى فراش.
- لقد فعلتها وأنا سعيدة لذلك.

استمر هطول المطر فمكثنا فى الكوخ الذى كان لصاحبه زوجة طيبة جعلتنا مستريحين تمامًا، وكانت تبقى أطفالها إلى جوارها، كانوا يجلسون هادئين وظهورهم للموقد وينظرون إلينا، قلت لها:

- أطفالك رائعون.

هزت رأسها وقالت:

- ليسوا كذلك، فهم متعبون.

قلت مداعبا:

- الولد يشبه أباه. فسكتت ولم تعقب.

كانت تفيض بالكبرياء وكان الزوج متميزًا. كان غائبا فى الغابة منذ يومين، ولكن صوره كانت تملأ المكان. كانت الصور توحى بأنه قوى البنية وشديد الغرور، وكانت هناك صورة له وهو يضع قدمه على كتف غزال. بعد قليل قالت لى الزوجة:

- نعم، لقد كان فى صحبة ولى العهد عندما اصطاد أول غزال له، ثم أخرجت لنا خطابا من ولى العهد إلى زوجها كارل وقرأته بفخر.





ذات مــرة

(١)

كان الصباح جميلا، وسحابة كثيفة من الضباب الأبيض تغطى النهر وتحجبه، كما لو كان قطارا قد مر مخلفًا وراءه نفثات الدخان. كانت قمم الجبال يكسوها الجليد تحت الشمس المشرقة، كما لو أنها تراقبنى وأنا أنظر إليها. كنت أستحم فى ضوء الشمس الآتى من نافذة الحمام المفتوحة على مصراعيها، وتاركا الماء ينزلق بسرعة على جسدى، أخذت أفكر فى الصبح البديع ونسيت أن أجفف جسمى بعد أن أنهيت استحمامى، ما إن ارتديت ملابسى حتى رقدت متكاسلاً على الفراش أنظر إلى الصبح البديع الذى أتانا وأنا أفكر فى أنيتا.

أحببتها منذ أن كنت صبيا. كانت ابنة لرجل أرستقراطى، ولكنها لم تكن غنية. كنت آنذاك ولدًا صغيرًا من الطبقة المتوسطة، لا أزال غضًّا متواضع التفكير، وما أن انتهت من دراستها حتى تزوجت من ضابط وسيم يشبه القيصر، ولكنه كان غبيا. كانت أنيتا فى الثامنة عشرة عندما قبلت أخيرا أن أصبح عشيقها، أخبرتنى عنه كل شىء بالتفصيل، وذات مرة قالت لى:

- "ليلة زفافى، رقدت أحصى الزهور على ورق الحائط، فقد أصابنى بالملل الشديد. كان من أسرة عريقة ذات سمعة فى أوساط الجيش، وكان قويا كالثور ويركب الحصان كفارس متمكن. هذه الأمور قد تبدو طيبة من بعيد ولكن عندما تعيش معها تصيبك بالسأم الشديد".

(٢)

رزقت أنيتا بطفلها الأول قبل أن تبلغ العشرين، ثم رزقت بالطفل الثانى بعد ذلك بعامين، ثم توقفت عن الحمل بعد ذلك. كان زوجها متوحشًا. أهملها

وعاملها كأنها حيوان لطيف. وزاد الأمر سوءًا أنه دمر نفسه وأغرقها فى الديون، فقد كان مولعا بلعب القمار. ثم ألحق بنفسه العار فى واقعة اختلاس وقبض عليه.

كتبت لى أنيتا مرة تقول: "لقد وجدت شعرة فى الحساء، ليست شعرة، وإنما خصلة كاملة". منذ ذلك الحين، بدأت تكرهه وتتخذ عشاقًا. كانت صغيرة السن رائعة ولم تكن تستطيع العيش فى شقتها ببرلين وهى وحيدة، فقد كان زوجها ضابطا فى فصيلة متميزة، وكانت أنيتا رائعة عند النظر إليها، لذا فهو كان فخورا بتقديمها لأصدقائه. الأكثر من ذلك أن أقاربها فى برلين كانوا أرستقراطيين وأغنياء، ويتحركون فى طبقات المجتمع الثرى. وهكذا بدأت تتخذ عشاقا. تظهر فى أنيتا مميزات سلالتها، فهى منتصبة القامة، شامخة وذات روح مرحة وطويلة وقوية البنيان وعيناها البنيتان مليئتان بالفضول وجلدها شديد البياض وأزغب ودافئ اللون ويناسب شعرها الأسود.

بدأت أنيتا تحبنى قليلا، فهى لم تحب أبدا، حيث لم يكن لديها أى احترام لرجل، وحين كانت هنا معى فى جبال التيرول فى العشرة أيام الماضية أحببتها، ولم أكن راضيا عن نفسى. ربما كان يجب علىّ أن أتأنّى، سألتها:

- ألم تقعى فى حب أى من الرجال الذين عرفتيهم؟
- أحببتهم، ولكنى وضعتهم جميعا فى جيبى.

قالت ذلك مع بعض من خيبة الأمل فى مزاحها ثم هزت كتفيها فى مواجهة نظراتى.

(٣)

تساءلت فى نفسى عما إذا كنت أنا أيضا سأدخل إلى جيب أنيتا مع حافظتها وعطرها وقطع الحلوى التى تحبها. لربما كان رائعًا أن تفعل ذلك. تمنيت لو أنها وضعتنى فى جيبها، فكم سيكون ذلك جميلا. ولكنى أحببتها ولن يكون ذلك عدلاً بالنسبة لها. أردت أن أفعل لها كل ما أستطيع لإسعادها.

فجأة انفتح الباب وأنا راقد، ودخلت أنيتا إلى غرفة النوم فضحكت من قلبى للمفاجأة. كانت تلبس قميصًا شفافا ينسدل فوق كتفيها وحذاءً عاليا وقبعة كبيرة سوداء، تحدها خطوط بيضاء ومغطاة بريش بنى فاتح. كانت قبعة رائعة والريش الناعم ينساب فوقها ويسقط إلى الخلف حين ترجع رأسها للوراء. نظرت تجاهى ثم ذهبت إلى المرآة، وسألتنى:

- هل تروقك القبعة؟

وقفت قبالة المرآة، وهى تنظر إليها وكتفها العارى يلمع من خلال قميصها الرقيق. كنت أستطيع رؤية جسدها بالكامل من تحت قميصها الشفاف وما تحت صدرها وذراعيها. لمع النور الفضى عندما رفعت ذراعيها لضبط وضع قبعتها وسألتنى السؤال نفسه:

- أتعجبك قبعتى؟

ولأننى لم أجب، التفتت ونظرت إلىّ، كنت لا أزال راقدا فى الفراش، ولا بد وأنها رأتنى أختلس النظر إلي جسدها بدلا من النظر إلى قبعتها؛ لأن الغضب لمع فى عينيها لكنه سرعان ما اختفى وهى تسألنى فى نبرات حادة:

- ألا تعجبك؟. قالت

- إنها رائعة، من أين جئتِ بها؟

- من برلين، هذا الصباح.

- أعتقد أنها كبيرة بعض الشيء.

شدت جسمها لأعلى قائلة:

- بالتأكيد هى ليست كذلك.

قمت من الفراش، وخلعت ملابسى وذهبت إلى المرآة ووضعت قبعة حريرية على رأسى وتقدمت تجاهها عاريًا تمامًا فيما عدا القبعة، وسألتها:

- ما رأيك فى قبعتى؟

نظرت إلىّ وراحت فى نوبة من الضحك الصاخب. وضعت قبعتها على كرسى ودخلت إلى الفراش وهى تهتز من الضحك. بين الحين والآخر كانت ترفع رأسها وتنظر إلىّ بعينيها السوداوين، ثم تدفن رأسها فى الوسادة، وقفت أمامها مشدوها كالأحمق، فاختلست نظرة أخرى تجاهى ثم صاحت:

- أنت فاتن وجميل.

وبحركة وقورة خلعت القبعة، وأنا أقول:

- وحتى هكذا، لا زلت أحتاج الحذاء العالى والجوارب الحريرية ومشدات الصدر.

انقضت علىّ ووضعت القبعة على رأسى وقبلتنى قائلة:

- لا تخلعها فأنا أحبك وهى على رأسك.

جلست على الفراش وسألتها مازحا:

- ألا تعجبك قبعتى؟ لقد اشتريتها فى الصيف الماضى من لندن.

نظرت إلى بسخرية وانطلقت فى الضحك الصاخب، وهى تقول:

- فكر ماذا سيحدث لو أن كل الرجال الإنجليز فى ميدان بيكاديللى مشوا على هذا النحو!

فضحكت أنا الآخر.

بعد فاصل من الضحك أكدت لها أن قبعتها بديعة، وتخلصت من قبعتى، وعدت إلى ارتداء ملابسى، ولكنها اعترضت قائلة:

- لماذا ستغطى نفسك.أنت تبدو رائعًا وأنت عارٍ، فيما عدا القبعة؟

- إنها التفاحة القديمة التى لا أستطيع هضمها.

كانت شديدة السعادة.. رقدت أنظر إلى ساقيها البديعتين وسألتها:

- كم عدد الرجال الذين فعلت ذلك معهم أيضا؟

صاحت مستغربة "ماذا"؟. فقلت:

- ألم يحدث أن دخلت إلى غرف نومهم وأنت تجربين قبعة جديدة؟
- ليس بالكثير، فأنا لم أكن بهذا الاعتياد على أحد من قبل.
- أعتقد بأنك قد نسيت، ولكن لا يهم.

ربما كانت المرارة فى صوتى قد لمست وترا فيها فأسرعت تقول:

- هل أنت من البلاهة لتصدق أنك أول رجل؟
- لا أعرف، فلا أنا ولا أنت من السهل خداعه.

نظرت إلىّ باستغراب.. فقلتُ مكملاً:

- كنت أعرف طوال الوقت أننى "مؤقت"، وأننى ربما لا أبقى طويلاً مثل البعض.
- أتشعر بالأسى على نفسك؟

هززت كتفيّ، ونظرت إلى عينيها نظرة سببت لى ألمًا عظيمًا، ولكنى لم أستسلم لها، فقلت بأسى:

- على أى حال، أنا لن أقوم بالانتحار.

قامت ورقصت فوق الفراش. أحببت ذلك فيها لأن لديها الشجاعة للعيش بمرح. قلت لها:

- عندما تفكرين فى علاقاتك السابقة تجدينها عديدة على الرغم من أنك لا تزالين فى الواحد والثلاثين فقط.
- كما تتصور، ولكنى أراك تؤكد على الواحد والثلاثين. ثم ضحكت.
- كيف تشعرين وأنت تفكرين فيهم؟

رفعت حاجبيها وظهرت الحيرة على وجهها، وقالت:

- هناك شيء لطيف فى كل واحد فيهم، فالرجال طيبون بدرجة كبيرة.
- هذا إذا، لم يكونوا نسخًا متشابهة.

ضحكت ثم بدأت فى سحب الرباط الحريرى لقميصها. بدت كتفاها فى بياض العاج القديم. قالت وهى تنظر بهدوء فى عينىّ:

- لا، لم أفعل شيئا أحس معه بالعار، ليس لدىّ ما يشيننى.
- أنا أصدقك ولا أعتقد أنك فعلت شيئا مشينا.

نظرت نحوى وهزت كتفيها ، فقلت:

– أعرف أنك لم تفعلى، فكل علاقاتك كانت لائقة، وكانت تعنى للرجال أكثر مما تعنيه بالنسبة لك.

(٥)

كان صدرها يوحى بالإثارة من خلال ملابسها الشفافة، وكانت تفكر.

قالت:

- هل أخبرك عن شيء فعلته؟
- إذا أردت، ولكن دعينى أحضر لك دثارًا، ثم قبلت كتفها الذى كان فى نعومة العاج. قالت:
- نعم، تستطيع ذلك.

أحضرت لها رداءً صينيا من الحرير الأسود بنقش أخضر، وقلت لها بدهشة كبيرة:

– يا لشدة بياضك فى هذا الرداء الأسود، وقبلت عنقها.

قالت بلهجة آمرة:

– أرقد هناك.

جلست فى منتصف الفراش، وجذبت رباط الثوب الحريرى الذى كانت ترتديه، وبدأت تجدله على هيئة زهرة. قالت لى:

- أشعر بالخجل مما سأقوله، لذا يجب أن تكون ودودًا معى.

مددت لها يدى بعلبة السجائر فأخذت واحدة ونفخت الدخان لدقائق، وقالت:

- عليك أن تسمعنى.

- قولى ما تشائين، أنا مصغ لك.

- كنت فى درسدن أقيم فى فندق فاخر واستمتعت بالإقامة فيه، فكل ما فيه كان رائعًا.. أجراس للطلب، تغيير الملابس ثلاث مرات فى اليوم، تقدير كبير لى كسيدة عظيمة وغانية فى الوقت نفسه. "لا تغضب من قولى هذا وانظر إلىّ! كان الرجل الذى واعدته فى معسكر بالقرب من الفندق. كنت لأتزوجه إن استطعت".. هزت كتفيها وأطلقت سحابة دخان من السيجارة، واسترسلت:

- بعد ثلاثة أيام من الإقامة بالفندق، أحسست بالملل. كنت وحيدة باستمرار، أذهب إلى المحال وإلى الأوبرا وحدى، وكان الرجال ينظرون نحوى من وراء زوجاتهم، ثم حدث بينى وبينه سوء فهم، رغم أنها لم تكن غلطته، فهو لم يستطع الحضور فى اليوم الرابع، كنت أنزل الدرج وأنا أشعر بجمالى الآخّاذ وأشعر بالفخر من نفسى. كنت أرتدى ثوبا فى لون القهوة باللبن شديد الروعة.

سكتت لحظة وتنهدت، ثم استطردت:

- وكان على رأسى قبعة سوداء بحافة بيضاء. كدت أسقط حين اصطدم بى رجل كان مسرعا. كان ضابطا صغير السن، ويبدو رائعا كالأرستقراطى الألمانى فى عظمته. لم يكن شديد الطول فى زيه الأزرق الداكن، ولكنه كان ينبض بحيوية الشباب. لمسنى تيار كهربائى وكأن نارًا قد سرت فى كيانى حينما نظرت إلى عينيه. كانت عيناه تشتعلان بالإحساس بى، وكان لونهما يماثل لون زيه الأزرق. نظر إلىّ ثم انحنى الانحناءة التى تستعذبها النساء، وقال:

- أرجو أن تقبلى اعتذارى يا سيدتى.

(٦)

أحنيت رأسى، ومضى كل لحاله وكأن شيئا يفرقنا على الرغم منا. ظللت قلقة طول اليوم ولم أستطع البقاء فى مكان واحد. كان شيئا يتدفق فى عروقى. وبينما كنت أشرب الشاى فى التراس وأشاهد الناس وهى تسير، فإذا به واقفا أمامى يحيينى، ثم يأخذ مقعدا ويجلس معى. لم أكن مندهشة مما فعل، وكنت أعلم بأنه يظننى غانية.

نظرت ساهمة فى أنحاء الغرفة وهى تستعيد الماضى، ثم استرسلت:

- ولكن اللعبة استهوتنى وأثارتنى. أخبرنى أن عليه الذهاب إلى حفل راقص تلك الليلة ثم..

سكتت ونظرت إلى السقف، فقلت:

- وبعد ذلك؟

تنهدت وتظرت إلىّ مسترسلة: أخبرته برقم غرفتى، ونزلت للغداء، وتحدثت مع بعض الناس بجوارى، وكان باقيا مدة ساعتين على موعد حضوره. قمت بالتزين وأمرت بإحضار باقة من الزهور وضعتها فى آنية أنيقة. كانت الستائر بالغرفة حمراء والسجاد أبيض يحيطه إطارًا تركوازى مصنوعًا فى إيران، وكانت رأسى تموج بالتوقعات.

فى نصف الساعة الأخيرة من الانتظار كنت أرقد فى الظلام، وأنا أرتدى ثوبا حريريا مثيرًا ذا لون أزرق، وعندما سمعت صوتا خارج الباب حبست أنفاسى. دخل الغرفة بسرعة وأغلق الباب خلفه، وأضاء الأنوار كلها. كان الضوء يلمع على شعره البنى وكان يمسك بشيء تحت معطفه. جاء نحوى وألقى علىّ من تحت المعطف بالورود الحمراء، وكانت رائعة. خلع معطفه فأعجبنى قوامه فى زيه

الأزرق، ثم حملنى من على الفراش وقبلنى، ويا لها من قبلات، فقد كنت أشعر بشفتيه من خلال ثوبى الرقيق، ثم نزع ثوبى ونظر إلىّ. أطلق صفيرا من شدة انبهاره كما لو كان يرى فينوس ربة الجمال أمامه. أرقدنى على الفراش مرة أخرى، وسحب علىّ الغطاء برقة ووضع الورود على الوسادة بالقرب من شعرى. وبدون أى خجل خلع ملابسه. كان صغيرا نحيلا ولكن قوى الجسد. وقف ينظر لى بوداعة، فمددت له ذراعىّ.

(٧)

قضينا الليل بطوله نتطارح الغرام، وانسحقت الورود تحتنا والتصقت بجسدينا بعض من أوراقها التى بدت علينا وكأنها بقع دماء. كان عنيفا ورقيقا فى آن واحد.

ارتعدت شفتا أنيتا قليلا وسكتت لحظة، ثم عادت واسترسلت:

- عندما استيقظت فى الصباح كان قد رحل مخلفا بعض الكلمات على بطاقة الدعوة لحفل الرقص على المنضدة الصغيرة بجوارى، ويدعونى فيها أن أقابله فى تراس الفندق بعد الظهر. ولكنى ركبت القطار إلى برلين فى الصباح.

جلسنا صامتين، فهَمَسْتُ لها:

- ثم ماذا؟
- لم أره بعد ذلك مرة أخرى.

وضعت ذراعيها حول ركبتها وتنهدت، فقبلتها فى شفتيها وكان الثعبان المرسوم على ردائها الأخضر يحملق فى وجهى.

ظللنا لحظات ننظر لبعضنا فى صمت، ثم سألتها:

- هل أنت نادمة عليه؟. أجابت:

- لا، وإن كنت لا زلت أذكر الطريقة التى فك بها حزام سيفه وحمائل خصره وقذفه بها على الفراش الآخر.

كنت أستشيط غضبا من أنيتا، وأستغرب كيف تحب رجلاً لطريقته فى فك حزام سيفه؟ استمرت مستطردة:

- كان كل شىء معه يبدو رائعا.

- حتى رغم عدم رؤيتك له مرة أخرى؟

قالت بهدوء:

- نعم.

(٨)

استمرت فى التذكر واستعادة الحلم بشغف.

- قال لى إننا كنصفى ثمرة الجوز.. وقال لي أشياءً أخرى جميلة مثل "أنت الليلة الإجابة على كل تساؤلاتى"، و "أى جزء ألمسه فيك يملؤنى بالسرور"، و"لن أنسى الملمس المخملى لجلدك".. الكثير والكثير من الأشياء الجميلة قالها لى.

كانت أنيتا تقول هذه الكلمات وهى منتشية، وأنا أمامها أقضم أظافرى من شدة الغيظ.

- لقد وضعت له ورودا فى شعره، وجلس ساكنا وأنا أضع له الزهور. لقد كان قوامه مماثلا لقوامك.

كانت هذه المجاملة هى آخر الإهانات التى وجهتها لى.

- كانت معه سلسلة ذهبية تنتهى بفصوص من الزمرد فقام بلفها حول ركبتى لأبدو كالسجينة.

قلت لها:

- وتمنيت طبعا لو أنه احتفظ بك سجينة.

- لا، إنه لا يستطيع.

- أنت إذن تحتفظين به فى ذاكرتك كنموذج تقيسين عليه مقدار السعادة التى تحصلين عليها من الآخرين.

قالت بهدوء.

- نعم

عندئذ أدركت أنها تريد أن تدفعنى إلى أقصى درجات الغيظ. سألتها:

- ولكنى أعتقد أنك تخجلين قليلا من تلك المغامرة.

أجابت بسرعة:

- بالقطع لا.

أصابتنى باليأس، أيقنت أن المرء لا يمكن أن يفوز فى حوار مع امرأة. وخاصة إذا كانت مثل أنيتا. رقدت ساكنا أنظر إلى سطوع الشمس، فسألتنى:

- ماذا تعتقد؟

- سوف يبتسم الساقى عندما ننزل لأسفل لشرب القهوة.

ألحت فى أن تعرف، وقالت:

- قل لى.

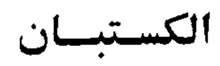
صحت فى غيظ:

- الساعة التاسعة والنصف الآن، سأقول لك بعد أن نعود.

ولكنها أصرت:

- أريد أن أعرف الآن.. ماذا تظن فىّ.
- لا شىء، لكن أعتقد أن ما تريدينه تحصلين عليه.
- فى الحب.
- فى كل شىء.




الكتبان

(١)

لم تر زوجها لعشرة أشهر منذ أن قضيا شهر العسل معًا وغادر هـو إلـى فرنسا. فى تلك الأيام المثيرة لبدايات الحرب كان هو رفيقها وشريكها فى المـرح الصاخب. الآن اختفى ذلك كله من عقلها وغاب بعيدا عن حياتها ووجدانها، فمنـذ شهر العسل، عاشت وماتت وعادت إلى الحياة من جديد. لقد غادر إلى الجبهة.

قالت لأصدقائها "إذا أرادت المرأة أن تحب زوجها فعليها أن تراه فى الـزى العسكرى". لقد أحبته بالفعل، فهو كان شديد الوسامة فى الزى العـسكرى ويبـدو رائعا، ولو أنه كان متحفظا وغامضا وكان ذلك ملائما للزى الذى يرتديه.

قبل ذلك، كان يعمل محاميا ولم يكن لديه ما يقوم به، كان متراخيـا وغيـر مقنع، ولم يكن لديها حافزا كافيا لأن تتزوجه، فلم يكن لديه المال الكافى.

ثم جاءت الحرب الكبرى وكان عليه أن يشارك فيهـا كمـلازم فـى المدفعيـة. أحست بالنشوة لرجولته الهادئة وأهميته، فقد أصبح جنديا. بدا لها أنـه اكتـسب أهميـة مبهرة جعلتها تبدو بجانبه غير ذات أهمية على الإطلاق، وهى التى أصبحت غير هامـة وتابعة له بينما كانت العزة والعظمة تغمرانه. عرض عليهـا أن يتزوجهـا فتزوجتـه، ضربت بكل الاعتبارات عرض الحائط. مرت بالتجربة المدهشة لأسبوعى شهر العـسل وقبل أن يذهب إلى الجبهة، لم تتجاوز قط مرحلة الدهشة، فهى لم تكن تفكر منـذ ذلـك الحين على الإطلاق، وإنما اندفعت فى عاصفة من النشاط والإحساس. كان هناك البيـت الذى عليها أن تصنعه على الرغم من عدم وجود المال اللازم لـذلك. ولكنهـا انـدفعت بقوة المرأة لإنجاز العمل، وجدت شقة صغيرة فى حى ماى فير، وكانـت تـذهب إلـى صالات المزادات واشترت بعض الأثاث المناسب حتى جعلت المكان كـاملا متكـاملا. كانت قانعة بالشقة صغيرة فقد كانت كافية.

(٢)

كان لديها بعض أعمال خدمة الحرب لتقوم بها كما أنهـا حافظـت علـى أنشطتها الاجتماعية. لم يتوافر لديها الوقت الذى تحس فيه بأنهـا تحـررت مـن الانشغال التام.

كانت خطاباته تأتى طوال الوقت من فرنسا وكانت ترد عليها، وكـان كـل منهما يرسل للآخر كمًّا كبيرا من الأخبار ويعبر عن عواطفه. وفجأة، ووسط كـل ذلك النشاط، سقطت مريضة بالالتهاب الرئوى وسقط كل شيء فى هذيان الحمـى، وفى أثناء مرضها أصيب هو الآخر وهو فى القتال، وقد تحطم فكه وجرح وجهـه بشظية، وهكذا سقط كلاهما مريضا.

الآن تعافيا وأصبحا فى وضع أفضل، وكانت تنتظر رؤيته، فهى لم تره منذ أن كانت مريضة. كانت تفكر كثيرا، فهى كانت امرأة تحاول دائما الإمساك بكـل خيوط حياتها، وتحاول أن تجعل منها شيئا متماسكا. كان مرضها كالجـدار الـذى يفصل بينها وبين حياتها السابقة. نظرت للخلف وتذكرت كل مـا فعلتـه وكانـت مندهشة ولا تملك مفتاحا للغز. فجأة، أدركت أنها تتعجب، فلم تكن تعرف شيئا عن ذلك الرجل الذى تزوجته، وهو لا يعرف شيئا عنها. كل ما تعرفه عنه هو صورته الشكلية وتستطيع أن تراه بعيون عقلها. تستطيع أيضا أن تتذكره كما لو أن جـسده بكامله قد أضاء بنور ساطع. ثبتت الصورة فى عقلها على هذا النحو.

لكنه كان مجرد انطباع، انطباعها الخاص عنه، كانت تعرفه جيدا، لكن الذى كان عليه بالفعل .. أزعجتها الفكرة، فقد كانت كمن ينظر فى ظلام دامس، فكل ما كانت تعرفه عنه هو علاقتها به والتى كانت شديدة الخصوصية. ولكن لا بـد وأن هناك رجل، كائن آخر، وفى مكان ما.

أصابتها الفكرة بالرعب الشديد فى أثناء مرضها، وبدت روحهـا الـضعيفة وكأنها تبكى. كانت معضلة جديدة ورعب جديد، وبدا أنه لا أمل لها.

(٣)

لم تكن تتحمل التفكير فيه كما عرفته. لم تكن تستطيع استعادة تلك الصورة الحية له والتى تبقت عنه فى ذاكرتها منذ أيام شهر العسل. فقد كان شيئا زائفا. الرجل نفسه كان شيئا مختلفا، الآن تخافه وتخشى عودته، لكنه سيعود على الرغم من كل ذلك، فليعد إذن، يغير الصورة التى كونتها عنه.

شبكت أصابعها البيضاء الطويلة فى بعضها وراحت تفكر. كانت امرأة جميلة، طويلة ونحيفة وتناسبها تماما موديلات الأزياء الحديثة. جلدها أبيض ناصع كالثلج، وشعرها رمادى داكن كثيف، وعيناها واسعتان، وأحيانا تميل للزرقة بنظرة طفولية، وأحيانا تكون خضراء وفى حالات أخرى تشبه البحر الصاخب حين تكون حزينة.

جلست فى غرفتها بشقة الماى فير تنتظر مجيء زوجها لرؤيتها، وكانت قد استعادت عافيتها، ولكنها كانت متعبة قليلاً وهى تجلس على المقعد وخادمتها تقوم بتصفيف شعرها.

كانت تدرك أنها جميلة، وأنه حين يراها سيتولد لديه انطباع بأنها ما زالت تحتفظ برونقها وذلك يسرها ويجعل معنوياتها عالية، ولكنها كانت تشعر بالملل فى أعماقها. كانت تريد رفع شعرها لأعلى وفقا للموضة السائدة بما يتناسب مع قسمات وجهها وقوامها. رفعت عينيها لتنظر إليه لكنها فى هذه اللحظة كانت مضطربة ومثقلة، فلم تهتم.

(٤)

لم يخطر ببالها قط أن تتوقع شيئا من الآخرين، فقد كانت تحس بالمسئولية عن نفسها بصورة كاملة. قالت للخادمة بكلمات مقتضبة "لا تدعى الشعر يسقط على أذنى، ارفعيه لأعلى ثم اربطيه من أسفل ليبتعد عن جانب الوجه".

- سأفعل يا سيدتى.

استمرت الخادمة فى تمشيط الشعر واستمرت هى فى أفكارها وكأنها تتزين لكى تقابل عريسها، ولكنها حين فكرت فيما سيحدث عند مجيئه انقبض قلبها. كانت لا تزال كفتاة بالمدرسة ودائما ما تنظر لنفسها على ذلك النحو، فقد كان ذلك يرضيها، وكانت دائما ما تسخر من نفسها حين تجد نفسها فى المواقف الرومانسية، وكانت تعتقد أنها ستتصرف بكفاءة لو أن قطاع الطرق واللصوص خطفوها؛ لأنها فى الحياة، دائما ما تشعر بالمسئولية الذاتية الثقيلة المؤلمة، ولا يحركها أى حدث تحت أية ظروف.

(٥)

هذا الصباح سيأتى زوجها لرؤيتها وهى تتزين لتقابله. أصابها ذلك بالثقل والجمود وكأنها تمثال من الصخر، وكانت فى أعماقها غير مستريحة ولا يؤثر فيها قدوم الرجل الذى تعرفه. لكنها سوف تؤدى دورها فى استقباله. كانت تفكر فيه وكأنها لا تعرفه، وارتعشت روحها خوفًا.

على أى حال سوف يكون مختلفا، والانطباعات التى لديها عنه، عن وسامته، نحافته، لونه وجاذبيته يجب أن تنحيها جانبًا الآن. تذكرت أن وجهه قد تمزق فى الحرب بشدة، فارتعدت فرائصها، فلعنت الحرب وارتعشت أناملها، ثم قامت لتنزل للطابق السفلى، فهو يحب ألا يأتى إلى غرفة نومها حين يجىء.

فى ثوب حريرى أسود، وبالمجوهرات التى تزين جيدها وذراعيها نزلت للطابق الأسفل. كانت تعرف كيف تمشى وكيف تتحكم فى حركات جسدها فى أثناء المشى، وتفعل ذلك غريزيا وتدرك عمق الانطباع الذى تتركه خطواتها المتزنة لدى الآخرين.

دخلت غرفة الاستقبال ورفعت عينيها ببطء ونظرت لنفسها فى المرآة. كانت فى ثوبها الأسود وبشعرها المرفوع لأعلى وعينيها الخضراوين تبدو رائعة.

انصرفت عن المرآة وهى راضية، لكنها كانت مدركة لآثار الضعف، والمرض على وجهها على الرغم من أنها لا تزال فى السابعة والعشرين.

(٦)

جلست على الأريكة الصغيرة بجوار المدفأة. كانت الغرفة مناسبة بحوائطها الرمادية والبساط البنى الغامق والأثاث القديم الوردى الذى ابتاعته من أحد المزادات. نظرت إلى قدميها فوق السجادة الإيرانية الحمراء وجلست بهدوء وصمت تنتظر. كانت لحظة من لحظات المعاناة الكبيرة التى لم تعرفها من قبل. لم تكن تريد التفكير فى وجهه المشوه حتى لا تفسد حرارة اللقاء وقالت لنفسها "فليأت على النحو الذى سيأتى به"، فهو الرجل المواجه لروحها التى أضعفها المرض، والذى يجب أن تسلمه نفسها. لم تستطع تحمل ذلك، وامتقع لونها وبدأت تفقد رباط جأشها. ثم هتف هاتف فى أعماقها "لو أننى كذلك، فسوف أكون منيعة بالنسبة له، معدمة من أى شيء". سرى فيها بعض الأمل وراحت تضغط بعصبية على الأريكة التى بجوارها وظلت فى حالة ترقب.

لقد كانت ضعيفة ومريضة كما لو أنها عائدة من الموت الآن، فما الذى سوف تواجه به هذا الكائن الآخر؟ كانت تحرك يديها للأمام والخلف بقلق وكان ذلك يعطيها بعض الراحة.

(٧)

لم تكن مدركة لما تفعل، فهى عادة ما تكون شديدة الهدوء، متمالكة لنفسها وساكنة بطبعها، فقد كانت تربيتها جيدة لا تسمح لتلك الانفلاتات العصبية أن تصبح خارج السيطرة. والآن تجلس تنتظر وتترقب بغرفة الاستقبال والنار تضطرم داخلها ويتراءى لها أن كل شيء يضطرم بالنار. فالبساط البنى والأثاث الوردى

الباهت والثوب الأسود ويداها اللتان ترتحلان للخلف والأمام كلها تضطرم فى توتر مجنون.

أدخلت يدها اليمنى فى الشق ما بين ذراع الأريكة وقاعدتها وغاصت فيه أصابعها الطويلة إلى نهايته وذهنها فى شرود. تعمقت أصابعها أكثر وأكثر فى الشق حتى وصلت أصابعها إلى نهايته، عبثت أصابعها فى قاع الشق وفجأة لمست شيئا غريبا صغيرا أيقظ إدراكها. لمسته مرة أخرى، فكان شيئا صلبا وجامدا، راحت أصابعها تتلمسه فوجدته منضغطا فى أعماق الشق بثبات. كان له حافة كالخاتم ولكنه لم يكن خاتما. لعبت بأصابعها حوله بإصرار واستخرجته للضوء. استراح قلب المرأة من التوتر بعد أن حققت هدفها. كان الشيء الذى خرج بين أصابعها كستبانا مرصعا بالأحجار الكريمة، وكان قديما وثقيلا ومصنوعا من الذهب، وحول حافته المستديرة فصوص من الماس أو الياقوت. لبسته فى إصبع الحياكة فلمعت فصوص الماس على ضوء النار. سرها ذلك وكانت فى شدة التعجب. كستبان من الذهب وحزام من الجواهر يحيط بحافته. كان شيئا محيرًا بالنسبة لها، ولا بد بأنه يخص امرأة ما من الطبقة الراقية.

(٨)

كان ينتمى للأيام التى كانت النساء فيها تمارس الحياكة وهن فى البيوت، ولكنه كان ثقيلا لدرجة تتعب الأصابع التى تمسكه. بدأت تحك الذهب بالمنديل فظهرت عليه نقوش، كلمة إيرل ثم حرفى Z ، Z ثم تاريخ ١٥ أكتوبر ١٨٠١. اشتد سرورها من التفكير فى ذلك الغرام القديم. لكن ما الذى كان يرمز له حرف Z ؟ فكرت فى معارفها ولم تجد سوى اسم زوك، ولكنه لم يكن من النبلاء، فمن هو الذى يعطى هدية كهذا الكستبان الذهبى المطعم بالجواهر فى عام ١٨٠١، ربما كان رجلا جاء من الحرب: لقد كانت هناك حروب فى ذلك الوقت.

فتحت الخادمة الباب بدون ضوضاء ورأت سيدتها تجلس على الأريكة فى الضوء الخافت فى يوم شتوى وتمسح شيئا بمنديلها.

- السيد هيبرن حضر يا سيدتى.

تحاملت وقامت بسرعة، كان زوجها بالباب، وراء الخـادمة. وبدون قبعـة أو معطف وكأنه أحد سكان البيت.

- كيف حالك؟ قالتها بصوت فاتر وقد مدت يدها. رد قائلا بصوت خفيض:

- كيف حالك أنت؟

- أنا بخير الآن، أشكرك.

ثم جلست مرة أخرى وقلبها يدق بعنف. لم تكن قد نظرت بعد إلى وجهـه. أصابها صوته الخفيض بالرعب. لقد كان يتمتم ولا يحرك شفتيه فى أثناء الكلام.

(٩)

وضعت الكستبان فى إصبعها الأوسط واستمرت فى دعكه بالمنديل. جلـس الرجل قبالتها فى صمت. نظرت بسرعة لردائه الكاكى وحذائـه البنـى، ولكنهـا استمرت فى دعك الكستبان بإصرار. كان عقلها مضطربا كما لو أنها غائبة عـن الوعى، ولا تدرى ما يجرى حولها كأنها فى حلم. قال:

- ماذا تفعلين؟ ما هذا الشىء؟

نظرت إلى الفم الذى أصدر تلك الأصوات. كان مكسورا وقد ذهبـت كـل الأسنان السفلية منه مع جزء من الذقن ومكانهما جرح مندمل وغائر حتى منتصف الصدغ. كان سيئا لدرجة كبيرة، فقد قطعت الشفة السفلى لنصفها.

أجابت بصوت خفيض:

- إنه شىء مكنوز وثمين.

مدت يدها إليه بالكستبان، ومد هو يده البيضاء المرتعشة وأخذ الكستبان بين أصابعه.

جلست مأخوذة وقد انطبع وجهه المشوه فى عقلها وظهر فى وجهها الإحساس بالانقباض وانتقل إليه على الفور. كان كل وعيها قد أصبح صورة من تشوهه خاصة من فمه الغائر المخيف الذى لم يكن فمًا، والذى يتمتم حين يتحدث ولا تتحرك الشفاه.

- كيف يكون جوهرا مكنوزًا؟

لم تستطع فهمه. أحست بتردده قبل أن يحاول أن يقول ذلك ثانية، وأحست بالألم يعتصرها.

- قلت إنه جوهر مكنوز.

التقط عقلها خيط الحوار، وقالت:

- لقد وجدته قبل أن تدخل بلحظات.

(١٠)

كانت تدرك أن كل شىء فى حياتها قائم على المصادفة البحتة. لقد تشكلت وتكونت من المصادفة ومن التداعيات التى تنجم عن الصدفة، كما لو أنها صنعت من حلم غير حقيقى بلا هدف أو خطة أو غرض. ولكن على الرغم من سجن الحلم، كانت فى ذاتها تصارع من أجل العودة للحقيقة.

كان من الصعب كسر الصمت الخامل الذى ساد بينهما، وكانت تخشى أن يستمر ذلك للأبد، وبجهد كبير عادت للتحاور معه، وقالت:

- وجدته هنا فى داخل الأريكة.

قالت ذلك وهى توجه عينيها لأول مرة إلى وجهه. كانت جبهته بيضاء وشعره ممشط بعناية وعيناه كعينى طفل عليل. كانتا زرقاوين وجامدتين. كانت

تشعر بأنه شديد الابتعاد وينتمى للموت أكثر من انتمائه للحياة. أحـــست بغريزتهـــا بأنه يتأرجح على الحافة بين الظلام والنور لكى يعود إلى الحياة أو يرتـــد للظـــلام مرة أخرى.

أرخت جفنيها وجلست منتصبة كالتمثال وهى تغلق عينيها. مـــرت عليهـــا لحظة من انعدام الوعى، ثم عادت وفتحت عينيها مرة أخرى ونظرت إليه. كانـــت عيناه لا تزالان جامدتين وكأنهما تصلبتا فى محجريهما. انكمشت قليلا كأنها تشعر بالبرد وسرت بينهما لعدة لحظات ومضات من الاهتمام. صاح هو:

- كيف جاء إلى هنا؟

كان الصوت نفسه ، نفس الاهتمام بالأشياء التى تحدث صـــدفة، و الرجـــل نفسه كما كان من قبل. الفرق الوحيد هو أنه أصبح مشوها، والكلام يخرج من فمه دون أن يحرك شفتيه.

(١١)

مرة أخرى رفعت عينيها ونظرت إليه. كان يتحدث بشغف واهتمـــام عـــن مصادفات الحياة. كانت جبهته البيضاء يشوبها الذبول بما لا يتناسب مـــع شـــعره المهندم بعناية. كان يبدو كالميت الذى صحا من قبره وانتعش عند خروجـــه مـــن القبر.

قالت بطريقة ميكانيكية:

- أعتقد أنه انحشر فى حشو الأريكة صدفة.

كانت عيناها ترقبانه وهو يتحدث بلا روح. قالت بصوت يملـــؤه الحـــزن مغيرة مسار الحديث:

- كيف حدث ما بك؟

رد متنهدًا:

- لقد فقدت وعيى تماما. هذا كل ما عرفته لثلاثة أيام، ولكن يبدو أن قذيفة أطلقها أحد رجالنا أصابتنى بطريق الخطأ.

كان وجهها ساكنا وهى تراقب ما يقول.

- بماذا شعرت عندما عدت لوعيك؟

- كان شيئا فى غاية السوء، فقد كان هناك شق فى الجمجمة بالإضافة إلى هذا الذى ترينه فى فكى.

- هل ظننت أنك ستموت؟

ساد صمت بعدها ابتسم، وكان يبتسم بالجزء العلوى فقط من وجهه بينما ظل الجزء المصاب ساكنًا. بدت عيناه وكأنهما تضحكان لكن كان يغشاهما ظلام موحش. انتظرت أنا حتى اختفت تلك الابتسامة المفتعلة. ثم جاءت اعترافاته فى تمتمة بسيطة.

- نعم، لقد كنت أترقبه.

كانت عيناه ترقبانها وروحها مكشوفة أمامه بعد أن انقضى عنها وهم الحلم، كانا يبدوان لبعضهما عاريين تماما وكأنهما ولدا هذه اللحظة ويعتمدان على بعضهما. كادت أن تهتف وتقول "ولماذا لم تمت؟" ولكن بدلا من ذلك، نظرت بروحها العاجزة إليه. قرأ هو السؤال في عينيها فقال بأسى:

- لم أستطع أن أموت وأنت ما زلت حية.

هتفت بدهشة بالغة:

- ماذا؟

(١٢)

غرقت فى السكون بضع لحظات، ثم انتبهت، وقالت معترضة:

- وما الفرق الذى يحدثه ذلك بالنسبة لك؟ أنت لا تحيا بى!

كانت عيناه جامدتين وهو يراقب سكناتها وحركة يديها وعينيها ورد فعل ما يقوله على وجهها، بينما ران صمت طويل. كانت تفكر فى أن ما أبقى عليها حيـة لم يكن إحساسها به وإنما إرادتها الذاتية. سألته:

- ما الذى كنت تأمل فيه منى؟

غامت عيناه وبدا وجهه ممتقعا وهو جالس فى صمت كأنـه جثـة بـأعين مفتوحة، كانت أصابعه تمسك بالكستبان الذى كان يلمع تحت ضوء النـار. طغـت عليها سحابة من الكآبة، وقالت تقطع الصمت:

- كلانا عاجز. أجابها بصوته الغامض

- عاجز عن ماذا؟

- عن العيش.

كانا يتحدثان روحا لروح. كرر ما قالته وهو يهز رأسه.

- كلانا عاجز عن العيش.

- نعم، وساد الصمت ثانية. قطعه قائلا:

- أعرف أننا عاجزون عن العيش. عرفت ذلك عندما عدت إلى وعيى.

ردت بنبرة يأس:

- أنا عاجزة مثلك تماما.

قال بصوت خفيض:

- نعم، أعرف ذلك، فأنتِ بنفس عجزى.

- ماذا إذن؟

- إذن نحن عاجزون كالأطفال.

- وكيف تشعر حيال كونك طفلا عاجزًا؟

سألته بنبرة ساخرة. سكت هو وران صمت طويل قطعه، وقال بحزن:

- لا أعرف، فالطفل العاجز لا يعرف ما إذا كان يحب أن يكون طفلا عاجزا أم لا، ومع ذلك فإننى أشعر بالأمل، ألا تشعرين بالأمل؟

كان الصمت هذه المرة من ناحيتها. أجابت بعد تفكير:

- الأمل فى ماذا؟

- لو أننى طفل عاجز الآن، فسأكبر وأصبح رجلا.

ضحكت بخفة وقالت:

- ويجب علىّ أن آمل فى أن أكبر لأصبح امرأة.

- نعم، بالطبع.

- ماذا أكون الآن إذن؟ سألته بمرح.

- أنت طفلة عاجزة الآن، كما قلت.

كانت تعرف صدق ذلك. سألته بتحدٍّ:

- وماذا كنت قبلا حين تزوجتك؟

- لا أعرف ماذا كنت. لقد انشق رأسى ودخلته بعض الظلمة، ومنذ ذلك الحين نسيت ماذا كنتِ؛ لأن كل ذلك اختفى منه، ألا ترين؟

- نعم، أرى.. ثم التفتت إلى النار وهى تضطرم بالمدفأة، وسألته:

- وما الذى سنفعله معًا؟

- يحب كل منا الآخر. أجابته بانفعال:

- ألم يحب كلٌ منا الآخر من قبل؟

- لا، لم يكن باستطاعتنا، لم نكن قد ولدنا بعد.

- ولم نكن أمواتا أيضا. بدا وكأنه قد صدم. فصاح بخوف:
- وهل نحن الآن أموات؟
- نعم، نحن أموات.
- إذن، يجب أن نولد من جديد.
- أيجب ذلك؟ قالت وقد زادت حدة انفعالها.
- نعم، يجب وإلا؟ ثم سكت ولم يكمل الجملة.

انتهزت هى لحظة سكوته وصاحت:

- وهل تعتقد أن لدينا القوة للعودة للحياة من جديد وأنت ترى أننا الآن أموات؟
- أعتقد أنها لدينا.

قالت بسخرية مرة:

- الموتى لا يبعثون.

نظرا لبعضهما وتلاقت عيونهما. قام من مكانه وذهب إليها ولمس يدها برقة، فرددت ما قاله المسيح عند قيامه:

- لا تلمسنى، فلم أصعد بعد إلى الرب.
- لا، إن ذلك يستلزم وقتًا.

جعلها ذلك تنفجر فى الضحك، وقالت بصوت عال كما لو أن روحها تنتزع منها.

- هل تظن أننى سأحبك؟

لمس يدها مرة أخرى بأطراف أصابعه.

كان الكستبان ملتصقا بأصبعه الصغير وكانت هى تنظر إليه. قال لها:

- أريد أن ألقى به بعيدًا.

ضحكت مرة أخرى. وقام هو إلى النافذة وفتح مصراعيها وألقى بالكستبان بكل قوة إلى الشارع، وسمع صوت اصطدامه بالأرض. أغلق النافذة وعاد إلى مكانه ونظر إليها وابتسم.




السيـد نـــون

١ – هجوم على السيد نون

(١)

كان سكونها التام وهى منكفئة على كتابها يثيره ويجعله غير مستريح. تململ هو فى كرسيه وهو يتصفح الجريدة فى يده ويصدر أصواتا وتنهدات، لكن لم تفلح المحاولة فى جذب انتباهها لتقول شيئا. استمر يسترق النظر إلى زوجته التى يشى سكونها التام بأنها تعرف أنه يتململ بضجر. كانت أمسية أحد ممطرة وكئيبة، ومن المفروض أن يكون فيها مستريحًا وهو جالس بهدوء بجوار المدفأة، ولكن الملل كان قد أصابه ويريد شيئا يسليه حتى يحين ميعاد نومه.

قام بتثبيت النظارة على أنفه ونظر إلى الجريدة مرة أخرى، كان الوقت يمضى ببطء، فقام ونظر من وراء زجاج النافذة. كانت أشعة الشمس شاحبة على الجدران فى الخارج والوقت مبكر على قدوم الليل، ولا معنى لطلب طعام العشاء الآن، فجلس مطرقًا وعاد إلى صفحات الجريدة وراح يبحث فيها عن خبر يثيره أو يلفت انتباهه فلم يجد. كان يأتى بحركات عصبية بأصابعه وهو يقلب صفحات الجريدة لعلها تلتفت إليه، لكنها لم تعره أى اهتمام. كانت الساعة لا تزال الخامسة والنصف ولا شىء يمكن عمله سوى قراءة الجريدة، فهو لا يستطيع النوم الآن، فبدأ يشعر بالضيق من زوجته وراح يتساءل فى نفسه، ما الذى يستغرقها بالكامل على هذا النحو؟

(٢)

كانت زوجته فى الأربعين، وذات شعر بنى داكن ملفوف بعناية فوق رأسها الصغير. كانت تجلس مستغرقة بعمق فى كرسيها، وقدماها على كرسى صغير، ونظارتها على طرف أنفها. لم يلحظ بالطبع أنها لم تقلب صفحة واحدة من الكتاب الذى تقرأ فيه.

نظر إلى نار المدفأة، ثم قام من مكانه، وأمسك بقضيب من الحديـد، وراح يقلب الفحم فاشتد اللهب، فتمتم فى رضا "هكذا أفضل". ظل واقفا أمام النـار وهـو يفرك كفيه ببعضهما لجلب الدفء.

كان وسيما عالى الجبهة، وله لحية صغيرة، ويشبه تمثالا لشكسبير، ويقارب الخامسة والأربعين، وكان يظن نفسه أنه مثالى وفيه شيء من المسيح ولكـن مـع لمسات خفيفة من الشيطان. استمر طويلا وهو يقف أمام النـار، فقامـت زوجتـه وتنحنحت، فسألها بنبرة اتهام:

- هل كنت نائمة؟

كان لها وجهًا أبيض كالعاج رقيق وشاحب، وتظهر تحت جفونهـا ظـلال عميقة. خلعت نظارتها من فوق أنفها، وقالت بصوت فيه بعض المرح:

- لا، لم أكن نائمة.

- هل تستطيعين أن تذكرى لى آخر جملة قرأتيها؟

- تستطيع أن تسأل ولكن من الصعب أن أجيب.

ضحك قائلا:

– أراهن أنك لن تفعلى، فسوف يكون ذلك نهاية حلم.

– لا، لن يكون حلمًا، ولا حتى حلم يقظة.

– وهل كنت واعية لما تقرأين طوال الوقت؟

جلست وأخذت تقلب أوراق الكتاب فى تظاهر واضح. وظل هـو يراقبهـا بعينيه. لاحظ أن خصلات شعرها البنى المصبوغ تميل أطرافها للاحمرار، وكـان هذا يثير حفيظته، حتى بعد عشرين سنة من الزواج. ولكن حيث إن ما كان يظهـر منه هو نهايته، فلا داعٍ للشجار. عاد إلى كرسيه الكبير ووضع ساقيه تحته وجلـس

متربعا على الرغم من ضخامة جسمه، وقام مرة أخرى بوضع نظارته على أنفه وأمسك بالجريدة يحاول أن يجد فيها ما يثيره.

كان ينصت لما يحدث فى الخارج، وسمع دقات ساعة الكنيسة وهى تعلن السادسة، ثم سمع بعض الناس وهم يثرثرون. فقام لينظر فوجد بعض الفتيات يسرن فى الطريق. تمنى لو يوقفهن ليثرثر معهن فى أى شىء، لكنهن كن مسرعات، فتابعهن وهن يمضين بسرعة تحت النافذة والحسرة تملؤه، قال لزوجته:

- حان وقت إضاءة المنزل، أليس كذلك يا سيدتى؟

- نعم، أظن ذلك.

(٣)

قام وأشعل الثقاب وأضاء ثلاثة مصابيح تعمل بالغاز وأسدل الستائر، ووضع يديه فى جيبه وظهره للنار. كانت تلك الأمسية هى أمسية الأحد الخالدة، فهو فى كل يوم من أيام الأسبوع يكون فى مكتبه، ويوم الأحد يعد يوما خاصا بالنسبة لهما. كانا اشتراكيين ونباتيين، واعتادا أن يذهبا إلى الريف إذا كان الجو صحوًا، وفى حالات الجو السيء كانا يصحوان متأخرين، ويتناولان وجبة كبيرة فى الصباح وأخرى بعد الظهر.

كان لويس لا يزال واقفا وظهره للنار، وكانت يداه فى جيوبه، وهو يصفر، فقالت له زوجته باتى:

- بإمكانك قطع بعض الخشب.

- كنت أفكر فى ذلك.

خرج إلى الفناء الخلفى وأمسك بالفأس وكانت باتى تسمع ضرباته على الخشب مع صفيره الرائع الذى علا قليلا، فهو لن يكون لويس لو لم يجعل نفسه

مسموعًا فى أى مكان يحل فيه. استراحت هى لانشغاله عنها وجلست مستكينة كالقطة. كانت الخطوط الداكنة تحت عينيها واضحة، وكان جلدها من النوع الرقيق ويكاد أن يكون شفافا، ويتميز به النباتيون والمثاليون، وكان جلد لويس زوجها بالطريقة نفسها. كانت طوال الوقت تسمع الجلبة التى يحدثها زوجها وهو يكسر الخشب وكانت جزلة، فصوته يملأ ملكوتها دائما، وعلى الرغم من المشاكسات القليلة التى كانت تحدث بينهما فإنهما كانا زوجين سعيدين، فهو رجل طيب وعطوف وهذا يكفى.

لكن شيئا ما كان يثيرها ولا تدرى كنهه. دخل زوجها وهو يحمل على ذراعيه قطع الخشب وصاح وهو بالباب:

- لم أجد أكثر من ذلك، والمطر يهطل بغزارة، ومن سيذهب إلى الكنيسة الليلة سيحتاج إلى شماسٍ، وأخشى أن يكون هناك الكثير من المقاعد الخالية، ولا شىء فى الدنيا يكرهه الكهنة أكثر من المقاعد الخالية. هم لا يبالون إذا خلت مقاعد الطعام بالدرجة بنفسها.

حين جاء ذكر الطعام على لسانه، صاح:

- ماذا عن الطعام يا سيدتى؟

- وماذا عنه؟ اتجهت بوجهها نحوه وعلى شفتيها نصف ابتسامة. نظر إليها من تحت جفونه المسبلة، وقال:

- هل قلت شيئا لا يعجبك؟

- قد يكون ذلك، ثم صاحت بصوت عالٍ:

- اذهب وضع الغلاية على النار.

هز رأسه فى أسى وقال متمتمًا:

- علىّ إذن أن أذهب أنا وأتى بالطعام، أليس كذلك؟

- نعم، إذا أردت أن تأكل مبكرا، فالساعة لا تزال السادسة.
- إن قسوة قلب المرأة، ناهيك عن لسانها السليط لكفيلان بأن يحرما الإنسان من حقه.

صاحت بحزم:

- اذهب وضع الغلاية على النار، وكفى ثرثرة.
- لو زدت فى وقاحتك عن ذلك يا باتى جودارد، فلن أفعل، وأقولها لك بوضوح.

تنهدت وقالت:

- أنا مكتئبة هذه الليلة.
- إذن سأسرع بالرحيل من هنا وأنا منتصر.

(٤)

انسحب إلى المطبخ وهو يصفر، وكان صفيره ينبئها بوجوده عبر الممر الطويل الذى يصل غرفة الجلوس بالمطبخ حتى لو ابتعد عن مدى سمعها. كان صفيره رائعًا ويروقها، وتستطيع أن تسمعه عبر مئات الأميال، حتى لو ذهب لآخر الدنيا فسوف تسمعه كما لو كان فى المطبخ؛ فالعلاقة بين الأم وابنها لا تقارن أبدًا بالعلاقة العضوية والتواصل الحميم بينها وبين لويس، فقد كان تواصلاً لا ينقطع أبدًا، كما لو كان يجانبها باستمرار ويجبرها على الانتباه بصفيره كما يفعل الآن. عندما يكون بعيدا عنها تستطيع أيضا أن تسمعه بشفافية قلبها؛ فروحها ترفرف حوله أينما ذهب وينقذها من الإحساس بالوحدة. كانت تحب ذلك ويغمرها بالسرور. ولكن تلك التجاعيد اللعينة التى ظهرت تحت عينيها تجعلها على وشك الجنون.

جاء ووقف بالباب حاملا الصينية المملوءة بالطعام بيد واحدة، والأخرى كان يدير بها مقبض الباب ليفتحه، وكان يبدو شديد المهارة فى أداء تلك الحركة، وقال لحظة دخوله الغرفة حاملا الصينية:

- أفٍّ من الزوجات الكسالى!

- أنا أكثر الناس كسلا، وأعرف ذلك.

كان عليها أن تفرد المفرش عند قدومه، ولكنها أحست بعدم الرغبة فى أن تقوم بذلك، وبقيت فى مكانها.

- كم يكلفك ذلك الاعتراف؟ صاح لويس وهو يشرع فى فرد المفرش الأبيض على المائدة المستديرة.

- أقل من المجهود اللازم لكى أقوم من مكانى.

- آه، هذا قدرى ونصيبى!

كان عليه أن يقوم بالأعمال المنزلية وخاصة فى الأيام التى تغيب فيها الخادمة.

كان الطعام يتكون من بيض مقليٍّ بالزبد، بعض الجبن والسلاطة، بودنج بالكريم، بقدونس وكيك ومربى وجنزبيل مخلل، وفى وعاء أنيق آخر بعض حبات التوت.

ساد بعض التوتر الخفيف فى الأمسية، وكان غير محدد السبب وجعلهما يتحفزان للمشاكسة أملا فى بعض التسرية.

قبل أن ينهيا عشاءهما سمعا دقات على البوابة الحديدية، فصاح لويس "من يكون هذا؟" ثم قام بسرعة ليضيء مصباح الردهة وخرج ليفتح، فأرهفت باتى السمع، سمعت صوت رجل يقول "هل أنتم بالمنزل؟." رد لويس:

- نعم، نحن بالمنزل، تفضل بالدخول.

(٥)

كان لويس رجلا كريما، وكانت باتى تشك فى أنه يعرف من القادم.

لكنه صاح:

- من؟ السيد نون! أنا مسرور لرؤيتك. اخلع معطفك، فأنت مبتل، لقد وصلت فى الوقت المناسب لقدح من الشاى، تفضل بالدخول.

السيد نون! قامت باتى بسرعة عند سماعها الاسم، ووقفت فى الغرفة وانتظرت. جاء الزائر، وقالت له:

- كم هو لطيف منك أن تأتى، فنحن لم نرك منذ وقت طويل. هل أنت متأكد من أن أقدامك ليست مبتلة؟ إذا كانت مبتلة فليعطك لويس نعلاً.

قال لويس بحرارة: "نعم، تعالى".

- إنها كذلك، تعالى.

قال السيد نون بصوته العميق إنه جاء على الدراجة النارية. كان صغير السن فى الخامسة والعشرين، كبير العظام لكن رأسه صغير لا يتناسب مع كتفيه، ووجهه مليء بالحيوية وأزرق العينين، ويرتدى معطفا أسود وربطة عنق زرقاء، ولا يبدو عليه أنه اشتراكى.

تغير المزاج بغرفة الجلوس فى الحال، وبدا عليهما السرور لقدوم هذا الزائر. كانت يداه محمرتين، وصوته أجش إلا أنه كان ينم عن قوة فيه. أكل الطعام الذى قدماه بنهم ثم سألته باتى:

- قل لنا الآن ما الذى أتى بك إلى وود هاوس فى ليلة كهذه؟

وأردف لويس:

- لا أظن أن لديك رغبة فى الجلوس عند قدمى أحد وعاظنا المشاهير.

رد السيد نون:

- لا، كان لدى موعد ووصلت إلى هنا مبكرا عن الموعد ففكرت فـــى أن آتـــى لزيارتكم.

كانت إجابته غير مجاملة بالمرة. ردت باتى قائلة:

- بالطبع، بالطبع! تستطيع أن تنتظر هنا كما لو أنك تنتظر عند ركن الشارع أو فى البار.

رد لويس.

- البارات هنا لا تفتح قبل السابعة والنصف.

- لا عليك، فلن يكون عليك أن تسرع بالخروج فى الحال.

رد جلبرت نون قائلا:

- أستطيع البقاء حتى السابعة والنصف.

نظر إليه لويس ثم أردف:

- حتى يخرج الناس من الكنيسة.

ضحكت باتى واحمر وجه السيد نون، وقال هازًا رأسه:

- هذا ما فى الأمر.

سأله لويس:

- أية كنيسة إذن؟ من الأفضل أن نعرف لكى نتركك تذهب فى الوقت المناسب، كنيسة بنتكوست تنتهى مبكرا وقبل الباقين بنصف ســاعة وقبــل المتجمعــين بعشر دقائق؛ لأن القس جوليان قس بنتكوست جديد، ويبدأ الــدرس قبــل أن يحضر كل الناس وتكون نصف المقاعد خالية، لذلك ينتهى قبل الجميع.

قالت باتى:

- وهل أنت متأكد من أن الشعلة المقدسة من الممكن أن تضئ فـــى مثـــل هـــذه الليلة؟

أجاب نون:

- لا، لست متأكدًا.

قال لويس:

- الكثير من الماء لا يستطيع أن يطفئ الحب يا باتى.

أجابت ضاحكة:

- تتحدث وكأنك تعرف.

هز جلبرت رأسه.. واستطردت باتى وهى تنظر إلى الساعة، وقالت:

- نستطيع على الأقل أن نجلس للتحدث لساعة كاملة. لدىّ الكثير مـــن الأشـــياء التى أود أن أسألك عنها، كما أنك تستطيع أن تدخن إذا أردت.

(٧)

أسرع لويس إليه بعلبة السجائر، ولكن جلبرت فضل الغليون، وجلس الثلاثة حول المدفأة.

كان سبب حفاوة آل جودارد العظيمة بجلبرت نون هو ذكاؤه الـــشديد، فقـــد كان أبوه يمتلك متجرا للخشب فى ويتستون التى تبعد عنهم بستة أميال، وكان غنيا وبخيلا فى الآن نفسه، وكان جلبرت هو ابنه الوحيد، وكان جلبرت قد بـــدأ حياتـــه كمدرس ابتدائى، ولكنه أثبت أنه شديد الذكاء فى الرياضيات لدرجة أنه فاز بعـــدد من المنح الدراسية، وذهب إلى جامعة كامبردج، وكان على وشك الحصول علـــى الدكتوراه لو أنه استمر بها، ولكنه ترك الجامعة ولم يستمر، على الرغم مـــن أنـــه كان يعد واحدا من ألمع علماء الرياضيات الصغار. عاد إلى ويتستون وبدأ يعـــيش

الحياة المعتادة، يرتاد الحانات ويعزف على الكمان ويحط من قدر نفسه، وعمل مدرسا للعلوم فى مدرسة هايزفال التى تبعد خمسة أميال عن ويتستون.

ولأن السيد نون كان شخصية معروفة فى تلك المنطقة الريفية؛ فأحيانا ما كان يدعى لإلقاء بعض المحاضرات العلمية، ولأن لويس جودارد كان أمين الجمعية العلمية بويتستون فقد كان فخورا بأن يدعو جلبرت فى مناسبات عديدة؛ لأن محاضراته للعامة كانت شديدة البساطة وشديدة التسلية، خاصة ما يقوله عن المريخ بصحبة شرائح الفانوس السحرى فقد كان مثيرا للغاية، ولباتى على وجه الخصوص.

(٨)

كان السيد نون رائعًا بكل المقاييس، وكان صوته العميق الخشن يحمل فى طياته سحرا وقوة. كان حين يقف على المنصة ويشير إلى صور الفانوس بمؤشره الطويل ويلمع وجهه تحت نور الفانوس يأخذ الألباب.

هكذا بدأ تعارف السيد نون مع آل جودارد وإن لم تصل العلاقة بعد إلى حد الصداقة. كان آل جودارد يدعون جلبرت كثيرا ولكنه نادرا ما كان يلبى، فهو لم يكن اجتماعيا بطبعه ويميل إلى العزلة.

جلس يدخن وغليونه الكبير فى يده مطلقا سحابات من الدخان، وكان حين يرفع غليونه إلى فمه يظهر فى إصبعه خاتم ذو فص أحمر. كانت باتى مندهشة من أمره، فهو لا يبذل جهدا لكى يكون ممتعا فى حديثه كما يفعل فى محاضراته مما جعلها تضع قدميها على الكرسى الصغير وتغرق فى كرسيها، ثم تأتى بأدوات الحياكة وتضع نظارتها على أنفها وتنظر إليه قائلة:

- هل تمانع فى أن أقوم بالحياكة.

رد بسرعة:

- لا أمانع على الإطلاق.

كان السيد نون يدخن فى صمت حين سألته باتى:

- ما الذى تفعله هذه الأيام يا سيد نون؟

- أنا؟ أصنع القذارة فى هايزفال.

قال لويس معقبا:

- آمل أن تكون فى الكيمياء وليس فى الأخلاق.

عادت باتى وسالته:

- ماالذى تفعله فى ويتستون؟

أخرج جلبرت الغليون من فمه ونظر إليها قائلا:

- كالمعتاد.

- وما هو المعتاد.. هل تصنع شيئا حاليا؟

مد يده للأمام وهو يمسك بالغليون وأجاب:

- بعض العمل القليل.

- عن ماذا؟

- أكتب رسالة الماجستير الخاصة بى فى الرياضيات، وأقوم بتأليف بعض الموسيقى أيضا.

- تؤلف موسيقى؟ ما أروع ذلك. وماذا تكون؟

- كونشرتو للكمان.

- ألن نسمعها؟

- لن تعنى شيئا لكما، فهى شديدة التجريد.

- ألا نستطيع سماعها؟

- تستطيعان، لكن فى وقت آخر. سوف أرتب ذلك.

صاح لويس:

- أرجو أن تتمكن من ترتيب ذلك قريبا.

- أنا لم أنته منها بعد.

سألته باتى:

- متى ستنتهى منها؟

- يوما ما، أمل ذلك!

(٩)

غرست الإبرة فى القماش ونظرت إليه قائلة:

- أعتقد أن الموسيقى هى أعظم شىء يمكن للإنسان خلقه، لا أستطيع أن أتصور كيف يمكنك فعل ذلك، هل تفضل الموسيقى على الرياضيات؟

أجاب وهو ينفث الدخان:

- كلاهما يتداخل مع الآخر، فهما تقريبا الشىء نفسه، فالموسيقى التى أكتبها جافة وتجريدية ولا تعنى شيئا لمن يسمعها إلا أنا.

عقدت حاجبيها وقالت:

- ألا تستطيع أن تجعلها أقل تجريدية.

لا أستطيع ذلك.

- لماذا؟

- لا أعرف، ربما لأنها لا تحمل اللمسة الصحيحة، فهى تدريب على العزف أكثر من كونها قطعة موسيقية. أنا أفعل ذلك لمجرد التسلية لا أكثر.

صاح لويس:

- لا بالتأكيد، فأنت لديك مواهب.

صاح بدهشة:

- أنا؟

رد لويس مؤكدًا:

- نعم أنت، فلديك مواهب رائعة.

ابتسم قائلا بسخرية:

- أنا سعيد لسماع ذلك، ولكن أين هى؟
- فى رأسك كما أفترض، ورأسك لا يمكن أن تتوقف عن العمل.

قالت باتى:

- ألا تريد أن تفعل شيئا ما بحياتك؟ ألا تريد أن تصنع شيئا يساعدنا نحن المساكين على التخلص من الوحل؟
- ما سأفعله سيجعل الوحل أكثر عمقًا.
- لا تقل ذلك، إننا نستمتع لما تقوله فى محاضراتك.

نظر إليها بابتسامة باهتة، وقال:

- إنها مجموعة من الأكاذيب.

صرخت قائلة:

- ليست أكاذيب.. أنا أستمتع بمحاضراتك بالفعل.

وضع الغليون بين شفتيه وعقد حاجبيه وقال:

- ما أقوله عن المريخ مجرد أشياء خيالية لطيفة، وأنت تحبينها لأنها تشبه ألف ليلة وليلة.

تدخل لويس مقاطعا وقال:

- نعم، ونحبها أكثر من ألف ليلة وليلة.
- أعرف ذلك، وسأقول لكم حكاية أخرى قريبا.

سألته باتى مستغربة:

- ألا يوجد شىء حقيقى؟، ألا يوجد شىء صادق؟
- على قدر ما أعلم، لا.. ليس فى هذا المجال.

صاحت بلوعة:

- ما أشد المفاجأة .. بالتأكيد أنت تؤمن بعملك.
- أؤمن فقط بالرياضيات.
- وماذا أيضا؟

أخرج الغليون من فمه وقال بنبرة جادة:

- لا يوجد ماذا أيضا!
- ولم لا؟
- الرياضيات هى التجريد والكمال، أما الحياة فلا هى تجريد ولا كمال.

قالت معترضة:

- ولكن لها علاقة بكلا الأمرين.
- الفن نعم، أما الحياة فلا.
- إذن الحياة لا تعنى لك شيئا.

- لا، ولماذا يجب أن تعنى شيئا؟

لم تتوقع الرد فقالت:

- وكيف يكون لأى شيء معنى إذا لم يكن للحياة معنى؟

رد بهدوء:

- وكيف يكون لأى شيء معنى إذا كان للحياة معنى. الحياة لا تتوافق مع الكمال ولا مع النهايات المنطقية ولا الخلود، عليك الاتجاه إلى الرياضيات أو إلى الفن.

أصابها التخبط فصاحت قائلة:

- لا أستطيع أن أصدق ما أسمع..

رد وهو يخرج الدخان من فمه:

- حسن! نحن نختلف فى الرؤية.

- أنت لا تزال صغيرا وستكتشف أن الحياة لها معنى قبل أن تموت.

- أنا مستعد لذلك.

- لا، لست مستعدا.

اكتسى وجهها بالحمرة فجأة، واستطردت:

- بالتأكيد أنت لست مستعدا. هل أعطيت الحياة فرصة ولو لمرة واحدة؟

- أنا؟ لقد فعلت ذلك مرارا.

- لا، لم تفعل.. اسمح لى أن أعارضك. أنت لم تعط الحياة فرصة. انظر كيف تعامل النساء؟

نظر إليها مستغربا، وقال:

- أية نساء؟

قالت بنبرات مترددة:

- أعرف أنك ستذهب لملاقاة فتاة هذه الليلة.أنا كبيرة فى السن للدرجة التى تمكننى من الكلام بحرية. أنت لم تكن لك أم فى الحقيقة، ولذلك لا تعرف كيف تعامل النساء. ألست ذاهبا لملاقاة فتاة؟

- نعم، وماذا فى ذلك؟

- عليك الاعتراف بأنها ليست ندا لك.

- لا، لا أرى ذلك.

- وكيف تنظر إليها؟ هل تنظر إليها كما تنظر إلى رياضياتك؟ هناك فرق شاسع.

- لا بد وأن يكون هناك فرق.

- نعم، لا بد من وجود فرق، ولا بد وأن تكون الفتاة مجرد لعبة، شىء متدن وليس ذات أهمية كأدوات الكيمياء بالنسبة لك.

- إنها مختلفة، مختلفة كل الاختلاف.

- لن أسألك من تكون فتاتك.. فأنا لا أعرف شيئا عنها، ولكن أريد أن أعرف ما الذى تعنيه بالنسبة لك؟ أهى مجرد وسيلة استمتاع تافهة ليوم الأحد.

قال مبتسما:

- إنها ممتعة جدا، أعترف بذلك.

- هى بالضبط كذلك! ممتعة جدا.. يا له من هوان لهذه المسكينة.

قال بلا اكتراث:

- لا أعتقد أنها ترى الأمر على هذا النحو.

صاح لويس ضاحكا:

- لا، أراهن على أنها لا تراه كذلك.

قالت باتى:

- هى لا تفعل، لكن ما أشد قسوة ذلك بالنسبة لها.

رد جلبرت:

- الأمر ليس كما ترينه على الإطلاق، هى تبحث عنى، وأنا أبحث عنها.

- ربما هى تبحث عنك لكن بأكثر مما تفعل أنت، لكن كيف ستكون حياتها بعد ذلك؟ وأنت، كيف ستكون حياتك؟ ما الذى ستجده؟ بعد أن تتعب من العبث، وأنت ترى كل النساء تافهات وقذرات؟ ماذا بعد ذلك؟

- لا أعرف، سأقول لك عندما أعرف.

- لن تفعل، فعندئذ ستكون قد فقدت كل شىء فيما عدا رياضياتك وعلومك لو لم تفقدهما أيضا. أنا أشفق عليك، فإذا كنت تكره الحياة فتأكد أن الحياة تكرهك.

سألها مستغربا:

- لماذا؟ ما الخطأ الذى اقترفته؟

صاحت بحدة:

- يا للعار. أليست المرأة بشرًا؟ أليس البشر شيئا أكبر من العلوم وما سواها؟

- ليس بالنسبة لى، فيما عدا شيئا واحدًا.

ضحك لويس قائلا:

- هناك استثناء باستمرار، أليس كذلك؟

(١٠)

ساد صمت قصير، ثم قالت باتى بعد أن عادت للحياكة:

- من أجل أمك، وأنا سعيدة لأنها لا تستطيع سماعك أو معرفة ما تقولـــه الآن؛ لأنها لو كانت امرأة فإن هذا سيحطم قلبها.

لكن جلبرت لم يهتم بما تقول، وظل يدخن بعناد حتى نبهـــه لـــويس إلـــى ضرورة المغادرة ليلحق بموعده.

ابتسمت باتى له وهو يصافحها، قائلة:

- تعال إلينا كلما كنت قريبا منا وستشعر بالرغبة فى ذلك.

- أشكرك.

اصطحب لويس ضيفه للخارج وكان شديد التعاطف معه حيـــث قـــال لـــه هامسا:

- أنا أؤيدك تماما فى اقتناص المتعة حين تتاح لك الفرصة.

ابتسم جلبرت ولم يقل شيئا، ومضى لحاله.

٢- الأحضان والقبلات

(١)

استمرت باتى فى الحياكة فى صمت وهى غاضبة وتملؤها المرارة، بينما استمر لويس فى الصفير. قال لويس لها ليكسر حدة الصمت:

- إن فيه جانبا إنسانيا أيضا.

صرخت باتى:

- أى جانب فيه تراه إنسانيا. إن أصغر كلب من كلاب الشوارع لديه إنسانية أكثر منه.

رد لويس بحدة:

- لا عليك! لا عليك! لسنا ملائكة ولا أرى ضررا فى ذلك. شاب صغير يخرج ليلة الأحد من أجل بعض الأحضان والقبلات، أليس ذلك أمرا طبيعيا؟

نظرت إليه بغضب وقالت بحدة:

- أتعتقد أن ذلك أمر طبيعى، إذا كنت تعتقد ذلك فعلا فأنا آسفة من أجلك.

غمغمت ببعض الكلمات بقرف شديد، فنظر لويس إليها وصاح:

- لا تنسى أنك كنت تفعلين ذلك وأنت فى مثل عمره يا باتى.

- أعتقد أننى كنت أفعل ذلك، ولا أستطيع أن أتحمل فكرة أننى كنت كذلك.

رد بسخرية:

- حقا، إذن لماذا تأخذين موقفًا متشددا هكذا فجأة يا عزيزتى؟

(٢)

كان يعرف أنها لم تتبادل العناق والقبلات إلا معه، وضعت هى أدوات الحياكة جانبا وقامت إلى المطبخ، وتبعها بعد دقائق إلى المطبخ ووقف يشاهدها وهى تغسل الأطباق، ثم سألها:

- ماذا تفعلين؟

- أغسل الأطباق..

- أليست السيدة برنس ستفعل ذلك غدا؟

ولكى يظهر لها غضبه، غادر المكان دون أن يقوم بتجفيف الأطباق وراءها كما يفعل دائما. كان يتمتم فى غيظ:

- أحضان وقبلات! لقد كنت مغرمة بالأحضان والقبلات فى أيامك يا باتى جودارد.

كانت كلماته تصيب معدتها بتقلصات حادة. أحست أن بإمكانها أن تقذف بكل ماضيها مع ماء الغسيل عبر البالوعة، خطرت لها فكرة لو أن جلبرت نون كان يتبادل الأحضان والقبلات معها بدلا من فتاة أخرى، لربما لم تكن لتشعر بهذه المرارة فى عروقها.

(٢)

كانت تعرف كل شئ عن الأمر كما قال لويس. كانت تعرف تماما ما الذى تعنيه ليلة الأحد فى ظلام الشتاء المطير فى الميدلاندز. كان يعنى خروج الشباب من الكنيسة، شابات فى الخامسة عشرة وما فوقها ليتقابلن مع شباب فى مثل أعمارهن، ويسرعن بالاختفاء فى أماكن مظلمة ومعزولة أو فى أى مكان يسمح لاثنين بالوقوف، ويتبادلان القبلات.

ذهب السيد جلبرت لموعده لكى يتبادل الأحضان والقبلات وكانت عروق باتى تنبض بالمرارة ضده. كانت تعرف أن ما يفعله أكثر من ذلك. إنها تكره

أمسيات الأحد وما فيها من ترقب وتوتر لأن الغد هو صبيحة الاثنين، يوم العمل، وستمسك فيه اليد الحديدية لأصحاب الأعمال برعاياها، ومغامرات الأحد العاطفية تصبح نوعا من الاكتئاب عندما تقترب ساعة الذهاب للعمل ثانية يوم الاثنين. لا بد إذن أن يكون هناك ختام جيد ليوم الأحد ليس فيه كآبة، فالكنيسة لا تقوم بذلك بكفاءة. عجائز الرجال يهرعون إلى الخمر، وتذهب النساء إلى زيارات منزلية للاستمتاع بالثرثرة والنميمة وتناول العشاء، ويذهب الصغار بالطبع لتبادل الأحضان والقبلات. هذا هو السائد فى الميدلاندز.

(٣)

وقف السيد نون منتظرا على جانب الطريق فى مواجهة الكنيسة. تأخر خروج الجمع. كان يتأمل النافذة الضخمة ذات الزجاج الملون بأضوائها على الطريق المبتل برذاذ المطر ويفكر فى الهندسة الرائعة لتصميم النافذة. كان قد تأملها من قبل، لكنه كان يرى فى تصميمها ما يلفت نظره كلما جاء. كان يقف فيطيل تأملاته تحت المطر وقد رفع ياقة معطفه لأعلى وينصت للأصوات المنشدة بحماس لخاتمة الصلاة، وكان قد سمعها من قبل أيضا. لمح بجواره بعض الشباب وقد تجمعوا تحت مظلة فى انتظار خروج الفتيات. بدوا له كالعناكب التى تستعد للانقضاض على الإناث.

بدأ الجمع فى الخروج من الكنيسة، فخرج الشباب من أماكنهم التى كانوا مختبئين فيها كالكلاب الصغيرة التى تسعى لالتهام الأرانب الغضة.

تقاطر الناس من بوابة الكنيسة، فاردين مظلاتهم لاتّقاء زخات المطر، أما الطلاب الأكثر شجاعة فقد أخذوا يتشممون الطريق وكل منهم قد أمسك بذراعه فتاة صغيرة، وانطلقوا عبر الطريق بينما تدفق رواد الكنيسة فى الاتجاه المعاكس وذهبوا لحال سبيلهم.

كان السيد نون غريبا عن المنطقة ويبدو أكبر سنًّا من كونه شابًا لينتظر عند بوابة الكنيسة، ولم يكن قد ارتبط فى حياته أبدًا بفتاة دائمة، فأسقط ما فى يده وبدا مضطربًا ولا يدرى ما الذى يفعله؛ فظل واقفا كالشبح الباهت عند بوابة الكنيسة.

لم تظهر الفتاة. خطرت له فكرة وهو يرى الشباب صغار السن يخرجون من ظلمة البوابة الصغيرة فى الطرف الآخر من الكنيسة حيث لا يوجد ضوء بها، وجوق الإنشاد يخرج من تلك البوابة وهى عضوة فى جوق الإنشاد، فأسرع بالعبور إلى الناحية الأخرى حيث توجد البوابة. سمع فتاته "إيمى" وهى تقول لصديقتها:

- إنه شىء يصيب بالمرض. قد يعتقد المرء أن الرب يحب المطر؛ لأنه ينهمر كل يوم أحد مبارك. ها هو فريدى يا أجاثا، ألا تستطيعين رؤيته؟

ظهر شاب طويل القامة على رأسه قبعة أمام الفتاتين اللتين وقفتا تحت أشجار الممر، وأخذ صديقتها فى ذراعه وذهب.

أبصرت "إيمى" جلبرت على الجانب الآخر من الطريق فذهبت إليه، وقالت بصوت خفيض:

- أهلا، ظننت أنك لن تأتى.

- ها أنا ذا.

- انتظر لحظة.

هرولت إلى فتاة أخرى، وعادت بعد لحظة إلى جانبه، وقالت له:

- تعال، لا أريد أن يرانى أبى. لقد قلت لسيسى إننى ذاهبة إلى محل لشراء كتاب.

سارت بسرعة وسبقته. كانت ضئيلة الجسم ترتدى سترة من الصوف وقلنسوة من القطيفة، ونور مصباح الشارع يظهر شعرها المتعرج تحت المظلة المفرودة فى يدها. قالت له بعد أن لحق بها:

- تعال تحت المظلة.

- لا، لا أريد أن يسقط ماء المطر على رقبتى.

- على رسلك.. ابق حيث أنت.

سارا معًا بخطوات هادئة وكان جلبرت صامتا، فبادرته قائلة:

- كنت أعتقد أن الأب ديكسون لن ينتهى أبدا. هل انتظرت طويلا؟

- لا، لقد ذهبت إلى بيت لويس جودارد.

قطعا حوالى مائتى ياردة إلى أن وصلا إلى أحد المحال الكبيرة يقع فى منتصف الشارع، كان المحل مغلقاً وبوابته الخلفية الضخمة التى تدخل منها العربات وهى محملة بالبضائع مغلقة أيضا. وضعت إيمى مظلتها وتفحصت الطريق. ذهبت إلى البوابات الضخمة، ووضعت إصبعها عبر فتحة صغيرة وقامت بفتح باب جانبى صغير فى البوابة الكبيرة، عادة ما يترك مفتوحا لدخول عمال النظافة، ثم قالت له:

- تعال، وخطت إلى الداخل واختفت فى الظلام.

دخل وراءها فأغلقت الباب خلفه بسرعة، وقالت له وهى تسحبه:

- هنا أمان.

كانت الظلمة حالكة. قادته إيمى إلى آخر الممر ثم صعدت درجة على سلم وقالت له:

- اصعد.

صعد هو الآخر، واستعدا للأحضان والقبلات.

(٤)

لاحظ وجود ثنائيات أخرى فى الممر، وسمع بعض الأصوات المكتومة، فأدرك أن هناك آخرين وهما ليسا وحدهما فى المكان. وجدا ركنا خاليا فانزويا فيه وألقت إيمى بنفسها بين ذراعيه. كان جلبرت يجيد العناق والقبلات، وكانت هى أيضا تجيد ذلك.

كانا قد تعرفا ببعضهما منذ عدة سنوات. رآها لأول مرة فى مركز المدرسين، لكنهما كانا حريصين على سمعتهما فأبقيا علاقتهما فى السر، ولم يعرف بها أحد من زملائهما بالمدرسة.

استكانت إيمى لأحضانه فى الظلام، وكانت تحس بأنفاسه الساخنة وهى تلفح وجهها المبتل. كان يقبلها بنعومة تارة وبقوة تارة أخرى، وكانت شفتاه رائعتين. واستسلمت وانتظرت المزيد، استمر هو فى لمس حاجبيها بفمه، وهو يسوى شعرها المبتل بالمطر.

قالت فجأة:

- لحظة.

وشرعت فى فك أزرار معطفه وأدخلت يديها تحت سترته الدافئة، ففعل بالمثل، وفك أزرار سترتها وأمسك بجسدها الدافئ الناعم، واستمر يقبلها حتى جذور شعرها. كانت منتشية من فرط السعادة، وأحست بأنها تذوب فيه.

(٥)

تعد الأحضان والقبلات من الأسرار الهامة للحب الحديث على الطريقة الإنجليزية. وعلى الرغم من أن القراء الذين ينتمون للطبقة الراقية سينكرون أية علاقة لهم بالأحضان والقبلات، فإننا، للأسف، نقر بتورط السلالة الإنجليزية بكاملها، من الأمراء إلى من هم أدنى فى هذه الأعمال السرية.

عزيزى القارئ.. لقد تخليت عن الاعتقاد بأن هناك شر إيجابى، ولكن ليس صحيحا أن الشر قد اختفى ولم يعد هناك ذئاب وفتيات بريئات. نحن نعيش أياما أفضل.

هناك الآن الأحضان والقبلات فقط، لكن انظر لهؤلاء الأشرار من الشباب صغار السن، أولئك الأرستقراطيون الصغار بشهواتهم المتأججة وإثمهم الذى

يذوب كالزبد. ثم انظر إلى عمال المناجم وفتيات المصانع فهم الذين تنبعث فيهم روح العاطفة الحقيقية.

(٥)

ليس المهم ما تفعل، وإنما كيف تفعله. أليس هذا هو أكثر المسلمات الحديثة شيوعا؟ ألسنا جميعا نفعل ذلك. أنت تعرف أننا نفعل. هناك الكثير جدا من العلاقات العاطفية حاليا والتى تؤدى إلى التبادل الحميم. كيف يمكن أن يكون هناك خطأ فى ذلك؟ لا خطأ أبدًا فى ذلك. نحن جميعا نكون فى منتهى النعومة والرقة حين نقع فى الحب أو نمارسه. لماذا ننكر أن الأشياء هى الأشياء؟ لم يعد آدم رافضا لغواية حواء فى أيامنا هذه. فلتكن الأحضان والقبلات مجرد أحضان وقبلات ودعك من محاولة الزج بما هو أكثر، فهو يعادل فى أثره السيئ ما فعله الإغريق باستعارتهم الكريهة عن المحراث.

أنت يا قارئى العزيز لا تريدنى أن أعلمك كيف ترشف الحب بالملعقة، أى تحصل على العصير منه. أنا متأكد بأنك تعرف ولكنك ستكون مدينا لى إذا هدمت الفكرة القديمة عن الرجل الذئب الذى يغوى البريئات، لم يعد هناك خوف منا بأية درجة، لقد تحسنت أساليبنا وأصبحت أكثر لباقة. ما هو الضرر فى قليل من الأحضان والقبلات؟ وإذا تطور الأمر قليلا أو كثيرا، ماذا فى ذلك؟ كما قلنا قبلا إن ذلك يعتمد على كيف تفعل وليس إلى أى مدى تذهب. لا يوجد ما يمكن أن يوصف بالسفالة بالنسبة لما نفعل حتى لو ذهبنا إلى أبعد الحدود. لا تتحدث عن المحراث، ولنحافظ على الأحضان والقبلات لإنجلترا فقط، فيما بيننا.

(٦)

السيد نون من الطراز المميز فى الأحضان والقبلات على الرغم من أن الرجل لكى يكون مميزا فى هذا المجال يجب أن يكون شاعرا. أزاح شعرها بشفتيه من فوق حاجبيها بحركة رقيقة حالمة. كان يلمس جبهتها بشفتيه ثم يزيح شعرها

بفمه ببطء، وهى منتشية وتستمتع بتلك الأحضان المستمرة الدافئة، وغمرتها رعشات من السعادة ووصلت بها إلى قمة الإثارة.

علينا أن نذكر أن هذه القدرة على ممارسة الحب هى من الخصائص الأولى لفتاة هذه الأيام التى تمارس الحب بعد علاقة عاطفية تتطور بسرعة. كان نون يتجول بفمه بين شفتيها وأذنيها فتحس بشعلة من اللهيب تسرى فى كيانها، كان يصعد إلى حاجبيها ثم إلى عينيها. كان يغلق عينيها ويقبلهما وهما مغلقتان. فتترك عينيها مسبلتين وتسقط فى بحر النشوة وتغرق فيه إلى القاع. وكان حين يقبل عينيها ببطء وعمق ونعومة كانت تهتز فى يديه، ولا ترى شيئا كالغارق فى ماء عميق. كان إحساسا لذيذا وهى قد عرفت معنى أن يكون الإحساس بالحب لذيذا.

(٧)

كان نون مستمرا فى غمرها بالقبلات فى جسدها، واقتربت منه أكثر لكى تذوب فيه. كانت تتحد معه ببطء وهى تطوقه بذراعيها وتشدهما عليه كما لو كانت لهيبا يحيط به. أحست بدقات قلبها وهى تسرع حين عض أذنها بخفة، لكى تصل إلى ذروة المتعة، ولكنه اتجه بفمه إلى عنقها وإلى شعرها الناعم، فأحست بالإثارة اللذيذة تسرى فى جسدها. كانت يداها ترتجفان فوق كتفيه وهى تحس بأنها تعلو فى الهواء وغرقت فى تيار اللذة وفيما هو وراء السمع والبصر.

(٨)

لقد علونا إلى الأعالى يا عزيزى القارئ وغرقنا إلى الأعماق السحيقة.. ألا تتمنى أن تكون متميزا فى ذلك مثل نون وإيمى.. عليك أن تتدرب إذن، عندئذ ستتأرجح فى الأعالى. نحن جميعا أنقياء فى أيامنا هذه، رجال صغار شديدو النقاء، وشابات شديدات النقاء ليناسبوهم. لا شيء فى غمرة الأحضان والقبلات، كل الرجال يصبحون رجلاً واحدًا، وكذلك كل النساء يلتحمن فى توحد كامل. لا تفكر فى هذه اللحظات فى الموت أو فيما بعد الحياة أو فى التجريد المطلق، وإنما فكر فقط فى الأحضان والقبلات.

كان جلبرت ينظر فى الاتجاه المعاكس من تحت حاجبيه الشيطانيين، ورأى بعض الشبان والشابات قد انتهوا من فاصل الأحضان والقبلات ويتكلمون بصوت مسموع ويحدثون جلبة. انفلتت إيمى من بين ذراعيه فجأة وقالت:

- على أن أذهب، وإلا فسأنال ما أنال من أبى.

نزل درجة السلم وهو يحس بعدم الراحة. كانت تسوى شعرها وتضع القلنسوة على رأسها وهى تنزل هى الأخرى. أخذت المظلة من الركن وأسرعت بالسير إلى الباب وخرجت إلى الشارع.

أرجو ألا تشعرى عزيزتى القارئة بأنك أرفع من ذلك، لا تنظرى إلى إيمى هذه النظرة. إذا كان لك تجربة فاسألى نفسك إذا كانت تجربتك أجمل من تجربة إيمى، أو كان رفيقك أفضل من جلبرت. إذا كنت تفضلين استخدام كلمة حسب فقوليها لنفسك، فكل شىء ينتهى إلى المعنى نفسه. ولكن فى تواصلك مع قلبك، قولى ما إذا كنت قد حلقت فى الأعالى من قبل أم أن هناك ما تتعلمينه من هذين المسكينين.

(١)

لا يجب أن يشكو أحدٌ من أننى أتطفل على خصوصيات المحبين، فالعناق والقبلات عبارة عن مرآة مكشوفة وهى بالضرورة من الأمور ذات الاهتمام. أنا فقط أسير فى شارع العشاق لأرى إيمى والسيد نون يمشيان فيه دون إحساس بالذنب كجزء من طقوس ليلة الأحد. لا يجب أن يعترض محترفو الأحضان والقبلات بأن ما أعرضه هو مجرد صورة باهتة لما يتم بالفعل. أنا مصرٌ على أن هذا الملخص هو جوهر ما يحدث. هناك بالتأكيد اختلافات وخدع يا عزيزى القارئ. فى الماضى، كانت الملاءات الحريرية السوداء على سبيل المثال مثل التوابل الحريفة، ولكن الحساء هو نفسه. هناك طرز مختلفة للقبلات. كل أمة وكل مدينة وكل فرد يدخل عليها أيضا لمسات خاصة، ولكن اهتمامى ينصب على القبلة الإنجليزية، وعلى الأخص الأحضان والقبلات فى مداخل المنازل ووراء المحال المغلقة، والتى لا خمر معها ليفسد بساطتها. أنا لا أتعامل مع ما هو غير عادى وإنما مع الشيء على ما هو عليه. أتكلم عن الأحضان والقبلات الخالصة والبسيطة التى تمارس فى عصرنا النقى.

(٢)

لم يكن السيد نون فى مزاج طيب. قالت له إيمى ناظرة لأعلى.

– لم يعد المطر شديدا ولا أحتاج للمظلة. لقد دقت الساعة التاسعة والنصف ولسوف أدخل فى مشادة مع أبى إذا لم أذهب الآن.

كانت تتحدث بأنفاس متهدجة وهى تسرع الخطى. سألها جلبرت مغتاظا:

– لماذا؟ ما الذى يجعله هكذا؟

- لأن أبى مزعج، ويحب أن أكون بالبيت فى العاشرة إلا الربع قبل أن يذهب حيث إنه سيعمل فى وردية الليل.

- وما الذى سيفعله إذا لم تكونى بالبيت فى العاشرة إلا الربع؟

- سيجعل حياتى جحيمًا.

وقف فى مكانه، فنظرت إليه قائلة:

- ليس معى كتاب وقد قلت لأختى إننى سأذهب لأشترى كتابًا. يا لى من غبية! أليس معك كتاب؟

لحسن الحظ كان بجيب جلبرت كتاب فأعطاه لها، أخذته إيمى ووضعته تحت إبطها وأسرعت تجرى، وجلبرت يسرع الخطو بجوارها.

كانت تعيش بالوادى على بعد نحو ميل من وود هاوس. كانت مضطربة بسبب أبيها، ونسيت أن السيد نون يهرول خلفها حتى لحق بها. كان لديه رغبة عارمة لأن يكمل الجولة فسألها.

- متى يذهب أبوك إلى العمل؟

- فى العاشرة ويستغرق ذهابه إلى العمل ربع الساعة.

- فلتأتِ بعد أن يذهب.

(٣)

لم تكن هذه أول مرة بالنسبة لإيمى، حتى مع جلبرت. كانت مهيأة لما بعد الأحضان والقبلات من تطورات. كانت تعرف أن الشباب عادة ما يصرون بعد الأحضان والقبلات على الذهاب إلى ما هو أبعد، وهو أمر نصف متعب وإن كان ممتعا، وكانت عنيدة، وفى تحديها لأبيها ووصاياه تجد متعة، وكان جلبرت فى عناقه وقبلاته قد جعل من هذه الأمور القصوى شيئا مرغوبا بشدة له ولها.

سألها بتوسل.

- ستأتين أليس كذلك؟

ردت قائلة.

- فلننتظر ونرى كيف تسير الأمور أولا. لا تنتظر إذا لم أخرج وأصيح كالديكة!

كان جلبرت فى سلوكه متلهفا لما بعد الأحضان والقبلات ولم يزعجها هذا الأمر. كان هادئا ومصرًّا وفى صمته استعطافٌ لها. راحا يسرعان فى نزول التل. كانت رياضية وتتقدم عنه وتسبقه، ولكنه تحامل على نفسه واستطاع أن يتقدم وأن يسبقها. كان يفكر في كيفية استدراجها لاستكمال الشوط حتى النهاية، ولم يكن فى عقله أى شىء آخر. لكن هناك ذبابة فى الزبد وثعبان بين العشب. تبدى ذلك فى مزاج جلبرت، فهو بدلا من أن يكون لبقا ومهذبا فى إظهار رغبته أصبح مخيفًا كالثعبان المختفى فى العشب. كان متهيجًا ولا يريدها أن تذهب، ثم فجأة تغير مزاجه وأصبح حادًّا وفترت رغبته. أما لماذا كرهها هكذا فجأة، فهو ما لا يعرف له سببا. لم يكن يعرف حالته الشعورية أبدا على وجه اليقين، وأنا أنصحك يا عزيزى القارئ، بأن تتحكم فى ردود أفعالك حين تخرج من الأحضان والقبلات، فأنت تكون فى نيران الجحيم إذا لم تكن قد أكملت الشوط إلى نهايته. أنت وهى.

(٤)

كانت بوابة حديقة بيت إيمى تفتح على ممر صغير بين سياجين يتفرعان من الطريق الرئيسى ويصلان إلى البيت. وصل الاثنان إلى قاعدة التل، وعبرا الطريق إلى الممر الذى يقود للبيت، فقالت له إيمى بصوت خفيض:

- لا تأت عبر الممر، فلا بد وأنه يراقب المكان. لو استطعت الخروج بعد أن يذهب سأصيح كالديك، إلى اللقاء.

اختفت إيمى بالداخل، وبعد قليل سمع صوت البوابة وهو يفتح فظل واقفا وكان مزاجه سيئًا لاضطراره للانتظار. كان غاضبا من نفسه، فهو يحب النساء بالفعل ولم يكن هناك ما هو أجمل من أن يحتوى امرأة بين ذراعيه، وإيمى رياضية وشديدة التحرر وهو معجب بها. ظل واقفا بمزاجه السيئ ينتظر، والشياطين السوداء تنهش عروقه. نظر إلى نافذتها فوجدها مضاءة وسمع أصواتا، فاتجه إلى القناة ولم يبتعد عن البيت كثيرا.

سمع وقد أقدام خلفه وكانت لأبيها، ظل يتمشى فى الظلام واقترب منه الرجل، ونظر جلبرت إليه فرأى وجهه بسوالفه السوداء على صدغيه، فأحس بكراهيته، تمهل حتى تجاوزه ثم ارتد عائدًا إلى بيت الفتاة.

مر بهذا الموقف عدة مرات وكان معتادًا عليه هو وغيره من الشبان فى مناطق مناجم الفحم مثل ويتستون حيث يتميز شباب هذه المناطق بالاندفاع العاطفى، وليس هناك شك فى أن والد إيمى كان يفعل الشىء نفسه كثيرا فى شبابه، وكذلك والد السيد نون، وبالتالى لم يخطئ جلبرت كثيرًا حيث كان يعيد ما كان يفعله أبوه. لكن مزاجه كان حادًّا فقد شعر بأنه فى موقف غريب ويمارس عملا لا يليق به، فكان فى ضيق شديد ويكره كل ذلك. كان مولعًا بالنساء وهو يعرف أنه كذلك ويصر على أن يكون كذلك. فلماذا كل هذا الضيق؟!

(٥)

كانت إيمى بالداخل تمارس دورها الصغير فى التمثيل. كذبت على أبيها بنظرتها البريئة التى شك الأب فيها، فصاح مهددًا بقطع رقبتها، ولكنه كان صياحًا فقط فلم تكترث.

كان أبوها آلف بوستوك مولعا أيضا بالنساء قبل وبعد زواجه من أمها جينى. لكن بعد زواجه أصبح رجلا مستقيما له العديد من الأطفال. لم تنعم جينى بحياتها معه إلى أن طرد من وظيفته وأصبح شديد التدين فجأة، بكل ما ينطوى

عليه ذلك من ضيق فى الأفق. كانت جينى زوجته امرأة وديعة، ولكن أبناءه وبناته لم يكونوا كذلك.

كانت إيمى هى المفضلة لديه، فهى جميلة ولكن حادة الطبع، ولها أسلوبها الخاص، وصارت عدوه اللدود عندما كبرت. كانت كالقطة المتوحشة، وهو الوصف الذى كان يصفها به عندما يثور، وكان على حق، فقد كانت كالقطة الشرسة التى تجوب الطرقات وهى تظن أن العالم من حولها عبارة عن مغامرة لذيذة، بينما هو فى الحقيقة أحراش وأدغال ومليء بالوحوش المفترسة.

كانت إيمى قد صعدت لأعلى لتنام، قبل أن يغادر أبوها، ولكنها نزلت بعد أن ذهب. قالت لأمها:

- الآن أستطيع تناول العشاء فى هدوء.

أخذت سكينًا وذهبت لتقطيع بعض الخبز والجبن والكيك.

صاحت الأم:

- توجد قطعة من فطيرة التفاح إذا أردت.. حملت إيمى طبق الفطيرة وجلست تأكل منها بالملعقة.

قالت مبتهجة:

- لا تزال تنتظرنى الدروس التى سأكتبها.

ردت الأم:

- عليك أن تخجلى من نفسك لتركها حتى اللحظة الأخيرة.

- سوف أستغل ما تبقى من الوقت.

ردت الأم متهكمة:

- لم يتبق شىء.

فردت إيمى الكتب على المائدة تحت المصباح لتكتب دروس الغد، ثم قالت لأمها وهى مستغرقة فى الكتابة:

- عليك أن تذهبى للفراش يا أمى، لا تجلسى وقد غلبك النعاس هكذا. كيف يمكن لى أن أكتب وأنا أراقب رأسك الذى يكاد أن يسقط على الأرض؟ اذهبى لتنامى.

ردت الأم بحدة:

- وكم سيطول بقاؤك هنا؟

- ليس أكثر من عشرين دقيقة، اذهبى أنت إلى فراشك.

قامت الأم واتجهت إلى السلم لتصعد وقالت وهى تصعد:

- عندما تصعدين لتنامى.. سوف أعرف، وأكملت الصعود.

(٦)

أغلقت إيمى الكتب وفردت ذراعيها وأطفأت المصباح، ثم قامت ووقفت فى الظلام وهى تنصت باهتمام. كان كل شىء هادئًا حولها. مشت بهدوء إلى الباب الخلفى ودفعت البوابة ونزلت إلى الممر الأمامى بكل أمان وخرجت. كان المطر خفيفًا كالرذاذ. نظرت فوق السياج فرأت المصابيح البعيدة لمحطة السكة الحديد، وهو المكان الذى لا بد وأن أباها به الآن. وصلت إلى البوابة وصاحت كالديك، فظهر ظل جلبرت وهو يهرول ناحيتها.

قالت له:

- هل ظننت أننى لن أجئ؟

- لا، كنت متيقنا أنك ستجيئين!

وقفا للحظات والبوابة تفصلهما، وهمست:

- كيف تشعر؟

- على ما يرام، هل ستخرجين؟

- لا، ستدخل أنت.. ثم فتحت له الباب ليدخل، ووقف إلى جانبها بالحديقة.

- لقد أطفأت أمى مصباحها ولا بد وأنها نائمة الآن، وأبى قد خرج.

قال جلبرت متشككا:

- لن أدخل إلى البيت.

- لم أقل لك ذلك.

قادته عبر الممر الجانبى إلى صوبة زجاجية صغيرة بالحديقة، وكان بابها موصدا، لكن المفتاح كان معلقا فى مسمار بجانب الباب، كانت الصوبة صغيرة، ولكن إيمى كانت تعرف كيف تحرك النباتات من مكانها وترتب الأمور، ولحسن الحظ لم يكن هناك الكثير من النباتات. همست لجلبرت لحين الانتهاء من ترتيب المكان:

- انتظر لحظة.

فى هذه الأثناء، كان الأب فى طريقه إليهما. لم يكن من المفروض أن يصبح بوستوك رجل سكة حديد وإنما رجل شرطة، وبعد أن اشتغل بالسكك الحديدية لم تمت فى شخصيته رغبته القديمة فى أن يصبح شرطيا، وظلت حاسة الشرطى متيقظة فيه.

قبل أن تصل إيمى إلى البيت فى العاشرة إلا ربعا كان فى الفناء الخلفى يترقب عودتها، وسمع صوتها وهى تكلم السيد نون. وعلى الرغم من أنه لم يسمع ما قالت، ولكنه تشكك فى الأمر.

لم يفعل أمامها شيئًا ينبئ بشكوكه وانطلق إلى عمله مبكرا بضع دقائق لكى يتمكن من العودة ويرى ما يحدث، وحين مر بالقرب من السيد نون فى الطريق تأكدت شكوكه وأحس بالخطر، ولكنه ترك جلبرت واقفًا قرب البيت ولم يعره اهتمامًا.

(٧)

عاد إلى السياج المحيط بالحديقة ووقف ينصت بهدوء. سمع وقد أقدام جلبرت وهو يمشى حول الحديقة وفى الممر فأعد العدة لاقتناص الدخيل. رأى ظلال الشمعة التى تحملها زوجته وهى تصعد لغرفة النوم، ورأى السيد جلبرت وهو يشعل غليونه. رأى المطبخ مظلمًا تمامًا، والقطة الشرسة الصغيرة تأخذ طريقها إلى البوابة وتنظر فوق السياج الذى يتوارى خلفه، ثم صاحت كالديك، فغلى الدم فى عروقه. ثم فجأة جاء رجل إلى البوابة، لم يعرفه فى أول الأمر، لكنه بعد أن رأى الغليون معلقا فى فمه أدرك أنه هو!

حاول الإنصات لما يقولان، لكنه لم يميز شيئا من كلامهما، وفجأة وجدهما داخل الحديقة ويتقدمان نحوه، ولكن المسكينين لم يساورهما شك فى وجوده وتخطياه متجهين إلى الصوبة الزجاجية الصغيرة ودخلا ثم أغلقا خلفهما.

رجع بذاكرته إلى مغامرات الشباب وما كان يكرهه فى الفتيات اللاتى شاركنه مغامراته، تذكر أنه كان كلما زاد سعيه وراء الإثم، كلما زاد كرهه لشريكته. وحتى الآن، لم يعانق امرأة إلا إذا كانت مخلصة، فقد أخلص للرب ولم يعد فى حاجة لمغامرات صبيانية، فبعد السماع للقداس واجتهاده فى تلاوة صلواته زهد النساء وأصبح متشددًا تجاههن، فلا عجب إنه كره إيمى لجلبها ذلك النطع إلى البيت مرة أخرى بعد أن انتهى زمن المغامرات.

سوف يقتلها، وسوف يعذبها لأنها ستتسبب فى فضيحته وهو أبوها، وستلحق به العار. بلغ سخطه إلى ذروته وراح يلعنها فى سره. كان يفكر فى الفضيحة التى ستتسبب فيها. اعتقد أن بإمكانه أن يحرقها بالنار وهو رابط الجأش، لكن ما سيلحقه من عار من فتاة هى ابنته، فهل يوجد ما هو أشد إيلاما من ذلك؟! تلك الساقطة. نظر إليها وهى تنقل النباتات فأحس بالرغبة فى تعذيبها.

تذكر الحوادث الماضية، فعرف فى التوّ كيف تحطمت نباتات البرميولا ذات يوم وأعيد زرعها قبل أن يعود للبيت، والآن فقط عرف آلاف الأشياء.

(٨)

كانا قد دخلا إلى الصوبة وأغلقا الباب خلفهما، وهذا ما يريده، والفرائس فى الفخ.

تقدم تجاه الصوبة وهو يشعر بالبرد والبلل مما كان يزيد من شـره. كـان عازما على أن يضع نهاية لهذا الأمر مهما كلفه ذلك.

كان فى قمة غضبه ويحس بالدماء تفور فى عروقه، تقدم ببطء على أطراف أصابعه حتى وصل إلى الباب ووقف ساكنا وأصاخ السمع بكل جوارحه وقفـزت إلى ذهنه ذكرياته المريرة القديمة.

لم تشك إيمى فى أن الشيطان بالخارج، لكن جلبـرت لـم يجعلهـا تـشعر بالسعادة، فبدلا من أن يكون لطيفا ورقيقا وممتعا فى إقدامه، كـان خـشنا وفظًـا وعنيفًا، فعكّر مزاجها الذي كان رائقًا. لم تكن تتوقع منه ذلـك، لكـن لـم تواتهـا الشجاعة لتصرخ، فكانت تقاومه على قدر استطاعتها وتملكهـا شـعور بـالقرف وكرهته.

وفى لحظة حاسمة فتح الباب بقوة، فصرخت من الفـزع. صـاح صـوت كصوت رجل الشرطة حين يفاجئ مجرما فى حالة تلبس:

- ما الذى يحدث هنا؟

سمعت إيمى الصوت وبدت وكأنها أصيبت بالشلل، وظل جلبـرت سـاكنًا تمامًا. صاح الصوت ثانية:

- هيا اخرج من عندك، ولنرى من تكون؟

أشعل بوستوك ثقابا وتقدم نحوهما حيث كان يريد أن يراه. صـدرت عـن إيمى أصوات عجيبة كما لو أنها سقطت فى بحيرة مليئة بالتماسيح. التفت جلبـرت ناحيته فرآه فى مدخل الصوبة. اندفع الدم الساخن إلى رأسه فانقض عليه كالحيوان

الغاضب، وسقط الرجلان على الأرض، ووقفت إيمى تشاهد عراكهما وهى تصرخ.

(٩)

كان الرجلان مشتبكين بالأيدى والأقدام، واللعنات تتلاحق من فم أبيها. ظلت تصرخ وجرت إلى الحديقة وخرجت إلى الشارع واختفت فى الظلام. انفتحت نافدة، وسمع صوت أمها وهى تصيح:

– ما الذى يجرى؟ هل هذه أنت يا إيمى؟

وكان الأطفال يصرخون بجانب أمهم.

نهض جلبرت ووقف على قدميه، ولكن بوستوك جرى خلفه وأمسك به مصممًا على ألا يتركه يرحل.. ولكن جلبرت استطاع أن يفلت من قبضته وانطلق هاربا. لكن الآخر لم يتركه وجرى وراءه بكل قوة ليلحق به، فالتفت إليه وهو يجرى وصاح:

- سأقتلك.

كانت الأطفال تصرخ فى البيت. فكر الرجل فى الأمر وارتد عائدًا وتركه يذهب.

٤ ـ أفروديت والبقرة

(١)

خلال الأسبوع التالى لم يسمع جلبرت عن إيمى أو عن واقعة ليلة الأحد. كان مشغولا طوال اليوم بالمدرسة، ويذهب خلال الأمسيات إلى وود هاوس.

جاء الأحد التالى، وكان صافيا مبهجًا هذه المرة، وإن كان شتائيا. نظر جلبرت من النافذة عندما استيقظ ثم خرج إلى الفناء الممتلئ بالأخشاب ومشى قليلا ثم عاد للداخل مرة أخرى.

قضى فترة الصباح برفقة غليونه. كان هناك أشياء يجب أن يعملها، ولكنه لم يستطع أن يبدأ. جلس فى المطبخ بجوار المدفأة يطالع الجريدة بينما كانت الخادمة تصنع الفطائر وتحتك به باستمرار وهى فى طريقها إلى الفرن.

تصاعدت روائح البودنج والخضروات المطهية وملأت أرجاء المطبخ. دخل أبوه ووقف لحظات بعد أن شرب قدحًا من البيرة، ثم ذهب لحاله دون أن يكلمه.

لم يكن هناك تواصل بين الأب وابنه، فالرجل كان بخيلا وفى كل شىء، حتى فى الكلام مع غيره. كان ينظر بعين الغيرة لابنه وحانقًا عليه فى الوقت نفسه لعدم قيامه بأداء عمل حقيقي، لكنه كان معجبا به لذكائه. كان فى أعماقه راضيا لوجوده فى البيت على الرغم من تلمسه لأخطائه الكثيرة فى كل ما يفعله. كانت له ابنة متزوجة ولها أبناء، ولأنها فى حاجة مستمرة إلى المال؛ قرر الرجل أن يترك كل شىء لجلبرت.

كان لجلبرت بعض خصائص الرجل المهذب، فهو لا يجلس لتناول الغداء إلا وهو مهندم وحليق الذقن. ولأن رائحة الطعام فى الفرن كانت قد زادت وتنبئ

باكتمال نضجه، وأن موعد الغداء قد حان، أعدت المائدة على الفور وصعد جلبرت إلى غرفته بأعلى وحلق ذقنه وارتدى ملابسه.

كانت غرفة نومه بها قطع بسيطة من الأثاث، وتطل نافـذتها علـى الفنـاء المليء بالخشب، وإلى جوارها توجد غرفة المكتب المليئة بالكتـب وبهـا البيـانو والكمان وتلال من النوت الموسيقية، وكانت مرتبة ونظيفة، حيث يشرف جلبـرت على نظافتها وترتيبها بنفسه.

(٢)

ارتدى ملابسه، ذهب وأمسك بالكمان، ولكنه لم يشعر برغبة فـي العـزف. أمسك بنوتة موسيقية ثم تركها ولم يرغب فى النظر إليها، وانتظـر حتـى تناديـه الخادمة لتناول الغداء.

كان لا بد وأن يقرر ما سيفعله بعد الغداء. انطلق بالدراجـة الناريـة عبـر الشارع الرئيسى لويتستون دونما هدف، ثم انعطف فجأة إلى وودهاوس، وتردد أى طريق يسلك، واستمر فى السير أماما.

كانت باتى جورارد تسير فى الشارع الخالى من المارة، فقد كـان الوقـت مبكرا على الذهاب للكنيسة والرجال بالحانات ليحصلوا على آخر قدح من الخمر.

كانت تسير بمفردها بمعطفها الأحمر، وحين رأته يمرق بجانبهـا ابتـسمت لـه وأومأت برأسها تحييه، فتوقف حتى لحقت به وبادرته قائلة:

- ألن تجيء إلينا هذا المساء؟

أحس بلمسة من الأهمية فى صوتها وشعر بعدم الارتياح، فسألها:

- هل لويس هناك؟

- لا، فقد ذهبت إلى اجتماع فى ناربروه، وأتوقع أن يعود فى السادسة. أتريده فى شيء؟

صوبت عينيها إلى عينيه، ونظرت فيهما مباشرة، فارتبك وأجاب قائلا:

- لا ، لا.

- ربما لديك موعد آخر. وابتسمت بخبث.

- لا، ليس لدى ما أفعله.

- إذن اترك دراجتك وتعالى لتتمشى معى؛ فالشمس رائعة فى أخريات سطوعها.

اتخذ مكانه بجوارها وكانت مسرورة، واحتفظت بالسبب سرًّا.لم يتطرق الحديث إلى النقاش الذى حدث يوم الأحد الماضى واتخذ مسارا مختلفا.

هبطا التل معًا متجهين إلى الأشجار فى الحديقة القديمة الرطبة حيث توقفت باتى عند البوابة قائلة:

- أود أن أمشى فى الحديقة قليلا.

فتح جلبرت البوابة وسارا عبر الممر بين العشب الأخضر. كانت الردهة مغلقة وكل شيء بدا مهجورًا فى الشمس الشتائية الباهتة. قبل أن يصلا للبوابة التالية، اتجهت باتى إلى شجرة خوخ ضخمة وأخرجت زوجًا من الأحذية المطاطية العالية، وقالت:

- نحن نحتفظ بالعديد من المفاجآت هنا، ولكنى أحب التجول فى الحديقة، فأنا أعشق صوت المياه.. كما أن التوت يبدو بديعًا هذا العام.

سار جلبرت وباتى بجوار البركة ثم انعطفت وسارت عبر الحشائش إلى جوار المجرى المائى تحت السياج. ساعدها جلبرت فى جمع التوت الأحمر والتوت الأسود والأبيض من بعض الشجيرات بجوار المجرى المائى. توهج وجه

باتى من السعادة وهى تجمع التوت من الأغصان والفروع وكانت فى قمة الإثارة، والشاب بجوارها يساعدها فى هذه البقعة المنعزلة.

قالت باتى له وهى تلتقط حبات التوت:

- أليست جميلة؟

كان وجهها فى بياض التوت الأبيض ويعكس مرارة ظاهرة على الرغم من أنها تبدو سعيدة، فحياتها الزوجية سعيدة وتحب زوجها ولويس يحبها هو الآخر.

قالت له بنبرة جادة وهى تنظر إليه:

- قل لى كيف تنظر للزواج.

فوجئ بسؤالها فارتبك، وقال:

- الزواج؟ لا أعرف.

وقف ساكنا وكانت تراقب وجهه، فأردف قائلا:

- ومع ذلك فأنا سأتزوج فى يوم ما.
- وما هو طراز المرأة التى ترغب فى الزواج بها، وبأى شكل سيكون الزواج؟

فكر لحظة ثم قال:

- سأتزوج من امرأة ذات عقل، تستطيع أن تعتمد على نفسها وليس علىّ، ولا أبالى إذا كانت قد أحبت رجلا آخر فى الماضى، يجب أن نكون رفيقين طيبين. أريد امرأة تفعل ما تحب.

أنصتت باتى باهتمام، ثم مشت فى طريقها عدة خطوات وهى تقول:

- أتعتقد أنك ستفعل ذلك؟

(٣)

كان فى كلامها لمسة من السخرية، فهو كان فى نظرها صغير وملئ بالغرور.

نظر إليها وتقابلت أعينهما ثانية، فاكتسى وجهها بالحمرة، فارتبك وقفزت إلى عقله بعض الظنون.

أجابها قائلا:

- نعم، أعتقد ذلك.

- أنا لا أظن ذلك.

- لماذا؟

التفتت إليه وهى تبتسم، كان وجهها الأبيض العاجى تضيئه ومضات من الرغبة، فقالت:

- هناك فرق شاسع بين ما تعتقده الآن وما ستعتقده فيما بعد.

كانت واضحة فى تعبيرها عن آرائها وتتكلم بحماس.

أحس بشيء ليس عاديًّا يتوثب فيه، لم يكن له أبدا أية تجربة حقيقية بامرأة متزوجة، علاقاته السابقة كلها كانت بغانيات وبفتيات مثل إيمى. أما غير ذلك من النساء مثل باتى فقد كن بالنسبة له مجرد نساء فقط ولا شيء غير ذلك. الآن يحس تجاهها بشيء مختلف، أفروديت جديدة جاءت من البحر المظلم وتعلو عارية أمامه بجسدها العاجى المغرى. كأن حجابا يفصل بينها وبين حواسه، والآن قد سقط. ظل لحظات يفكر فيما هو فيه وهو فاغر فاه من الدهشة.

حولت باتى عينيها بابتسامة مغرية، وقد أدركت أن عليها أن تبدو متميزة عن غيرها من الفتيات اللاتى عرفهن، وأن تغريه بأكثر من الأحضان والقبلات.

كانت ترى بوادر انتصارها على قسمات وجهه، ولكنها كانت خائفة، فهى أيضا، عليها أن تتنازل عن تحفظها الذى تتشدد فى التمسك به أمام الناس، كما أن هناك اعتبارات عديدة أخرى. كانت هى أشد خوفًا منه.

كان يفكر فى أفروديت الناعمة والنائمة فى بحر الأمومة القديم والمستعدة للنهوض والخروج من معطفها الأحمر بكل كيانها الناعم الذى عاشت فيه لأربعين سنة، وكيف أن الماضى الذى رسم تجاعيده حول عينيها هو ماض منتهٍ وتسقطه الآن عنها. أصابه ذلك بالصدمة.

(٥)

نظر إليها بارتياب، ولكنها كانت ماضية ببطء نحو الهدف.

رأى ظلال الأربعين عاما محفورة على خديها ناصعي البياض كالعاج، ورأى خصلات شعرها وهى تعانق أذنها من تحت غطاء رأسها، فغابت عن مخيلته كل فتيات العالم ومن هن على شاكلة إيمى، وسألها بصوت متهدج:

- وماذا تعتقدين فى الزواج؟
- أنا لا أفكر فى الأمور المتعلقة به، الزواج بالنسبة لى يعد ماضيا تركته ورائى بينما بالنسبة لك فهو أمر ستقابله فى المستقبل. هناك فرق.

كان يراقبها وهى تتحدث. لم تنظر إليه سوى بابتسامة باهتة، فاستطرد قائلا وقد وضع نفسه مكان لويس خلال السنوات الماضية:

- لكن ما تركته وراءك هو ما سأقابله فى المستقبل.
- ليس بالضرورة، فأنت من جيل أصغر وستبدأ من نقطة ما.

كانت إجابتها مضطربة.

قاطعها قائلا:

- ربما من النقطة التى انتهيت أنت عندها.

احمر وجهها كزهرة من زهور الكاميليا، وقالت:

- نعم، من المحتمل جدا.

كانت تنسحب إلى مكان منزو فى ركن الحديقة.

شعر هو بذلك فتركها ولكنه ظل ينظر إليها وهى تمشى ببطء.

صاح وقد علا صوته قليلا لتسمعه:

- إذن فيجب أن تكون امرأة مرت بكل تلك الأمور.

انسحبت أكثر إلى الحدود الآمنة وقالت بأنفاس متهدجة:

- لا أعرف. هناك طرز عديدة من النساء فى العالم، أكثر مما تحلم بوجوده وأنت لا تراهم، ولكنهم هناك. أنت لا ترى سوى القليل والقليل جدا.

ابتسمت له ابتسامة المرأة العارفة، ولكن لم يؤثر فيه ذلك هذه المرة لأنه كان يستشرف ما وراء الأفق.

تمتم قائلا:

- نعم، أعتقد أن ذلك صحيح، ولكنك لن تجعلينى أعتقد بأنك ستبحثين لى عن فتاة، امرأة تحت الثلاثين، تستطيع أن تبدأ من حيث انتهت امرأة فى مثل عمرك وخبرتك. لا تجعلينى أصدق ذلك.

- ولم لا؟ هل بمقدورك أن تعرف أين انتهت امرأة فى مثل عمرى وخبرتى؟ كيف لك أن تعرف ذلك؟

كانت تدافع عن وجهة نظرها باستماتة وتحاول مجاراته، ولكنها لم تكن مستعدة لهذا التركيز العقلى الذى سد أمامها كل الطرق الجانبية التى كان بوسعها اللجوء إليها.

نظر إليها مباشرة، فأحست بالجزع وقد سقط عن وجهها قناع الدفاع. قابلت نظرته المتسائلة وكانت أكثر مما تستطيع احتماله، وكاد قلبها أن يتوقف عن الخفقان.

بدأ يتكلم وقال بنبرات مغلفة بالرغبة:

- لقد أدركت لتوى شيئا ولن تستطيعى إقناعى بعكسه إلى أن أدرك شيئا آخر.

ما سمعته من كلامه كان يعكس رغبة عارمة، لم يحب الفتاة فيها ولا المرأة المتحفظة التى يحبها لويس، وإنما أحب فيها أفروديت الناعمة الغريبة التى فى الأربعين، والتى مرت بمسَرات الحب والزواج والأمومة، وكذلك مرت بفقاقيع معركة التحرر وببحار الصواب والخطأ، وهى الآن تخرج عارية تاركة بحر الماضى وراءها، بحر العالم الإنسانى الذى لا يزال قائما فيها، تخرج بأثقال العمر والخبرة وبالشعر الرمادى الذى يكسو رأسها.. تخرج ناعمة.. ناضجة لم يمتلكها أحد، ولم يستكشفها أحد، تخرج وهى لا تنتمى لمكان ولا لأحد، وإنما فقط للمسافات غير المعروفة للشاطئ البكر .. للبحر المجهول. أفروديت، ربة الجمال وأم العالم غير المعروف التى جاءت فجأة من الأفق.

أحست به ينظر إليها باشتهاء وكأنه يراها عارية، فخارت عزيمتها، فقد كان ذلك أكثر من قدرتها على المقاومة.

قالت هامسة له:

- أليس من الأفضل أن نذهب للمنزل؟

- أجل، أعتقد أن علينا ذلك.

(٦)

تمشيا عبر الحشائش فى الضوء الخافت حتى وصلا إلى النهاية البعيدة للحديقة. كانت باتى تنظر حولها فى قلق وتفكر فى التراجع والعودة إلى غرفتها ومقعدها المريح بالبيت.

سألها جلبرت:

- أنت لا تخافين من الأبقار.. أليس كذلك؟

أجابت:

- لا، ولكنى لا أحبها، ولا أحب أن تقترب منى. لم أكن أعرف أن هنا أبقارا.

- هل الأمور على ما يرام؟

- نعم، أنا متأكدة من ذلك.

قالت ذلك وأسرعت الخطى وهى تنظر إلى إحدى الأبقار وكانت تقترب منها، فصاحت بجزع:

- أتعتقد أن هذه البقرة تنوى شرًّا؟

رد باستهانة:

- لا.

ولكنها قالت بخوف:

- إنها آتية تجاهى.

- لا، لن تفعل.

نظرت باتى إليها فى خوف وصرخت:

- أين أستطيع الذهاب؟

- لا تعيرى الأمر اهتماما.

- إنها قادمة نحوى.

وأخذت تجرى بسرعة وهى مذعورة إلى جدول الماء.

كانت البقرة تتجه صوب السيدة جودراد وهى مشرعة قرونها، جرى جلبرت نحو البقرة وقذف بعصاته التى فى يده تجاهها. اصطدمت العصا برقبتها، فهزت

البقرة رأسها وتوقفت. خلع جلبرت معطفه وأمسك به من الأكمام وتقـدم تجاههـا، وفجأة استدارت وأسرعت تركض بعيدًا وهى ترفع ذيلها فى الهواء.

قال جلبرت لباتى:

- لقد ذهبت.. لا تخافى.

نظرت باتى حولها بخوف، وقالت بصوت مرتعش:

- إنها ستأتى مرة أخرى. وأسرعت تعدو.

- لن تفعل. لا داعى لأن تسرعى.

كانت باتى تجرى مبتعدة وتبعها جلبرت بعد أن استعاد العصا. وقفت البقرة ترقب باتى وهى تجرى، ثم أسرعت ثانية متجهة إليها وقد أثارها معطـف بـاتى الأحمر.

- عليك اللعنة..

قالها جلبرت بعصبية وجرى ناحيتها وألقى بمعطفه فى وجهها وجرى لبضع خطوات، وعندما استدار رآها تجرى وقد علق المعطف بقرن من قرنيها، فأخـذت تهز رأسها بعنف.

(٧)

كانت باتى تحاول تسلق بعض الشجيرات، بينما البقرة على مـسافة قريبـة منها وهى تحاول التخلص من المعطف.

وقف جلبرت منتظرا وهو يريد استعادة المعطف. جرى خلف البقرة، والتى كانت قد تخلصت أخيرا منه، فأخذه وانطلق يعدو خلف باتى التى كانت قد عبـرت إلى الشاطئ الآخر للجدول وتقف مستندة على جذع شجرة وعيناها مغلقتان وقدماها مبتلتان وملابسها ملطخة بالطين.

- هل أنت بخير؟

- لقد أصابنى الفزع.

جلست عند قاعدة الشجرة وقد تدلت رأسها لأسفل، ووقف هو بالقرب منها ينظر إليها بقلق وحزن، ولم يكن يعرف ما الذى يجب أن يفعله. كان يريد أن يفرش لها المعطف لتجلس عليه ولكنه لم يشأ أن يزعجها. كانت تبدو كما لو أنها مغشِىٌّ عليها، ولكن صدرها كان يعلو ويهبط مع أنفاسها المتسارعة.

أخذ يراقبها فى قلق إلى أن هدأت وعادت أنفاسها إلى الانتظام ورفعت رأسها. كان وجهها شاحباً وعيناها خافتتين. قالت له:

- أشعر بالأسف لما سببته لك من متاعب. لكننى لا أتحمل مثل هذه المواقف.

(٨)

بدت كامرأة عجوز متعبة، وأحس بالشفقة تجاهها. وضعت يدها لتقوم، فساعدها لتقف. رأى حذاءها ذا الرقبة مليئا بالماء، فقال:

- دعينى أخلع عنك هذا الحذاء..

خلع عنها الحذاء وقام بمسح ملابسها بمنديله ليزيل الطين العالق بها، فقالت له:

- شكرا.. إنه لضعف شديد منى، ولكنى لا أستطيع فعل أى شىء حياله..

- لا تعيرى الأمر أهمية، ودعينى أفعل ما أستطيعه لك..

تماسكت، وقالت:

- دعنى أرى إذا ما كنت أستطيع أن أمشى.

أمسك بذراعها ليساعدها، وكان يتمنى أن ينتهى هذا الموقف. عبرا الحديقة، ونفذا من السياج ومنه إلى الشارع. كانت تحس بالمرارة والألم لأن الناس شاهدوهما معًا.

كان الطريق يبدو طويلا بصورة ممضة، وكان جلبرت يمشى بجانبها خطوة بخطوة وهى ينعى حظه السيئ.

فى الحقيقة كانت حادثة البقرة غير مناسبة أبدًا وأفسدت كل شىء بالنسبة له. ولكنه كان لديه بصيص من الأمل، ولا يزال يشعر بأن مشاعره تهفو لها على الرغم من كل ما حدث.

أما بالنسبة لباتى المسكينة فقد كانت تحس بالهوان. أفاقتْ من الصدمة وهى فى الطريق إلى بيتها ولكن وجهها كانت تعلوه نظرات كسيرة، كانت تفكر فى لويس وتريد أن تراه وتتمنى أن يعود للبيت، تمنت أن يكون هناك. فوجود هذا الرجل معها يمثل عبئا ثقيلا عليها، وهى الآن تريد زوجها.

٥ – مراسلات فى الكنيسة

(١)

فى ذات الأمسية، كانت إيمى تجلس فى شرفة جوق الإنشاد بالكنيسة وقد بدا عليها الحزن والوهن لما جرى من أحداث فى الأسبوع السيئ الذى مرت به. لكنها الليلة استعادت قليلا من صفائها، وإن كان وجهها ما يزال يعلوه الذبول. كان أبوها بأسفل، يجلس فى نهاية مقاعد العائلات، وقد بدا وديعا ساكنا وهو ينظر إلى المنبر باطمئنان وخشوع. كان القس البدين يبدو وكأنه ينثر البركات وهو يلوح بيديه الغضتين، ويبدو أن شيئا من البركات قد لمس آلف بوستوك وأضاء وجهه الذى كان يبدو وسيمًا على الرغم من تخطيه عمر الشباب. كانت إيمى تكرهه وتعمقت كراهيتها له حتى وصلت بها إلى أن تمردت عليه. كانت الأم المسكينة تجلس بجواره بملامح جامدة وقد خلا وجهها من أى تعبير، وبدت مستسلمة وساكنة. بعد الأم كانت بقية أسرة بوستوك تحتل بقية مقاعد الصف، حيث جلس أكبر الأولاد فى نهاية الصف، وكان شابا فى التاسعة عشرة، وجلس باقى الأولاد بجوار البنات فى المقاعد المجاورة.

كانت إيمى تحاول جاهدة أن تتخلص من حالة العبوس التى تعتريها وترسم على وجهها بعض البهجة، لكنها لم تستطع وظلت على عبوسها. كانت تراقب القس البدين المثير للضحك وتحس بالرثاء له حيث كان يبذل جهدًا كبيرًا فى موعظته والناس فى القاعة لا يأبهون به وبدوا غير منصتين لما يقوله، لكنه كان مستمرًا فى موعظته، وبدا وكأنه يسبح فى بحر بلاغته.

(٢)

فى الصف الذى أمامها بالشرفة، جلست أجاثا شارب، بجوار ألفينا هوتون، وكانت أجاثا هى أقرب الصديقات لإيمى، وهى أيضا تعمل بالتدريس مثلها، ولكن

أجاثا كانت أفضل منها سلوكا وأدبا. كانت طويلة ونحيلة، وكان صديقها يجلس فى مواجهتها.

ألقت إيمى بنظراتها على قبعات الجالسين بأسفل الشرفة ثم تململت فى مقعدها كطائر على فرع شجرة. أسقطت ورقة الكورال والتقطتها ووضعتها فى حجرها، ثم أمسكت كتاب الترانيم وأخرجت من جيبها قلما وكتبت رسالة على ظهر ورقة الكورال:

"كانت أحضانا رائعة الأسبوع الماضى مع ج. ن. جاء أبى من العمل وضبطنا فى صوبة النباتات معًا. كادت أنفاسى أن تتوقف من هول ما جرى. انقض أبى على ج. ن. ليمسك به وهربت أنا. لكننى لم أصمد.. واضطررت للعودة إلى البيت".

طوت الورقة وأعطتها لأجاثا مع القلم. انحنت أجاثا وقرأت ما فى الورقة، وكتبت فيها شيئًا بسرعة ومدت يدها بالورقة خلفها. التقطت إيمى الورقة والقلم وقرأت ما كتبته أجاثا:

"هل ماحدث كان بعد القداس؟ وأين ذهبتما؟".

كتبت إيمى: "نعم، فى حوالى العاشرة والنصف. وضبطنا معًا فى صوبة النباتات وجريت أنا دون أن أدرى إلى أين، ثم ذهبت إلى بيت لويس جودارد".

(٣)

وكزت أجاثا من الخلف فمدت يدها وأخذت الورقة. التفتت ألفينا هوتون لترى ما يجرى، فتجاهلتها إيمى وأشاحت بوجهها عنها، فقد كانت لا تحبها.

جاء بالورقة:

"أنت فتاة سيئة. كيف عدت للبيت؟ هل رأيت ج. ن. بعد ما حدث؟"

كتبت إيمى تقول لها:

"أمضيت الليلة ببيت آل جودارد. ذهب لويس إلى بيتنا وجلس طويلا مع أبى. كنت فى حالة يرثى لها، وكان الجميع يعتقدون أننى سأصاب بشىء خطير وكذلك أعتقدت أنا أيضا. لم أذهب للمدرسة يوم الاثنين، وقضيت الصباح كله فى الفراش لدى آل جودارد ثم عدت للبيت فى المساء. لم يكلمنى أبى منذ ذلك اليوم".

مرة أخرى أحست أجاثا بيد إيمى تلكزها فى ظهرها، فمدت يدها لها، ونظرت ألفينا هوتون لهما ببرود. كان الكورس قد بدأ يتنبه لما يجرى وأيضا بعض الجالسين فى القاعة، وحتى القس المسكين، ترك الموعظة والتفت إلى ما يجرى.

جاء الرد من أجاثا:

"أنت امرأة شريرة. هل رأيت ج. ن. منذ ذلك الحين؟".

تلقت إيمى السؤال وكتبت:

"لا، فلم أخرج مطلقا. لم يسمح لى أبى بذلك، وحاول باستماتة أن يعرف ماذا تعنى حروف ج. ن. المكتوبة على القلنسوة التى خطفها أبى من فوق رأسه، ولكنه لم يسألنى عن اسمه.

ذهبت الورقة وعادت بالآتى:

"هذا درس قاس لك يا عزيزتى. ما الذى سيفعله حين يعرف اسم ج. ن.؟ هل ضرب أحدهما الآخر بالفعل؟ ألم يشاهد ج. ن. بعدها؟ أعتقد أن الأمر مخيف".

كتبت إيمى الرد:

"كان الاثنان على الأرض عندما هربت بجلدى. ألم تشاهدى التورم الذى يوجد على أذن أبى؟ إنه من آثار المعركة، لقد أقسم أبى بأننى لن أخرج بعد أن يحل المساء. لست خائفة منه ولكنه لن يعرف من هو ج. ن. وأمى لا تعرفه. الجميع يحاولون معرفته. هل تعتقدين أنه سيحضر الليلة؟ لن أستطيع رؤيته إذا ما جاء. عليك أن تخبريه يا أجاثا، قولى له ألا يأتى الآن. سوف أصبح شخصية صالحة".

ثم لكزت أجاثا لتعطيها الورقة، فرفع القس وجهه المحتقن فى اللحظة نفسها. كانت أجاثا مستغرقة فى قراءة الرسالة حين خرج الجمع من صمت الاستماع للموعظة على أثر التغير الذى حدث فى نبرات صوت القس وهو يتلو موعظته، إذ علا صوته فجأة وصاح بحدة:

"أرجو أن يتوقف الكورس عن مقاطعتى، هناك جلبة وضوضاء تأتى من ناحيتهم ومن المستحيل أن أستمر هكذا. إما أن تتوقف المراسلات السخيفة وإما سأوقف الموعظة هذه الليلة".

ساد الصمت واستمر القس فى الحديث:

"أرجو أن يتوقف الأمر الآن. سأكون شديد الأسف إذا عاقبت أى واحد منهم، فأنا لم أعد أحتمل ما يجرى، إنهم يفقدوننى التركيز. لقد تحملت ما يكفى ولا أستطيع إكمال الموعظة مع هذا العبث".

(٤)

عدل القس نظارته، ونظر إلى أوراقه ثانية وهو لا يزال محتقن الوجه. كظم غيظه وبصوته البديع عاد للقداس مرة أخرى.. ولكن جميع المصلين كان قد أصابهم توتر. كانت كل عيونهم تتجه صوب شرفة الكورس وينظرون بغضب إلى ملائكة الكورس بالكنيسة.

كان أعضاء الكورس يشعرون بالاستياء. أطرقت أجاثا برأسها وحاولت إخفاء وجهها تحت حافة قبعتها السوداء العريضة. أما إيمى فكانت ساكنة وكأنها تحس بالذنب، وكانت إلفينا هوتون وسيسى تنظران إليها بلوم واضح، ثم تحولت أنظار باقى الجماعة إلى إيمى، فلم تتحمل منهم نظرات التوبيخ وأطرقت برأسها فى خجل.

أكمل القس بقية الموعظة وقد فتر حماسه وبدا غاضبًا ومستاءً، فراح يلوح بقبضته فى الهواء وهو يتكلم، ولم يكن ذلك من عادته. كان حانقا على الكورس وخاصة إيمى لسلوكها السيىء.

صدرت من أعضاء الكورس همهمات وتململوا فى مقاعدهم وبدا كما لو أن هناك عصيانا فى الشرفة.

كان آلف بوستوك ينظر لأعلى تجاه ابنته، وكانت السيدة بوستوك تنظر إليها أيضا وقد بدا الاضطراب فى وجهها، بينما احمرّ وجه الابن من الخجل ولم يقو على النظر لإيمى ونظر إلى الأرض.

انتهى الكورس من الترنيمة النهائية وأنهى القس موعظته وجلس فى منبره تملؤه مشاعر التعاطف مع المصلين ومشاعر السخط على الكورس، ثم صلى داعيا الرب أن تتخلص القلوب من الغضب وتبتعد عن الحقد، وإذا كنا نحن الذين كان واجبهم المقدس أن يقودوا إلى طريق الحق، تتعثر أقدامنا فى أحجار الخطيئة، فإننا بندمنا أمامك لنرجو ألا يؤدى تعثرنا إلى أن يسقط آخرون، وإنما ليريهم صعوبات الطريق ويساعدهم على السير فيه بحب، ذاكرين أن كلاً منا له وزره الذى يحمله فى رحلة الحياة الصعبة، فمن يضيف إلى وزر أخيه وزرًا لا يخفف من وزره شيئا، ولكن يأتى بالحزن حيث كان يجب أن يوجد السرور.

(٥)

على الرغم من أن هذا الحديث موجه إلى الرب فقد اعتقد أفراد الكورس أن القس يقصدهم به وقرروا عدم الرضوخ، أما إذا كان القس قد تعثر فيجب عليه أن يلوم نفسه لا أن يلوم الحجر الذى فى الطريق. عليه أن يتحسس طريقه بين الأحجار وإلا فما الداعى لأن يكون قسًّا؟ كان بإمكانه أن يتحدث معهم حديثا خاصا بدلا من أن يتسبب لهم فى تلك الفضيحة. كان كل واحد منهم يود أن يسحب الكرسى من تحت هذا المسكين الذين اختاروه ليجلس عليه. واحد فقط من جمع المصلين كان متفقا مع القس ديكسون، وهو معروف، وبدأ فى شحذ أظافره وأسنانه استعدادًا.

كانت إيمى تعرف أن الموقف يزداد اشتعالاً، وبالتالى ظلت ساكنة ولم تنشد مع الجوق.

احفظنا سالمين يا رب هذا المساء

وآمن خوفنا

ولتحرسنا الملائكة فى نومنا

إلى أن تظهر أنوار الصباح

حاولت إيمى استجماع شجاعتها حيث إن الأمور كانت قد وصلت مع أبيها إلى نقطة اللاعودة، وعندما نزل أعضاء الكورس السلم بعد القداس غاضبين على القس أسرعت إيمى وأمسكت بذراع صديقتها أجاثا وراحت تتحدث إليها وهما ينزلان:

- اللعنة على نورمان ديكسون. ما الذى دعاه لأن يدس أنفه فى الأمر؟ من المؤكد أنه ينتظر أن تقولى له أليس كذلك؟ لدىّ كتاب يخصه فقولى له إننى سأتركه لدى لويس جودارد، فقد نسيته هذا المساء. أنا شديدة الاستياء من كل ما حدث يا أجاثا حتى أننى أتمنى الموت. أنا متهمة وأنت تعرفين أن أبى جعل أمى تقسم له بأنها ستحكى له كل شىء أفعله. لقد أخبرتنى هى بذلك. هو يستطيع دفعها لذلك.. هذا الشيطان. من الأفضل له ألا يحاول ذلك معى، وإلا ناله ما لا يحب. صدقينى يا أجاثا إننى تعذبت وتألمت كثيرًا بسبب أبى، وليس له حق فى ذلك. فأنا تجاوزت الحادية والعشرين. أرجو أن تخبرى ج. ن. أننى لا أستطيع استعادة قلنسوته، فأبى يحتفظ بها وليس عليها أى شىء. عرفت ذلك من أمى. ولكن لويس جودارد يقف إلى جانبى. سوف أهرب عنده إذا ضايقنى ثانية.

(٦)

كانتا قد وصلتا إلى البوابة الصغيرة التى يخرج منها أعضاء الكورس من الكنيسة. نظرت إيمى بسرعة هنا وهناك.

كان جلبرت يقف فى الممر المقابل. قرصت ذراع أجاثا، وقالت بانفعال:

- لقد أتى يا أجاثا. عليك أن تقولى له. وإذا أراد أن يرانى قولى له ..؟!

سمعت خلفها صوتًا يشبه صوت رجل الشرطة يقول:

– هل ستأتين؟

– نعم..، ثم نظرت لأجاثا تودعها.

– أراك الأربعاء القادم يا أجاثا.. إلى اللقاء.

تبعت والدها الذى كان يسير وراء أمها خارجا من البوابة الكبيرة هو وباقى الأسرة، وذهبت أجاثا لتعبر الطريق إلى الناحية المقابلة.

– سعدت مساءً يا سيد نون.. أرجو المعذرة، إيمى لن تستطيع القدوم هذه الليلة، لقد أخبرتنى عما حدث الأسبوع الماضى.

رد جلبرت:

- نعم، أخبرنى السيد جودارد عما حدث.. ألم تحضر إلى الكنيسة؟ أليست هذه هى التى تمشى هناك؟!

- نعم هى، لقد أرغمها والدها على العودة إلى المنزل.

قامت أجاثا بسرد كل ما قالته لها إيمى، فصاح جلبرت:

- أعطها هذه عندما ترينها. سأذهب إلى آل جودارد لأستعيد الكتاب.

أعطاها جلبرت علبة من الشيكولاته، وسار ناحية لويس الذى كان يقف بعيدا، وحكى له لويس بالتفصيل عما كانت عليه إيمى ليلة الأحد الماضى وكيف أنها كادت أن تفقد صوابها، وما قاله لأبيها عندما جاءه يسأل عنها، وكيف جعل آلف بوستوك يعده بألا يؤذيها، وكيف أنه أوفى بوعده، وكيف حاول مع باتى لكى تخبره من يكون الفتى وبالطبع لم تستطع لأن إيمى لم تخبرها باسمه.

تذكر جلبرت أن أجاثا أخبرته أن إيمى ستترك له الكتاب لدى آل جودارد

٦ – الطـــــرد

(١)

في هذه الأثناء كان هناك ما يحاك للسيد نون. لم يشك في الأمر لبضعة أيام ولم يذهب إلى وود هاوس، وإنما ترك الأمور تجرى كما هى. كان مستاءً من الأمر كله، لكنه يحس بالراحة لعدم رؤيته لها ليلة الأحد، فبعد أن تلقى رسالتها كان يأمل أن يكون الأمر قد انتهى ولن يعود لمثل تلك الأشياء مرة أخرى. كان يحس بالنفور من الأحضان والقبلات ولا يريد المزيد بعد الآن. لم يذهب إلى آل جودارد لأنه شعر أن باتى كانت تسخر منه، فى حين أنه كان يشعر بأنه بطل وهما فى الحديقة، كانت هى تسخر منه فى أعماقها. نعم، لقد كان غبيا. أحس بالاستياء من كل من عرف ومن كل ما يحيط بحياته من أمور.

ولكى يزداد الأمر سوءًا، تلقى مذكرة وهو بالمدرسة تطلب منه حضور اجتماع اللجنة العليا فى ناربروه فى السابعة مساءً وبتوقيع وينى بريتن سكرتيرة اللجنة.

كان جلبرت يعرفها، فهى امرأة ذات شعر رمادى وقبعة سوداء، وتظن نفسها شديدة الأهمية، ودائما ما تكون موجودة عندما لا تكون مطلوبة وتقلب فى الأوراق التى لا تخصها بفضول وبإحساسها المبالغ فيه بأهميتها. كان رئيسها جيمى بلونت، وهو رجل صغير السن أصلع، يتركها تفعل ما بدا لها.

كانت السيدة برتين تهرع إلى أى مكان فى المقاطعة تشعر أنها مطلوبة فيه. بالطبع كانت تؤدى بعض الأمور التعليمية لكى تثبت أن هناك دائما ما يستدعى تدخلها. وأما إذا كان تدخلها يجعل الأمور أفضل أم لا، فمتروك لتقدير أى فرد حتى ولو لم تكن له علاقة بالتعليم.

كانت تحمل درجة الليسانس فى الآداب وتشعر بأنها متعلمة لدرجة لا يمكن معها التشكيك فى قدراتها. كانت أحيانا ما تكتب أوراقا عن نظام التعليم وتصاب

بالدهشة إذا لم يكن كل مدرس بالمدرسة يعرف ما تتضمنه تلك الأوراق. كانت سكرتيرة اللجنة المالية للأطفال، وبالتالى كانت شديدة البراعة فى جمع الأموال. لم يكن باستطاعة أحد أن يحاسبها، خاصة مدرسو المدارس الابتدائية، فقد أرغمتهم على دفع الأموال لتلك اللجنة وجعلت شمس رضاها تشرق على المدارس التى تدفع أكثر. كانت تؤيد وتعارض الكثير من الأمور، لذلك كان مما يثير الاستغراب أن شعرها أصبح كله رماديا وهى لا تزال فى الأربعين. كانت أمينة وطيبة وحاسمة ومستقيمة، والغريب أنها جمعت كل تلك الفضائل وهى فى عجلة.

(٢)

كان السيد نون يعرفها، فمثل هؤلاء الناس ذوى الضمائر لا يتركون أنفسهم غير معروفين. كانت تؤيد السيد نون لأنه كان شديد الذكاء، وأتى من كامبردج تسبقه سمعته. كانت تتودد إليه أحيانا بطريقة عقلية فقط، والمدرسات الكارهات لها قلن إنها لا تمانع فى بعض الملاطفات منه، ولكن ذلك لم يكن صحيحا. لقد كانت فى غاية الرقة والنعومة مقابل بعض التملق.

لم يشعر جلبرت بأى انزعاج عندما تلقى المذكرة التى تدعوه للاجتماع واعتقد أنهم سوف يستشيرونه فى شىء يتعلق بالمدرسة، ربما فى تجهيز معمل للكيمياء.

ارتدى أفضل ثيابه وانطلق بدراجته النارية إلى المدينة. عندما وصل كان الاجتماع قد بدأ بالفعل. ذهب إلى غرفة الانتظار وجلس ليستريح وهو لا يدرى شيئا عما يدور بشأنه فى الغرفة المجاورة.

سمع جرسا يدق وجاء كاتب إلى غرفة الانتظار ودعاه للدخول. كانت السيدة بريتن تتصدر منضدة الاجتماع وحولها أعضاء اللجنة، صافحته السيدة بريتن وأشارت إلى كرسى بالقرب من نهاية المنضدة، فجلس فى المقعد المحدد له. كان أعضاء اللجنة ينظرون إلى نون كما لو كان من المريخ، وظلوا يحملقون فيه، فشعر جلبرت بأنه كالطفل الذى سقط إلى قاع البحر وأن كل جراد البحر ينظر إليه.

جلست السيدة بريتن وأمسكت ببعض الأوراق وبدأت الحديث:

- نأسف يا سيد نون لاضطرارنا لعقد هذا الاجتماع لبحث الموضوع، والذى برغم كونه ليس من الاهتمامات المباشرة للجنة، فإنه قد يؤثر بشدة فى عملك الناجح فى مدرسة هايزفال التكنيكية. أليس كذلك أيها السادة؟

هزوا رؤوسهم بالموافقة ولم يعودوا يحملقون فى السيد نون. بينما جلس هو مصعوقا وقد فغر فاه من الدهشة.

أكملت بريتن:

- وبالتالى قررنا أن نفتح الموضوع أمامك ونسمع رأيك. نحن نأسف لتدخلنا فى حياتك الخاصة ولكننا نشعر بأن مصالح المدرسة التى تؤدى فيها عملا شديد التميز باتت مهددة.

- بالتأكيد. قالها أحد الجالسين حول المنضدة، فنظر جلبرت إليه بغيظ.

استطردت بريتن:

- لقد اجتمعنا هنا لتسوية الأمر بطريقة ودية وبحيث لا يسمع شىء عنه بعد ذلك. نحن مستعدون لنسيان كل شىء.

ثم ألقت السيدة بريتن أمامه بورقة لتجذب انتباهه. نظر إلى الورقة وأنصت لها وهى تقرأ ما فيها:

"أود أن يكون معروفا لأعضاء لجنة التعليم بناربروه أن جلبرت نون، مدرس العلوم فى مدرسة هايزفال التكنيكية على علاقة بابنتى، إيمى جريس بوستوك وقام بأعمال مخلة معها. لقد أوقع ابنتى فى المشكلات ودمر حياتها. أود أن أعرف ما إذا كان مثل هذا الرجل يصلح لأن يكون مدرسا لصبية صغار ولبنات، وما إذا كان من الممكن عمل شىء فى هذا الأمر بواسطة لجنة التعليم. ألفريد جريس بوستوك".

(٣)

توقفت السيدة بريتن ونظرت بإمعان إلى جلبرت الذى كان ينظر فى نقطة غير مرئية بمنتصف المنضدة. قالت السيدة بريتن:

- نحن نشعر بدقة الموضوع، ونود ألا نتجاوز، ولكن من الضرورى أن نحصل على إجابة منك. الاجتماع مغلق وكل شىء سوف يبقى طى الكتمان. هل أخبرتنا بما إذا كانت تلك الإفادة بواسطة السيد بوستوك صحيحة أم زائفة تمامًا؟

كان جلبرت لا يزال ينظر إلى وسط المنضدة ويبدو شاردًا. ساد صمت مريب، ثم قالت السيدة بريتن برقة:

- نعم أم لا يا سيد نون؟

سكت جلبرت وحملق فى الفراغ، فبادرته هى:

- إن مصلحتك تهمنا يا سيد نون وأرجو أن تصدق ذلك. ويجب أن تعلم أننا نهتم بمصلحة مدرستك وطلابك أيضا. لو لم يكن الأمر قد جاءنا بصورة رسمية، لربما كنا أهملناه ولم نطرحه على اللجنة. ولن يبدو أن السيد بوستوك شديد التصميم على خلق المتاعب. لكننا نعتقد أن من الأفضل محاولة تسوية الأمر بهدوء وخصوصية ما أمكن. نحن نقدر خدماتك ولا نرغب فى أن نفقدها. لهذا اجتمعنا الليلة هنا لنفعل ما نستطيع.

أجب إذن، هل تلك الإفادة من السيد بوستوك زائفة، أم يجب أن نأخذها بجدية؟

(٤)

نظر المجتمعون ناحية السيد نون، الذى كان ينظر إلى السيدة بريتن وقد قال بخشونة وهو يميل بجسده على المنضدة ويدفع بكرسيه إلى الخلف ليقف:

- حسن إذن، سأرسل استقالتى.

وقف مائلا للأمام على المنضدة للحظة وهو ينظر إلـــى المجتمعـــين الـــذين صاحوا فى صوت واحد:

- لا، لا، أرجوك يا سيد نون، اجلس.

قامت السيدة بريتن وهى فى قمة التوتر، لدرجة جعلته يجلس فـــى مكانـــه، وقبل أن تنطق بأية كلمة صاح أحد المجتمعين:

- اجلس أيها الشاب.

لكنه ظل واقفا وصاح وهو يرفس المقعد:

- سأرسل استقالتى.

وفتح الباب وخرج قبل أن يتمكن أى واحد من المجتمعين من القيـــام مـــن كرسيه. صاحت السيدة بريتن وهى مستاءة بشدة:

- لا تدعوه يذهب.

صاح أحدهم بقوة:

ولكن جلبرت كان ينزل السلم قفزًا، وفى لحظة كان أمام البـــاب الرئيـــسى ويسمع صوت السيدة بريتن تناديه بأعلى صوتها:

- أرجوك يا سيد نون، أرجوك أن تعود.

(٥)

كان ما أعدته لهذا المساء قد فسد تماما، وأصبح مزاجها سيئا تماما، ودت لو استطاعت أن تركل أعضاء اللجنة خاصة من كان ينادى جلبرت بالشاب الصغير. كم كانت تكرههم واحدًا واحدًا على الرغم من أنها توجت نفسها ملكة علـــيهم. كـــم كانت تريد أن تضرب وجوههم وتقول لهم رأيها فيهم، ولكنها لم تفعل أى شىء من ذلك. فقط قالت:

- سوف يرسل استقالته غدا.

فصاح أحدهم:

- ولسوف تُقبل.

٧ – الفـــــك

(١)

كان اليوم التالى هو السبت، وكان نصف يوم دراســـى، وكـــان يخـــاف أن تحاول السيدة بريتن ممارسة الضغط عليه، وقد قرر بينه وبين نفـــسه ألا يرضـــخ لها، فهو قد انتهى من هايزفال، وويتستون، وودهاوس، وبريتن، وجودارد، وإيمى، تماما ومن كل شيء فى حياته الحالية وفى ضربة واحدة، فالرجال سادة أقـــدارهم وقد فعل ما رآه صوابا. كان يتوق بشدة لأن يمسك بخيوط مصيره بحيث يـــستطيع أن ينهى حياته فى هايزفال بثلاث جمل "أود أن أســـتقيل مـــن وظيفتـــى بمدرســـة هايزفال التكنيكية وأن أغادرها فى أقرب فرصة ممكنة" وهو كل ما يتوق أن يفعله. كان متوترا ويقود دراجته البخارية بسرعة كبيرة وهو عائد مـــن نـــاربروه إلـــى ويتستون.

حين وصل إلى البيت كتب استقالته وجلس يفكر. كان يفكر فى السفر إلـــى ألمانيا لكى يدرس الدكتوراه، لكن هناك العديد من الأمور يجب تسويتها أولا، فالذى كان بينه وبين إيمى سبّب لها العديد من المشكلات ودمر حياتها، وقد تكون حـــاملا وستضع طفلا، وحتى لو كانت ستفعل، فمن هو والد الطفل؟ لم يكـــن فـــى وضـــع يسمح بأن يصبح أبا، ولكنه يشعر بأنه يجب أن يرى إيمى ثانية قبل أن يهجر البلاد ويسوى الأمر معها بقدر الإمكان، وكان ذلك يعنى أن يذهب إلى بيت آل جودارد.

(٢)

كان متأكدًا بأن تلك المرأة اللعينة، السيدة بريتن ستضيق الخناق عليـــه فـــى الفصل، ويعرف أنها ستفعل ذلك يوم الاثنين، فكر أن يذهب ويتجنب مقابلتها، فهل يستطيع؟

كان يفكر أيضا فى المال الذى يلزمه للسفر، فهو لم يكن معه مال، بـــل لـــم يملك مالا أبدًا، وعلى الرغم من أن أباه قال ذات مرة إنه عندما كان فى مثل عمره

ادخر مائة وسبعين جنيها من ثلاثين شلنا كان يحصل عليها كل أسبوع، فإنه تمنى لو كان قد استطاع ادخار مائة وسبعين جنيها، لكنه لم يفعل.

كيف سيستطيع السفر وليس معه سوى خمسة وثلاثين شلنا هى كل ما يملك؟ يجب أن يحصل على شيء من أبيه، وأن يبيع دراجته، فليترك ذلك لحينه. كان يشعر بالندم لأنه جلب ذلك لنفسه، لكنه لا يبالى.

كان أبوه عائدا لتوه من الحانة بعد أن تناول قدحًا من البيرة، فذهب إليه. كان يجلس فى مقعده العالى الذى يشبه العرش فأزجاه تحية المساء، وجلس قبالته على الأريكة، كان الأب يخلع حذاءه حين قال جلبرت:

- سوف أترك مدرسة هايزفال، وسأذهب إلى ألمانيا.
- هل تفكر فى ذلك حقًّا؟
- نعم، سوف أدرس الدكتوراه.
- الدكتوراه؟. لا بأس.
- دكتوراه العلوم كما تعرف.. فسوف تنفعنى كثيرا.
- بالطبع، سوف تكون كذلك.
- سأحصل على وظيفة أفضل كثيرا.
- نعم، بالتأكيد.
- الشيء الوحيد الذى أحتاجه هو المال.
- المال؟
- سوف يكلفنى ذلك بعض المال فى البداية. فقط فى البداية.
- أين؟ فى ألمانيا؟
- نعم.

(٣)

كان الحوار بين الأب والابن يتجه إلى النهاية المحتومة حين قال:

- ألا ترى وسيلة لمساعدتى قليلا يا أبى؟
- ولكنى أساعدك دائما.
- نعم، ولكنى أريد مزيدًا من المساعدة.
- وكيف أساعدك إذا كنت ستسافر إلى الخارج؟
- بأن تمدنى ببعض المال.

غمغم الأب فى الحال:

- لماذا؟ أنت تستطيع أن تحصل على المأوى والوجبات بلا مقابل فى البيت، فلماذا تريد الذهاب إلى ألمانيا؟
- من أجل الدكتوراه.
- اللعنة على الدكتوراه.. أنت تفعل ما يكفى.
- لا يا أبى سأذهب إلى ألمانيا.
- هل قررت؟
- نعم.
- اذهب حيث شئت.
- ولكنى يا أبى أريد بعض المال لأبدأ به.
- ادخره يا ولدى.
- لم أدخر شيئا يا أبى، وأنت لديك المال. أعطنى بعضا منه.

- أنت تجيد الكلام فقط.
- وما الذى يجب علىّ عمله بخلاف ذلك.
- ادخر يا ولدى .. كما ادخرت أنا.
- ألن تعطينى إذن؟
- ستحصل على كل شىء عندما أذهب.
- ولكنى لا أريدك أن تذهب، أريد فقط بعض المال.

صاح الأب بغيظ:

- أريد، أريد.. ما الذى ستفعله بما تريد؟ يجب أن يكون لك كل شىء، وليس فقط ما تريد.
- هذا ما سيحدث إذا ما أعطيتنى المال.
- لا، لن أضع دهن بطنى فى بطنك.
- لا أريد دهنك، أريد خمسين جنيها.
- هذا هو دهنى!!
- أنت تعرف أنه ليس كذلك.
- لا، إنه كذلك.
- إذن، لن تعطنى مالاً؟
- ستحصل على كل شىء عندما أذهب.
- ولكنى أريده الآن.

سكت الأب وأطرق برأسه، فقام جلبرت من أمامه غاضبا وصعد لأعلى ودخل حجرته وصفق الباب بعنف.

مر اليوم التالى ولم تحضر السيدة بريتن، فركب دراجته وترك مدرسة هايزفال للأبد بعد أن أخذ كل متعلقاته الشخصية معه.

(٤)

حين وصل إلى ويتستون فى الواحدة ظهرا، ذهب مباشرة إلى أحد الأشخاص كان قد أبدى له رغبته فى شراء الدراجة النارية. عرض الرجل خمسة عشر جنيها وكانت تساوى أربعين، فقال له جلبرت:

- أعطنى عشرين، وإلا ركبتها إلى لندن لأبيعها هناك.

حصل جلبرت على ما طلب، على أن يسلم الدراجة للرجل فى اليوم التالى، وعاد بعدها إلى البيت ولم يتكلم مع والده. تناول غداءه وخرج وركب دراجته مرة أخرى وانطلق.

٨ – من كانت ستصبح حماة له؟

(١)

في وودهاوس، فتحت باتى الباب له وقد بدا عليها الحرج. صاحت:

– أهذا أنت يا سيد نون! تفضل بالدخول.

ثم قالت بصوت خفيض:

- السيدة بوستوك هنا، يا للمسكينة.. أشعر بالأسف لها.. أنا لا أظن بأنك راغب فى رؤيتها.

- وماذا تظنين؟

- أعتقد أنها طيبة، لا تخش شيئا.

- كما ترين إذن.

خلع قبعته ودخل إلى الغرفة، فاهتزت السيدة بوستوك فى كرسيها لرؤيته، ثم دخلت باتى بابتسامة خفيفة على شفتيها وقالت:

- يا لها من مصادفة. هذا هو السيد نون يا سيدة بوستوك.

صافحته السيدة بوستوك، وجلست باتى والابتسامة لم تفارق وجهها وهى تنظر لضيوفها واحدًا تلو الآخر، ثم قالت بخبث:

– يا لها من مصادفة أن تأتى فى هذه اللحظة يا سيد نون، لقد أحضرت السيدة بوستوك الكتاب الذى يخصك معها. أعتقد بأنك كنت قد أعرته لإيمى.

نظر جلبرت إلى الكتاب، وقال بحرج:

– نعم، فعلت ذلك.

قالت السيدة بوستوك بندم:

- لقد كان ما حدث خطأ منى..، فلم أكن أعرف من هو صاحب هذا الكتاب. لقد أخذه منى زوجى قبل أن أفتحه وفتحه ورأى الاسم عليه. لو كنت أعرف ذلك لوضعته على الرف وأخفيته .

صاحت باتى:

- يا لسوء الحظ، هل يمكننى رؤيته؟

(٢)

أخذت باتى الكتاب وقرأت العنوان وضحكت قائلة:

- كتاب عن الرياضيات.

لم تكن تعرف عن موضوع الكتاب أكثر مما تعرفه السيدة بوستوك. رأت ختم المدرسة واسم جلبرت نون مكتوبا على الصفحة الأولى.

- يا له من خط بديع لك يا سيد نون.

قاطعتها السيدة بوستوك قائلة:

- لو كنت قد فتحت الكتاب لعرفت ولكنى لم أفعل!، وحاولت تجاهل الأمر ولكنى لم أنجح.

صاحت باتى:

- وبالتالى عرف كل شيء.

- نعم وللأسف. ما إن عادت إيمى حتى أراها الكتاب، وقال "سأذهب إلى مدرسة هايزفال التكنيكية ومعى هذا"، فانقضت عليه وحاولت خطف الكتاب

منه. وهذا ما جعله مسرورا. قلت لها فيما بعد "لماذا لم تقولى إنك لا تعرفين شيئًا عن الأمر" فانقضت علىّ الأخرى.

قالت باتى وهى ترفع حاجبيها للسيد نون:

- لا بد وأنك قضيت وقتا عصيبا بين الاثنين.

سكت جلبرت، فاستطردت هى:

- هل عرفت أن إيمى قد هربت؟

- لا .. لم أعرف.

قالت السيدة بوستوك:

- لقد ذهبت إلى فانى فى أيكراست. تلقيت خطابا من فانى تقول إن إيمى مريضة وتلازم الفراش. كان يجب أن أذهب إليها ولكن إلزى مصابة بالحصبة.

نظرت باتى إليها قائلة:

- أنت مثقلة بالمسئوليات.

هزت رأسها وقالت:

- نعم، لقد قلت لزوجى، أنت لا تفعل أكثر من جعل الأمور تسير من سيىء إلى أسوأ. لقد طلبت فانى الطبيب لها فقال إنها مصابة بتوتر عصبى بالمعدة، وهذا فظيع! وقلت لزوجى "لا أعرف إذا ما كانت تدفع ثمن أخطائها أم ثمن تصرفك الحاد تجاهها ، ولكنها تدفع الثمن على أى حال".

قالت باتى:

- كم هى مسكينة! إنها شديدة المرح بطبيعتها.

- نعم، هى مفعمة بالحياة ولكنها حادة المزاج كامرأة صغيرة، وهى شديدة القسوة على الأطفال. قلت لها مرارًا "أنت مثل أبيك، تخفين ابتساماتك تحت قبعتك وتظهرينها فقط عندما تخرجين". هى تستطيع أن تكون أليفة مثل القط وهى بالبيت، ولكن أفعالها تجعل أباها أسوأ كثيرا مما هو عليه.

قالت باتى:

- أعتقد أنها تفعل.

- إنها دائما ما تثيره وتجعله فى ثورة عارمة، وهو يلومنى أنا على ذلك. فأقول له "إنها ابنتك، أنا لم آت بها من القمر". هو ليس بهذا السوء لو أنها تركته وشأنه. هو يحتاج لمن يفهمه لكى يصبح متجاوبًا. لا يجب أبدا استفزاز الرجال، هذا هو الخطأ الذى دائما ما ترتكبه إيمى، فهى دائمة الاستفزاز له بدلا من أن تجعله هادئا. أحيانا ما ترد عليه بكلمات قاسية، ويكون ذلك بمثابة سكب للوقود على النار، فيشتعل هو غضبا وأصاب أنا بالرعب.

ضحكت باتى قائلة:

- أخشى أن أكون أنا أيضا من الطراز الذى يستفز الرجال.

ردت السيدة بوستوك بسرعة:

- وإيمى أيضا، ولو كان سيجعل من أبنائه مدرسين فعليه أن يتوقع أن تكون لهم ألسنة حادة.

(٣)

ساد السكون لحظات، وراح الثلاثة يتبادلون النظرات فى حيرة، ثم التفتت باتى إلى جلبرت متسائلة:

- ماذا فعل ألف بوستوك حيال كتابك؟

- تسبب فى طردى من المدرسة..

صاحت غير مصدقة:

- يا له من أمر مريع!

قالت السيدة بوستوك:

- هذا طبعه، يقلب البيت رأسا على عقب إذا ما أثير.

سألته باتى:

- ومتى ستغادر؟

- فى نهاية الأسبوع.

قالت السيدة بوستوك:

- هل يمكن تصديق ذلك؟

صمتت باتى قليلا ثم قالت:

- يجب أن أعترف بأن زوجك قد تسبب فى كم هائل من الخطايا يا سيدة بوستوك، لقد تسبب فى الألم لابنته، وأصاب الآخرين بالضرر ولم يجن أى شىء من وراء ذلك.

- هذا طبعه.

سألها جلبرت:

- وما الذى ستفعله إيمى؟

- سوف تعود عندما تصبح فى حالة أفضل، يا لها من حمقاء لكى تهرب هكذا.

- ما هو عنوان إقامتها؟

- هل تفكر فى الذهاب إليها بدراجتك النارية؟ أعتقد أن ذلك سيسرها. عنوانها هو: "بيت السيدة هارولد واجزتاف، بيت المدارس، إيكراست. إن زوج فانى

يعمل مدرسا وهو شاب ذكى وكان من أوائل كليته. أنا متأكدة بأنه سيتجاوب جيدا معك. البيت هو الرابع فى الحارة التى تلى مبنى الكنيسة، وستصل إليه بسهولة. المكان شديد الهدوء ولا أعتقد أنهم سيأسفون إذا قمت بزيارتهم.

(٤)

كان جلبرت ينظر للأرض، وكانت السيدة بوستوك تنظر إليه. كان يدرك أنها تفترض بأنه سيكون الزوج المحتمل لابنتها. لم تكن تبذل أى جهد فى ذلك الصدد، ولكنها كانت ترغب فى ذلك، ولكن جلبرت كان قد استشف ذلك من كلامها فأصابه الاضطراب للعداء الواضح بينه وبين الأب. كما أن النزلة العصبية بمعدة إيمى كانت مثار قلقه. كانت فكرة زواجه المحتمل من إيمى شديدة الوقع على جلبرت.

كانت له بعض المعايير الخاصة، كان مؤمناً بأن من أدخل قدمه فى بركة من الوحل فيجب عليه أن ينظف حذاءه بنفسه، لا أن يتوقع من أحد آخر أن يفعل ذلك، ولذلك كان مصمما على ترك الساحة تماما.

قامت السيدة بوستوك لكى تسرع بالعودة إلى بيتها. قام جلبرت وراءها أيضا فصاحت بها باتى:

- يجب أن تمكثى قليلا لقدح من الشاى.
- لا أستطيع..أشكرك. سيعود زوجى فى الخامسة والنصف ويجب أن أعد الطعام للأطفال بالإضافة إلى إلزى. أنا متأكدة من أنك والسيد جودارد كنتما شديدى العطف على إيمى. لا أعرف ما الذى كانت ستفعله بدون مساعدة السيد جودارد.

ردت باتى:

- إنه صديق عند الحاجة.
- نعم، هو كذلك، ليباركه الله،.. ثم خرجت.

نبهت باتى الخادمة لتعد الطعام، وجلست بجانب المدفأة. بقى جلبرت معها، فقد كان الوقت متأخرًا للذهاب إلى أيكراست هذه الليلة. قالت له باتى وهى تشد أطراف ثوبها على ركبتيها:

- حسن، لقد كانت لك مغامرة، وأية مغامرة!!

- يكون هكذا إذا كنت تنظرين للأمر على أنه مغامرة.

- وماذا تكون؟ إنها ليست مأساة، وليست كوميديا.. لا أعتقد أن إيمى سيسرها أن تشعر بأنها مجرد كوميديا.

- لماذا؟

- أعتقد أن ذلك شديد الوضوح.. فتاة مسكينة تسقط مريضة.

- وما السبب؟

- اضطرابات عصبية بالمعدة كما يقولون. أعتقد أنها التهاب بالأمعاء!

- ألا تعتقدين بأنها حامل؟

أصابت باتى صدمة، فردت بسرعة:

- لا ، لا أستطيع أن أقول ذلك، فلا يوجد ما يؤكد مثل هذا الأمر، وأملى ألا يكون ذلك قد حدث وإلا لكانت كارثة. هل ستذهب إليها؟

- نعم، سوف أذهب لأسألها.

- هذا ما يجب.. فإذا كان الأمر كذلك، هل ستتزوجها؟

- وماذا تعتقدين؟

- لا أعرف.. ما الذى تشعر به حيالها؟

- ليس شيئا ممتعًا.

- توقعت ذلك، لقد أوقعت بنفسك فى موقف سيئ.

- لست أنا من فعل. لقد صنع جمع من البلهاء هذا الضجيج فلماذا ألوم نفسى على شيء يعد أمرا طبيعيا؟

- ربما.. ولكن إذا كانت إيمى بوستوك ستصبح أُمًّا فمن الطبيعى أن تتزوجها.

- لا، لن أفعل.

- ولماذا لن تفعل؟

- لا أستطيع.

صاحت باتى بانفعال:

- هذا ليس حلا لمشكلتها.

- لست أنا السبب فى المشكلة.

- ومن يكون السبب؟

- أبوها ومجموعة البلهاء.

- أتظن بأنك ليس لك يد فى الموضوع؟

- أنا لا أكترث.

- حسن إذن..، ونظرت إلى الخادمة التى جاءت بطاولة الغداء.

(٥)

غادرت الخادمة الغرفة. نظرت باتى إلى جلبرت ثانية، وقالت له:

- أنا لست من الغباء بحيث أعتقد أنك يجب أن تتزوج الفتاة إذا كانت فى ورطة.

رد جلبرت بابتسامة مقتضبة:

- أشكرك.

- أعتقد أنك تتحمل بعض المسئولية، لن تترك الفتاة لتتحمل مسئولية كل شيء.

تورد وجه جلبرت فصاح:

- يا لها من ورطة صنعتها مجموعة لعينة من البلهاء.

- نعم، إنها كذلك. يجب أن يكون هناك مقابلا عادلا للمرأة فى هذه الحالات. يجب أن يكون هناك وقفًا من الدولة للأمومة، ويجب أن تزال الوصمة المريعة عن اللقطاء. ولكن ذلك ليس متاحًا. فما الذى تنوى فعله؟

- سأتبين الأمر أولا.

ثم قام ولبس معطفه وتأهب للخروج، فصاحت:

- انتظر حتى تفرغ من طعامك.

- لقد انتهيت .. أشكرك.

- لن تستطيع الذهاب إلى إيكراست الليلة.

- سأحاول، فقد أستطيع.

- اترك الأمر للغد وانتظر حتى يجيء لويس.

- لا، سوف أذهب وأتأكد بنفسى.

فى الحقيقة، كان ذكر وقف الحكومة على الأمومة ووصمة اللقطاء قد أثر فيه لدرجة أفقدته توازنه تماما، ولكنه تحامل على نفسه وخرج.

٩ – إيمــى فــى إيكراســـت

(١)

كانت إيمى مخطوبة لوالتر جورج فى الوقت الذى كانت فيه علـــى علاقـــة بالسيد نون، لكنها لم تكن تكترث وتناست خطبتها تماما. فى الواقع كانت قد خطبت عدة مرات فى مناسبات مختلفة، وكانت تقبل خاتمًا للخطوبة. لكن فى كـــل مـــرة كانت تعيد خاتم الخطوبة عندما تنتهى العلاقة، وفى مرتين كان الرجلان كـــريمين وقالا لها إنها تستطيع الاحتفاظ بالخاتم، وهذا يفسر ما كانت تلبسه فى أصابعها من خواتم كثيرة. لكن كان فى يدها خاتم معين تلبسه دائما فى إصبع الخطوبـــة مـــن الياقوت الأحمر وتقول عنه إنه من الياقوت الثمين. كان خاتم والتر جورج، وحـــين سألها جلبرت عنه قالت له إنه أمر أصبح تاريخاً. كان مندهشا لأنه وفقـــا لقـــوانين إيمى كان خطيبا لها هو الآخر. لكنها تستمر معه. كانت إيمـــى تفـــسخ خطوبتهـــا بسهولة شديدة، ولكنه لم يصل معها إلى هذا الحد ولم تحمل إيمى خاتمه، كان كـــل خاتم من الخواتم التى تلبسها يحكى قصة ويمثل جائزة نالتها من تركها لصاحبه.

(٢)

كان والتر جورج شابا لطيفا ومهذبا يعمل كاتبا بالبنك، وكان يخـــرج مـــع إيمى فى أثناء وجوده فى وودهاوس، ولم تجد إيمى أية فرصة للخروج مع شخص آخر. ولكنه ترك وودهاوس ونقل إلى الفرع الجديد للبنك فى وارســـوب وغـــادر البلدة. كان يأسف لفراق إيمى التى كانت تمنحه الحب والأحضان بسهولة وبساطة، وكان ممتنا لها، وبالتالى عندما كانت تصله الشائعات عن مغامراتها كان ينظر إلى غيرها من الفتيات ويتخيل نفسه بين أحضانهن وينسى الأمر. كانت إيمى لا تنتمـــى إلا لنفسها وتحب المتعة وهو قد أدرك ذلك بعد فترة قصيرة من خطبتهـــا للدرجـــة التى جعلته يتصور أنها تشرب رحيق كل الزهور لكى تختزن العسل مـــن أجلـــه،

وطالما أن إيمى لا تسيىء إليه علنا فلا ضير، فهو يتصيدها عند الأركان المظلمة ويشبعها بالأحضان، حتى بعد أن تركته.

(٣)

كانت إيمى جادة بعض الشيء فى علاقتها به، فقد تكون الأزقة المظلمة وما يجرى فيها مكانًا وثيرًا لها، ولكنها لن تقضى عمرها فى مثل هذه الأماكن، فهى كانت حريصة على فرصتها فى الحصول على بيت يخصها تشعر فيه بالدفء وتستمتع فيه بالحياة. كانت متعقلة أكثر من أبيها وتدرك أن السعادة فى الحياة هى البيت والزوج، وسوف يأتى وقت يتخلص فيه الإنسان من نزوات الشباب، ومن اختلاس المتعة فى الأزقة، وهى فى طريقها إلى ذلك.

كانت تحتار فى أمر أبيها وتفهم دوافعه، فهو قد مارس الحب قبل زواجه وكانت له نزوات، ولو أنه تمكن من الفهم لكان أهدأ ضميرا مما هو عليه الآن. ولكنه حين أحس بأن كل ما فعله فى الماضى يحدث مجددا لابنته تعامل مع الأمر بعنف أكثر مما يحتمل، وكان مبعث ذلك هو الخوف، وما أن هربت ابنته حتى أدرك ذلك كله.

(٤)

وصلت إيمى إلى بيت أختها فانى وهى تشعر بألم حقيقى. كانت تلوم أباها على ذلك، وقد كانت فى حالة هستيرية، وبعد أن هدأت قررت أن تبدأ صفحة جديدة من حياتها. لقد قررت أن تبدأ الفصل الطويل لحياة المرأة وهو الزواج، فالألم الذى تحسه بداخلها والنزلة العصبية الحادة بمعدتها جعلاها كارهة لكل متع الشباب.

بعد يومين من الهستيريا والنزلة العصبية بالمعدة، بدأت إيمى تسترد عافيتها وتعود لطبيعتها. قررت ألا تجعل من نفسها بلهاء مرة أخرى، وراحت تخطط للاستقرار فى الحياة.

كانت أختها فانى كأمها، ذات طبيعة شديدة الطيبة، وكان قد مر على زواجها عام ولديها طفل. استقبلت إيمى بترحاب، وقالت لها مواسية:

- لا عليك، فحتما ستتغير الأحوال.

نامت إيمى على الأريكة، وقامت فانى بتغطيتها وناولتها قدحا ساخنا من الشاى، وانتظرت حتى يعود زوجها هارولد.

كان بوسع إيمى أن تسمعه وهو يشرح الدرس للصبية عبر الجدار الفاصل، فقد كانت المدرسة ملاصقة للبيت. كانت إيمى تشعر بالرغبة فى أن تكون مدرسة، مثل هارولد وفانى، فقد كانت فانى مدرسة هى الأخرى وساعدت هارولد إلى أن جاء الطفل ثم توقفت، ولكنها ستعود للمدرسة مرة أخرى مع هارولد حين يكبر الطفل.

(٥)

كانت إيمى تحسد فانى على عملها كمدرسة وعلى البيت وعلى زوجها هارولد، كانت تعتبره شابا طيبا وشديد الاحترام. قال لها عندما رآها ووجدها تتناول الشاى مع فانى:

- أهلا يا إيمى، لم نكن نتوقع قدومك. هل حصلتم على إجازة فى وودهاوس؟
- لا، هناك خلاف بينى وبين أبى.
- اعتقدت أنكم أغلقتم المدرسة بسبب الحصبة. لقد غاب اثنا عشر تلميذا اليوم، ما هو سبب الخلاف يا إيمى؟
- القصة القديمة نفسها ، فأبى يثير المتاعب فى حياتى، وأنا لم أعد أتحمله، ففكرت فى المجيء إلى هنا لبعض الوقت إذا كان ذلك لا يسبب لكم الضيق.
- على الرحب والسعة. ولكن ألن يغضب والدك، وماذا عن المدرسة؟
- أخبرت المدرسة بأننى مريضة، وأنا فعلا مريضة، وأشعر بالتعب يا هارولد.
- ماذا بك؟

- أشعر بآلام فى أمعائى تجعلنى لا أشعر بنفسى. هل تصدق أننى استرحت ست مرات وأنا فى الطريق من المحطة إلى هنا؟

قالت فانى:

- وهى لم تأكل شيئا.

قال هارولد متعاطفا؟

- يبدو أن عليها أن تبقى بالفراش. أنا أيضا أصابنى التهاب بالزور هذا الأسبوع. هل وضعت بذور الكتان فى الفرن؟

كانت فانى بالقرب من الفرن تنظر إلى الوعاء الذى يتصاعد منه البخار والذى تصاعدت منه رائحة الكتان وملأت المكان، قلبت ما فى الوعاء وجاءها هارولد لينظر، وقال لها:

- أضيفى قليلا من الماء يا عزيزتى.. ثم نظر لإيمى وسألها:

- أترغبين فى الذهاب للفراش الآن يا إيمى؟

- أستطيع الانتظار قليلاً.

- لست بحاجة للانتظار.

قالت فانى:

- سأجهز الفراش فى الحال عندما أنتهى من إطعام الطفل. والتقطت الطفل الذى كان يصرخ طلبا للطعام.

قال هارولد:

- أستطيع أن أن أقوم أنا بذلك. خلع سترته وأردف:

- سآخذ رف الفرن معى لأعلى يا فانى لتدفئة الفراش.

(٤)

أخرجت فانى ثديها وراحت ترضع الطفل، وأخذ هارولد الرف فى قطعة من القماش وصعد به إلى الطابق العلوى لتدفئة الفراش. وبدأ فى إعداد السرير الإضافى لإيمى، وعندما نزل لأسفل قال لفانى:

- سوف أضع هذا الموقد الغازى بأعلى لبعض الوقت لتدفئة المكان. الجو شديد البرودة. وأخذ فى تدليك ذراعيه عبر قميصه.

بعد نصف ساعة كانت إيمى فى فراش دافئ بصحبة رف الفرن. نشر الموقد وهجه ودفئه فى الجو. ظهر هارولد وفى يده قدح من بذور الكتان المغلية ويحاول إقناعها بشربه.

- أنا أشرب الكثير منه، ووجدت أنها تفيدنى كثيرا. فبذور الكتان أفضل من زيت كبد الحوت، وسيجعل جلدك ألطف وأنعم إذا ما تناولتيه بانتظام.

ولكن إيمى رفضت بإصرار. كانت متوترة وشعرها مشعث ووجهها شاحب، فقالت لهارولد بتوسل:

- لا أريد أن يرانى أحد.

- هل الأمر بهذا السوء؟ أنت لم تفقدى جمالك بعد، على أى حال سأجهز لك كيسا من الردة الساخنة.

- لا مانع.

نزل هارولد ولم يجد ردة، فلبس معطفه وخرج ليأتى ببعض الردة وعاد ووضعها فى كيس من القماش وحصرها بين لوحين فى الفرن لتسخينها، ثم حملها وصعد بها إلى إيمى فأخذتها وقالت:

- أشكرك، أنا أفضل حالاً الآن.

- ربما يساعد ذلك على تخفيف الألم.

(٥)

ظلت تتألم طوال الليل ولم تنم ولو لحظة. كانت تبدو شاحبة للغاية وقد اشتد عليها المرض مما دعا هارولد ليخرج ويستدعى الطبيب على الرغم من معارضة إيمى. قال الطبيب إنها نزلة عصبية بالمعدة. وقالت إيمى إنها تشعر بذلك، فقال هارولد لفانى أن تكتب بذلك لمدرسة إيمى بوودهاوس.

فى المساء جاءها هارولد وبادرها بالحديث وسألها:

- ما الذى بينك وبين والدك أكثر مما هو معتاد؟

أشاحت بوجهها وقالت بحدة:

- لا شىء.

- لا ، ليس هذا بلا شىء، لا بد وأنه شىء خاص، إذا لم تكونى قد قلتيه لفانى.

قالت له:

- لا أشعر بالرغبة فى الكلام.

- من الأفضل أن تقولى لنا يا إيمى، فستشعرين بتحسن إذا ما أزحت ذلك عن صدرك.

- لا يوجد ما يقال.

- لا، هناك ما يقال يا إيمى، أنا وفانى نعرف ما جرى.

غاصت إيمى فى الفراش مع كيس الردة الدافئ، وجلس هارولد على الكرسى بجوارها وقد أحس بالاستياء. قالت إيمى.

- أرجوك لا تزعجنى يا هارولد.

- أعرف أننى مزعج، ولكننى أسألك من أجل صالحك. لا شىء فى ذلك يخصنى بصفة شخصية فيما عدا أننى دائمًا أردت أن أفعل أقصى ما فى وسعى من

أجلك حبًّا لفانى، وليس فى وسعى عمل الكثير. ولكنى سأفعل ذلك ما استطعت.

قالت إيمى:

- لقد تمشيت مع جلبرت نون، إذا كان هذا ما تريد معرفته.

رفع حاجبيه بدهشة بالغة وصاح بانزعاج:

- ماذا!. مع جلبرت نون من مدرسة هايزفال؟ وهل ضبطكما أبوك؟

- نعم.

- وماذا قال؟

- تشاجر معه وأمسك كل منهما بملابس الآخر وسقط الاثنان على الأرض فى الظلام، واتجه كل اللوم لى بالطبع.

- هل تشاجرا؟

- نعم تشاجرا، فأبى شيطان وسوف يقتلنى قبل أن يموت.

ثم سحبت الغطاء على وجهها وأخذت تنهنه من تحته، وكان وجه هارولد المسكين شاحبا كالموتى فى كرسيه والصمت يعقد لسانه ولا يجد ما يقول.

أحس هارولد أن عليه أن يقول شيئًا، فقال بنبرات طيبة:

- كان يجب ألا تتركى ذلك يؤثر فى أعصابك، فأبوك يريد مصلحتك كما أفترض، ولكن له أساليبه فى ذلك.. لماذا تحملين عليه وتأخذين ذلك ضده؟. تستطيعين البقاء هنا حتى تتحسن الأمور. هل كتبت لوالتر جورج؟. ثم سكت وانتظر وقلبه يدق ليسمع الإجابة، لكنها لم تجبه، وسمع صوت نهنهتها من تحت الغطاء، فصاح:

- هل كتبت لوالتر جورج يا إيمى؟

جاءه الرد من تحت الغطاء:

- لا.

- ألن تكتبى له؟ سوف تكتبين له. أليس كذلك يا إيمى؟

ظلت إيمى على صمتها، فقال يستحثها على الكلام:

- لست فى حالة حب مع جلبرت نون. أليس كذلك يا إيمى؟ لن ترتكبى مثل هذه الغلطة أبدًا.

- لا، لست فى حالة حب معه.

جاءت الإجابة من تحت الغطاء لتشير إلى التغير الذى طرأ على إيمى. قال هارولد:

- أنا سعيد لسماعى ذلك على أى حال لأننى متأكد أن ذلك سيكون خطأً جسيما. أنا متأكد أن والتر جورج هو الرجل المناسب لك يا إيمى، على الرغم من أن معاملتك لـــه لا يمكن أن يطيقها إنسان. ولكن الغيرة ليست من طباعه وهـــذا هو سبب مناسبته لك.

أظهرت إيمى وجهـــــها من تحت الغطاء وظهر أنفها شديد الاحمرار من البكاء، وقالت له:

- للرجال طرقٌ مختلفة لإظهار الغيرة، ولن تسنح له فرصة يحس فيها بالغيرة، وأنا أعرف ما أفعل.

- أنا قلت له أكثر من مرة بأنك سوف تكونين مخلصة له بعد أن يتم الـــزواج، وأنك لست من يترك لها الحبل على الغارب، وقد اتضح له ذلك تمامـــا. هـــو فقط لا يعتقد أنه فى موقف يتيح لـــه...

ثم سكت لحظة وكأنه يرتب ما يقول فى عقله ثم صاح مستطردًا:

- لماذا لا تأتين إلىَّ هنا وتساعدينى؟ الآنسة تيسون ستغادر المدرسة بنهاية فبراير. تعالى وساعدينى وستتمكنان من رؤية بعضكما أكثر أنت ووالتر.. وبعدها تقرران.

(٧)

كانت لدى هارولد خطة صغيرة، فهو يؤمن بأن الحياة هى مجموعة من الخطط الصغيرة التى تصاغ من أجل مصلحة الجميع. ولكن هذه الخطة كانت إيمى قد فكرت فيها بالفعل، فقد طرأت فى عقلها عندما سمعت صوت الآنسة تيسون المزعج وراء صوت هارولد وهو بالمدرسة، ومن خلال الجدار الفاصل بين المنزل والمدرسة.

شعرت إيمى بالتحسن وبدأت تنصت له، فاستطرد:

- اكتبى له رسالة وسأذهب إليه بها مساء الغد وأطلب منه الحضور فى نهاية الأسبوع.

هزت إيمى رأسها بالموافقة، فأحس بأنه قد نجح فى إقناعها وابتسم فى جزل، وذهب للفراش مع فانى وهو سعيد كما لو أن الملائكة تربت على كتفيه.

فى الصباح كتبت إيمى لوالتر جورج:

- عزيزى والتر، أنا عند فانى وألازم الفراش، وأشعر باليأس وغاضبة من نفسى. تعال وارفع من معنوياتى قليلا إذا استطعت. إذا لم تستطع فتعال إلى جنازتى.

كان اليوم هو الجمعة، أنصتت إيمى إلى ما يحدث بالمدرسة وأحست بالسعادة، كانت تشعر بالرفاهية من الرقاد بالفراش وسماع ما يحدث بالمدرسة. أنصتت للأطفال الذين يصرخون وهم يلعبون تحت المطر المتساقط وهى تفكر فى هارولد وما إذا كان يستطيع القيادة لمسافة عشرة أميال فى هذا المطر ليسلم الرسالة لوالتر.. سمعت فانى وهى تخبط بالقضيب على المدفأة بأسفل، وكان يعنى

أن هارولد قد جاء من المدرسة. وبعد قليل صعدت أختها تحمل وعاءً به أرنبا مسلوقًا ومعه بصل مشوى وكان هارولد هو صاحب الفكرة، والبصل المشوى مفيد جدًا لآلام الأذن حين يوضع ساخنا عليها، وكان يعتقد أنه يفيد أيضا لاضطرابات المعدة، وشرح للأختين الفوائد الكبيرة التى توجد فى البصل، فتشجعت إيمى وغرست الشوكة فى البصل وأكلته عن آخره.

١٠ – تقديم والتر جورج

(١)

تحسن الجو بعد الظهر وجهز هارولد دراجته النارية وعلا صوتها المزعج حتى عرفت القرية بأكملها بأنه سوف يقودها.

وصل هارولد إلى وارسوب فى السادسة والنصف بعد أن قاد دراجتــه فــى عكس اتجاه الريح، ولم يحضر والتر إلى السابعة حيث كان لديــه بالبنــك عمــل إضافى.

كان اسم عائلة والتر جورج هو ويفن، وكان والتر لطيفا وقوى البنيان وبدينا بعض الشيء وفى الحادية والعشرين من عمره. كان خداه متوردين وشعره طويلا وممشطا بعناية، وكان مريح المظهر ويوحى بالثقة.

قال عندما رأى ضيفه:

- مرحبا يا هارولد، هل استطعت أن تقود الدراجة من إيكراست إلى هنا فى هذا الجو العاصف؟

- نعم، معى رسالة لك.

بدت على وجهه علامات الدهشة ولم يرد، فاسترسل هارولد:

- إيمى مريضة وترقد فى بيتنا منذ يوم الثلاثاء. لقد كانت فــى حالــة صــعبة وتعانى من آلام مبرحة فى معدتها، وقد أحضرت لها الطبيب فقــال الطبيــب إنها نزلة عصبية ولكنى أعتقد أنها تعانى من تقلص فى المعدة. لقــد ســهرنا بجوارها ليلتين وأعتقد أنها ستموت فى أية لحظة. إن تقلص المعدة إذا حــدث لك فقد تموت كالذبابة، لكن لحسن الحظ تحسنت على أكياس الــردة الــساخنة واستعادت يقظتها.

كان والتر يقف مشدوها وفاغر الفم ولم يقل كلمة حتى انتهى هارولد. فسأله:

- هل كانت تعانى من آلام بالمعدة حين حضرت إليكم؟

- نعم، وحالتها كانت قد تفاقمت حينما عدت من المدرسة وقت الغداء. لقد أرهقها السير من المحطة حتى البيت وكانت تجلس لتستريح على جانب الطريق.. إنها لمعجزة أنها تمكنت من الوصول إلى البيت على الرغم من الآلام.

أشاح والتر بوجهه وسال الدمع من عينيه، وكان هارولد هو الآخر متأثرا بشدة فأدار وجهه إلى الناحية الأخرى وظلا لبعض الوقت هكذا، سأله والتر:

- هل سألت عنى؟

أجابه هارولد:

- نعم، وأرسلت إليك برسالة.

(٢)

أخرج هارولد الرسالة من جيبه ومد يده بها لوالتر الذى أخذها ومسح عينيه بمنديل وبدأ فى قراءتها. بعد أن قرأ الرسالة نظر إلى الغلاف ورفعه إلى شفتيه وطبع عليه قبلة، وقال وهو يمسح عينيه:

- يا للطفلة المسكينة. كيف أصابها ذلك؟

- إنها الأعصاب كما تعرف، فهى تعيش بروحها حتى تنهار أعصابها، ثم إنها تشاجرت مع والدها مرة أخرى. هو لا يفهمها على الإطلاق.

- هل كان يعذبها؟

- لقد حوّل حياتها إلى جحيم.

تحول وجه كاتب البنك إلى اللون الأحمر من شدة السخط، وقال متمتمًا:

- يا للشيطان، إنها فتاة صغيرة كما تعرف.
- لقد لجأت إلينا لكى نحميها منه.

زمجر كاتب البنك فى غضب؛ وقال:

- الشيطان اللعين!
- إنها أفضل كثيرا الآن وستكون أفضل بمرور الوقت. لقد أكلت اليوم وبدت مرحة، وعندما طلبت منها أن تكتب لك رسالة تسألك الحضور لقضاء نهاية الأسبوع استجابت لى وكتبت لك الرسالة.. ألا تعتقد أن ذلك تحسُّن؟
- نعم، ولكنى سأعود معك الليلة لأراها.

صاح هارولد:

- ألا تستطيع الحضور غدا، والبقاء معها حتى يوم الأحد؟
- سأفعل، وسوف أكون فى شدة السرور، ولكنى أريد أن أراها الليلة.

(٣)

ما إن انتهى والتر من كلامه حتى سمع ربة البيت وهى تفتح وتدخل.

- عذرًا أيها السادة، الغداء جاهز.

وضع والتر يده فى ذراع هارولد قائلا:

- تعال، نحن نتناول الغداء مبكرا ونتأخر فى وجبة المساء، السيدة سلاتر تصر على ذلك.

فقال الآخر متمتما:

- أشكرك، فسوف أرحل الآن. لقد تناولت غدائى قبل حضورى.

- إذن فلتشرب قدحًا من الشاى.. وقاد صديقه عبر الردهة إلى حيث كانت تقف ربة المنزل أمام غرفة الطعام .. وقال لها:

- أنت تعرفين السيد هارولد يا سيدة سلاتر، أليس كذلك؟

- بالتأكيد أعرفه.. تقدما واجلسا.

كانت تتحدث بصوت خفيض وتراقبهما وهما يجلسان إلى مائدة الطعام.

كان الطعام يبدو شهيا ولم يكن هارولد ليذهب دون أن يتناول بعضا منه، نظرت المرأة إليه من فوق إبريق الشاى وهى تصبه له وكانت مغتبطة وهى تراه يأكل بشهية وقد أعجبه طعامها.

بعد أن هدأت شهية هارولد شرح لوالتر عدم جدوى الذهاب إلى إيكراست الليلة؛ لأن إيمى ما زالت متأثرة بالمرض ولم يتم شفاؤها بشكل كامل، وهذا قد يؤثر فى استقبالها له على نحو لائق. هز والتر رأسه وبدا أنه اقتنع، ولكنه وجد أن من الضرورى أن يكتب ردًا على خطاب إيمى.

(٤)

بدا هارولد قلقا حينما كان والتر يكتب الرد المطول. وراح يهز ساقه فى حركة عصبية، فهو يفكر فى فانى والطفل وكيف سينتابهما القلق. ولكن أخيرا انتهى والتر جورج من الخطاب وصافح هارولد وسبقه إلى الباب وظل يراقبه حتى اختفى أسفل التل.

١١ – لـقــاء العشـــاق

(١)

كتب والتر لإيمى يقول:

عزيزتى الغالية..

أحسست بقلبى يتمزق بعدما أخبرنى هارولد بما حدث. لم أكن أتوقـع مثـل هذه الصدمة، فأنا لم أكن أعرف أنك مريضة وأنك فى مثل تلك الحالة وكـدت أن أنهار تماما حين أخبرنى هارولد. كنت أريد أن آتى إليك الليلة ولكن الوقت كان قد تأخر والساعة قد تجاوزت الثامنة وقال هارولد إنك ستستريحين الليلة فلم أرغـب فى إزعاجك وإقلاق راحتك، لذا قررت تأجيل قدومى إلى ملاكى إلى الغد، ولكنـى لا أعرف كيف أبقى بعيدا عنك وأشعر بكيانى كله يهتز ويتمزق شوقا إليك، فحتـى الآن لا أصدق بأنك مريضة وطريحة الفراش، فأنت فى خيالى أراك دائما فراشـة صغيرة وحساسة بوجهك الطفولى الجميل. أنا أكاد أقتل نفسى وأنا أفكر فيما تعانينه وكيف حدثت تلك الأشياء، تأكدى يا ملاكى بأنها لن تحدث مرة أخرى حين أكـون بجانبك.

حبيبتى الصغيرة: هارولد ينتظر هذا الرد ويجب ألا أبقيـه منتظـرا. إنـه شخص رائع وأشكر السماء لأنك معه فى البيت. أنا لا أستطيع أن أوفيه حقه مـن الشكر لرعايته لك فى تلك الأزمة، ولكنى عندما أفكر فى أبيك أشـعر أن شـفتى ترفضان النطق باسمه أبدا، فهو ليس بأب، وعلى الرغم من أن هناك كثيرين مـن أمثاله الذين يسببون آلاما لأبنائهم. لماذا يمنح الله الأبناء لمثل هؤلاء الرجال الـذين لا يصلحون لأن يكونوا آباءً، لا أعرف!! آه يا حبيبتى، أشـتاق لأن أرى وجهـك الجميل ثانية. سأكون فى إيكراست غدا فى الثالثة، لا تقلقى إذا تأخرت قليلا وسأبذل كل جهدى حتى لا أتأخر عليك. أرجو أن تكون الآلام قد رحلت عنك، أو تكـون علـى

الأقل قد خفت إلى حد كبير، فأنا لا أستطيع أن أتحمل التفكير فى معاناتك وأخشى أن ترى السيدة سلاتر انعكاس ذلك على وجهى.

إلى اللقاء يا قطتى الجميلة وملاكى الرائع. أشعر أننى لا أستطيع الانتظار للغد لآخذك بين أحضانى وأهمس فى أذنيك بكلمات الحب. آه لو استطعنا جمع شملنا لنكون فى سعادة هارولد وفانى. أعتقد أننا يجب أن نفعل ذلك قريبا جدا، يجب ألا نستمر هكذا طويلا. مع قبلة أخيرة من حبيبك قبل أن تذهبى للنوم.

والتر جورج ويفن

(٢)

قرأت إيمى الرد مرتين عندما استيقظت فى الصباح فى سعادة بالغة لأن هذا ما توقعته، وما الذى تطمع فيه امرأة أكثر من أن تحصل على ما تتوقعه؟ كانت إيمى تتوقع منه مثل هذا الرد لأن لديها العديد من مثل تلك الخطابات من أشخاص مختلفين، لكن والتر جورج كان أكثرهم رشاقة فى كلماته. لقد عرفت مرة شابا كان يعمل بالمنجم ويكتب لها الخطاب فى ست صفحات يصف فيها مشاعره لكن كلماته لم تكن رقيقة مثل والتر.

كان اليوم رائعا وكانت مشكلتها الوحيدة هل تقوم من الفراش أم لا؟. كان بإمكانها ألا تواجه مشكلة إذا كانت قد أحضرت ثوبها الأزرق الصوفى معها. ولأنها لم تفعل، فكيف ستقوم بقميص النوم الخاص بفانى؟ ولكنها قررت النهوض من الفراش، وكان هارولد قد ذهب إلى السوق ثم عاد ومعه بعض الياسمين ليعطر لها جو الغرفة ثم تركها لتضع زينتها. اغتسلت وارتدت ملابسها فى دقائق وصففت شعرها. عندما طرق هارولد الباب. كانت تضع البودرة على وجهها وتلمس شفتيها بالطلاء، ووقف هارولد يراقبها. قامت بالتركيز على أنفها الذى كانت تراه غير متناسق مع ملامح الوجه ونقطة ضعفها.

صاح هارولد:

- أسرعى أيتها السيدة الصغيرة.

كانت فانى لا تسرف فى وضع المساحيق مثل إيمى ولم يكن ذلك يعجبه. ولكنه أعجبه ذلك بالنسبة لإيمى، وكان يراقبها بشغف وهى تقوم بتلك الطقوس. قالت له:

- أشعر وكأننى عارية إذا لم أضع بعضا من البودرة على أنفى.

ضحك بصوت عال قائلا:

- أنا أحب ذلك.

أردفت هى:

- هذه حقيقة. لو لم أضع بعض البودرة على أنفى لأحسست بعدم الراحة وكأننى لم ألبس جوربى.

- لم يخطر ذلك ببالى أبدًا. أراهن أنك تعتبرين النساء الأخريات ناقصات إذا لم يضعن البودرة.

- هن كذلك، فهن لا يعرفن كيف يظهرن أفضل ما فيهن.

(٣)

زمت شفتيها قليلا ووضعت لمسة من الطلاء الأحمر على شفتيها، فسألها:

- أتعتقدين أن هذا يجعل منظرك أفضل؟

- وماذا تعتقد أنت؟

- لا أصلح حكمًا.

- لقد قلتها إذن.. من لا يصلحون حكاما هم الذين يجيدون الحكم.

- حسن، ولكنى أفضّل الشىء الطبيعى أكثر.. وانصرف.

ولكنها صاحت وراءه:

- لقد قلت إنك لا تستطيع الحكم!

انتهت من وضع زينتها وأحكمت الشال عليها جيدا وبدأت فى تهذيب أظافرها، نظرت إلى يديها فبدت لها جميلة بعد أن استعادت نضارتها، كانت يدها بيضاء ناعمة وجميلة. أخذت فى تلميع أظافرها الواحد إثر الآخر وهى تشعر بالرضا ثم راحت تلبس خواتمها فى أصابعها وهى تظن أن الذهب والأحجار الكريمة تضفى سحرا خاصا على أناملها الرقيقة. سمعت صوت جرس دراجة نارية آتية وكانت الساعة لا تزال الرابعة إلا ربعا. أسقطت المقص فى الدرج وأمسكت بمجلة وبدت أكثر ثقة فى نفسها.

سمعت أصواتا وجلبة على الدرج، وكان والتر قد دخل ويصحبه هارولد لأعلى. كان يحمل باقة من النرجس، وصاح فى فرحة عند رؤيتها:

- مرحبا يا عزيزتى.

ردت هى بنصف ابتسامة.

- أهلا يا والتر.

أمال الفراش ليتمكن من عناقها فوضعت يديها حول كتفيه وعانقها وقبلها. أحس هارولد بجمال ما يحدث أمامه. تركها والتر بهدوء ووقف أمامها وهى تنظر إليه وتلاقت عيونهما. وضع الزهور إلى جانبها وجثا على ركبتيه بجوار الفراش وكأنه أمام المذبح فى الكنيسة، ثم أمسك بيدها ونظر كل منهما فى عينى الآخر.

سألها والتر جورج بعاطفة جياشة:

- هل تحسين بالضعف يا حبيبتى؟

- أنا أحسن الآن.

لم يتصور هارولد أن صوت إيمى يمكن أن يكون رقيقا لهذه الدرجة. كـان يستعد لمغادرة الغرفة لإحساسه بأنه دخيل. ولأن فانى كانت تقوم بتلميـع أرضـية الغرفة المجاورة، آثر البقاء حتى تنتهى.

رفعت إيمى باقة الزهور، فقال هارولد معلقا:

- إن رائحتها بديعة. هل الرائحة شديدة القوة بالنسبة لك يا إيمى؟
- قد تكون كذلك فى أثناء الليل.
- هل أضعها فى الماء من أجلك؟
- نعم يا عزيزى.
- هل الغرفة باردة بالنسبة لك يا والتر؟
- لا، على الإطلاق.

صاح مبتسما وهو يتجه للباب:

- إذن سأذهب لأرى ما الذى تفعله فانى؟

(٤)

أصبح العاشقان وحدهما، فاندفع كل منهما لأحضان الآخر وراحا يتبـادلان القبلات وقد غمرتهما السعادة.

جلس والتر على مقعد آخذًا إيمى بين ذراعيه وضمها إلى صـدره بحنـان وكأنها برعم صغير يتفتح فى صدره. كانت هى فى قميص نومها الخفيف مما جعل الدم يندفع إلى رأسه وأحس وكأنه يحلق فى الفضاء. كان يحس برقتهـا ونعومتهـا ودفئها مما جعله يشعر برغبة قوية لها، وبأن رجولته تناديها. كان يشعر بأنه قـد أصبح رجلا منذ الآن ولن يخجل بعد ذلك أمام أى أحد. كان يرغب فيها بجنـون، فهمس لها:

- سوف نتزوج يا إيمى، لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك.
- وماذا عن الآخرين؟
- ليذهب الآخرون إلى الجحيم.

أبقاها بين ذراعيه، وكلٌّ منهما لا يريد أن يترك الآخر ومتعلق به. كانا سعيدين وهما يتمتمان من خلال القبلات بحوار دافئ ويفصحان عن رغبتهما في بيت صغير له حديقة.

(٥)

تجمع الكل فى حجرة إيمى قبل العشاء للثرثرة. كانت المائدة معدة بأسفل وعامرة بأنواع المأكولات الشهية. أعلنت الساعة العاشرة مساء، وكانت إيمى مسترسلة فى الحديث وهى فى قمة سعادتها، وكان والتر يضحك عاليا، وفانى تتحدث عن الأطفال.

١٢- المتطفل

(١)

في تلك اللحظات سمع صوت دراجة نارية وهى تقف، وظهرت أضواء كشافها من تحت النافذة. عرفت إيمى فى التو من القادم واعتراها القلق. بعد لحظة سمع صوت وقع أقدام على الممر تبعه صوت دقات على الباب الخلفى. نظر الجميع لبعضهم فى دهشة، واستجمع هارولد شجاعته ونزل لأسفل بينما أنصت الباقون فى صمت.

- هل هذا بيت السيد هارولد؟

- نعم.

- هل الآنسة بوستوك هنا؟

- نعم.

- هل أستطيع رؤيتها؟

- هى فى الفراش.

- أعرف ذلك، فقد أخبرتنى أمها بأنها مريضة. هل هى نائمة؟

- لا، ليست نائمة.

- هل أستطيع الحديث معها لدقيقة؟

- ومن تكون؟

- جلبرت نون.

- هل هناك أمر معين تود الحديث معها فيه؟

- لا، فقط أريد الحديث معها..

صعد هارولد إلى الطابق العلوى، وقال:

- جلبرت نون يريد رؤية إيمى..

(٢)

وقف والتر وفانى مستغربين، بينما قالت إيمى بحدة:

- دعه يصعد إذن.

سألها هارولد:

- هل يجب أن أفعل ذلك؟

أجابته بنفس الحدة:

- دعه يصعد يا هارولد.

نظر هارولد إليها باستغراب ثم نزل لأسفل حيث كان جلبرت ما زال واقفا فى الظلام.

- تعال معى لأعلى.

سُمع صوت أقدامهما وهما يصعدان، وأحكمت إيمى الشال حول صدرها ثم فتح الباب وظهر جلبرت. كان وجهه يبدو باردا وشعره مشعثا بعد أن خلع القلنسوة، وصاح بابتسامة باهتة:

- سعدتم مساءً.

صاحت إيمى بحدة:

- هل تعرف السيد ويفن يا سيد نون؟ إنه خطيبى .

صافح جلبرت السيد والتر جورج ثم صافح إيمى. بدا هارولد جادًا وكان ينقل بصره بين جلبرت ووالتر حين صاح جلبرت قائلا لإيمى:

- كيف حالك؟

- كما ترى، ولكنى أتعافى.

كانت غاضبة، وانعكس ذلك فى نبرات صوتها الحادة، وكان هو الآخر مشوشًا.

- لقد رأيت أمك هذا المساء.

كان الجميع يبدو متوترًا .. فصاحت إيمى:

- فلتجلسوا.. الوضع يشبه الوجود فى غابة.

أعطت فانى كرسيا لجلبرت بينما جلس والتر على الفراش.

نظرت فانى إلى جلبرت وسألته:

- أين رأيت أمى؟

- فى بيت لويس جودارد.

- هل هى بخير؟

- نعم، ولكنها قلقة بعض الشىء.

- بالتأكيد هى قلقة على إيمى.

- نعم، كما أن أحد الأطفال أصيب بالحصبة.. لكنه يتحسن.

سألته فانى:

- ألم يصب بها باقى الأطفال؟

- لم تقل ذلك.

- الحصبة ما إن يصاب بها أحد إلا وتنتشر فى البيت.

- لاسبب هناك يحتم إصابته.

(٣)

سار الحوار على هذا النحو بينه وبين فانى، وجلس والتر جورج وهارولد وإيمى فى صمت.

لم تكن إيمى قد أخبرت والتر جورج عن جلبرت وما حدث معه، وحذرت فانى وهارولد من أن يحدثاه عن ذلك. لم يكن مزاجها يسمح بأن تقول شيئا، فظلت ساكنة وعاقدة حاجبيها فى توتر ظاهر، وتدير الخاتم الياقوتى فى إصبعها فى عصبية بعد أن توقف الحوار بين جلبرت وفانى.

جلست إيمى فى الفراش وهى تدير وتدير الخاتم فى إصبعها. كانت على وشك الانفجار فى البكاء حين رفع هارولد رأسه قائلا:

- جئت على دراجة نارية .. أليس كذلك يا سيد نون؟

- نعم.

- سمعت صوت الدراجة آتيًا عبر الحارة.

- لقد ضللت الطريق قبل أن أعرف أين أنا، ثم صادفتنى مشكلة مع الدراجة واضطررت للتوقف لبحث الأمر.

- يا لها من رحلة إذن. متى بدأت الرحلة؟

- بدأت من وودهاوس فى السادسة إلا ربع.

- والآن الساعة تجاوزت العاشرة.. لا بد وأنك ضللت الطريق كثيرا.

- نعم. لا أعرف الطرق جيدًا هنا.

استمر الحوار بين الاثنين، واستمرت إيمى فى عصبيتها وتدير الخاتم حول إصبعها، ووالتر ينظر بتساؤل فى القادم الجديد. كان قد كره هذا التطفل بشدة وكان قد بدأ يشعر بشىء من الكراهية له. جلس جامدا على جانب الفراش وهو ينظر لإيمى.

خفتت حدة الحوار وقامت فانى لتخرج حيث لم تتحمل استمرار ذلك الحوار. قالت وهى تقف:

- سأذهب لإعداد الكاكاو.. أتريد قدحا من الكاكاو يا سيد نون؟

- لا، أشكرك، لا أود أن تتكبدى المشقة.

- لا مشقة هناك، سأجهز قدحًا لك.. وأنت يا هارولد، عليك أن تذهب إلى الطفل إذا بكى.

- سأفعل.

(٣)

خرجت فانى وساد الصمت مرة أخرى، وبدأ هارولد يحس بالقلق ووالتر جورج بالضيق، أما إيمى فكانت تشعر بضيق فى التنفس. كان جلبرت صامتا هو الآخر حين سمع هارولد صوت بكاء الطفل، فهب واقفا وصاح:

- هذا صوت الطفل.. ثم خرج من الغرفة.

ساد الصمت الثقيل مرة أخرى. كان كل واحد من الثلاثة الباقين فى غرفة النوم يفضل الموت عن أن ينبس بكلمة للآخرين. كانت الشفاه والقلوب مغلقة تماما وبدا الثلاثة كالمسحورين وغير قادرين على الكلام.

أحست إيمى بالألم يعاودها وأحس جلبرت ببرودة فى قدميه وشعر والتر بعدم الرغبة فى أى شىء سوى أن يغادر هذا المتطفل الغرفة ويذهب لحاله.

فجأة رفع جلبرت رأسه وسأل إيمى:

- ما الذى يمثله هذا الخاتم؟

فوجئت إيمى بالسؤال فأصابها الارتباك، وقالت متلجلجة:

- ماذا؟ هذا خاتم خطوبتى.

أردف والتر فى الحال:

- إنه خاتمى. واحمر وجهه حتى أصبح فى لون فص الخاتم الأحمر.

أعقب ذلك صمت آخر ساد بينهم لدقائق، وأغمض جلبرت عينيه لثوانٍ وقد شعر بالتعب من الهواء البارد الذى صادفه خلال الرحلة، وظل والتر جورج على جانب الفراش وهو ينظر إلى أطراف أصابعه.

حاولت إيمى عمل أى شىء لتجاوز الموقف، ولكنها لم تفلح. جاء صوت رقيق من أسفل سمعه الجميع:

- الكاكاو جاهز.

كانت فانى قد أعدت أقداح الكاكاو وتنتظر نزولهم لتناوله، وانتبه جلبرت ونظر إلى الباب ولكنه لم يتحرك. تمسك والتر جورج هو الآخر بمكانه على جانب الفراش وهو مستمر فى النظر إلى حذائه وكأنه لم يسمع شيئا.. قالت إيمى لهما:

- اذهبا لتناول الكاكاو.

ولكنها لم تفلح فى زحزحتهما، فظل جلبرت ساكنا ووالتر قابعًا على جانب الفراش.

استسلمت إيمى ولاذت بالصمت وقد أحست بالعجز عن تحريك الموقف وكسر حدة التوتر القائم بين الثلاثة. لكن الموقف لم يكن ليستمر للأبد، فقد أحس جلبرت بالحرج من نظراتهما المصوبة إليه، فنهض مستأذنا وخرج، وتنفس الباقون الصعداء وأحسوا بالراحة.

وهكذا يا عزيزى القارئ انتهت قصة السيد نون وإيمى، حيث تزوجت إيمى من والتر جورج ورزقا بالأطفال وسار كل شيء على ما يرام بعد ذلك.

أما بالنسبة للسيد نون فهناك جزء ثان ينتظرك يا عزيزى القارئ، ولتضرع للسماء ألا يكون هناك جزء ثالث.



المقالات

الفــن والفــرد

(١)

إن الاجتماعات التى تعقد مساء كل يوم خميس إنما هى لمناقشة المـشكلات الاجتماعية بهدف تحسين الأوضاع العامة والارتقاء بها، وإعداد أنفـسنا لنـصبح مواطنين واعين، وأعتقد أننا بمرور الوقت سنصبح خبراء اجتماعيين لأننا سنعيش حياة أرقى من حياة السواد الأعظم من الناس، ويجب أن نكون خبراء فى أسـباب الرقى الاجتماعى. إن لدينا خصائص مميزة تؤهلنا لجوانـب معينـة فـى الـدفع الاجتماعى، فبعضنا يعتقد بأن له مواهب خاصة، وكل واحد منا يظن أنـه يـصلح لأن يكون محورا للكون. لقد ناقشنا السؤال الخاص بإصلاح التعليم: "من أين يجب أن نبدأ لنصبح متخصصين فيما يتعلق بالمدرسة؟ كان لنا بعض التـصورات فيمـا يتعلق بالتأهيل، فهذا مثلا صبى لـه ذراعان قويان، فليتدرب على اقتلاع المسامير من لوح الخشب ليصبح متدربا ويسهل حصوله على عمل، ففى النظام الرأسمالى يصبح كل إنسان متخصصا فى عمله، ولذلك من الضرورى أن تتم رعايتـه مـن البداية لتصبح الموهبة عملا حرفيا.

(٢)

فلننصت إلى الوصف الذى يتعلق بالهدف النهائى للتعليم "الهـدف النهـائى للتعليم هو إنتاج فرد ذى أخلاق رفيعة". ولنأخذ ذلك على أنـه تعريـف الخبـراء المتخصصين. تتكون الشخصية الأخلاقية – كما أفترض – من الإحـساس الـسليم بالتناسب، المعرفة بالآثار النسبية لأفعال معينة أو لتأثيرات معينة، وبالرغبـة فـى استخدام تلك المعرفة للارتقاء بالفرد.

الرغبة يمكن الوصول إليها بسهولة، فنحن جميعا طموحـون فمـاذا عـن المعرفة، وعن الإحساس بالتناسب؟ كيف يمكنك الوصول إلى فكـرة عـن القـيم

المتناسبة ما لم يكن لديك معرفة عميقة أو على الأقل إدراك بالتأثيرات العظيمة التى تؤدى إلى الفعل. هنا يكمن الهدف النهائى من التعليم، وهو الوصول إلى اهتمامات متعددة الجوانب.

فلننظر إلى تقسيم هربرت للاهتمامات ونضيف إليها ما أهمله هو:

الاهتمامات تنبع من:

- المعرفة (فكرية)
  - ١- فعلية
  - ٢- تأملية
  - ٣- جمالية
- التعاطف (عاطفية)
  - ٤- اجتماعى
  - ٥- دينى
- الفعل

المعرفة الفعلية:

وهى الاهتمامات بالأشياء المفردة المحددة. فمثلا أنا أرى بجعة تسبح ناحيتى وتسترعى انتباهى. ألاحظ كيف تتباهى بنفسها أمامى، وكيف تلتقط الغذاء بمنقارها من تحت الماء وهى تقترب وألاحظ أن جناحيها منحنيان بعظمة.

المعرفة التأملية:

وهى الاهتمامات بالعلاقات العميقة ومسببات الأحداث. فمثلا حين ترفع البجعة جناحيها بغرض التباهى، فإن هذا يثير لدى الفضول والتساؤل، لماذا تفعل البجعة ذلك؟!

المعرفة الجمالية:

وهى الاهتمامات التى لا تنبع من الظواهر أو المسببات، وإنما بالاستحسان الذى يلقاه انسجامها وتواؤمها مع الغرض (البجعة رائعة الجمال – ضوء القمر على الزهور بديع – لماذا يؤثر ذلك فى نفسى بتلك الدرجة؟).

التعاطف الاجتماعى:

هو الإدراك المتنامى لاندماج الفرد بالمنظومة الاجتماعية الكبيرة بحيث تتعدى اهتماماته أحاسيسه الشخصية. فالفرد هو وحدة تعمل مع الآخرين من أجل الخير العام مثل الخلية فى الجسد الكامل.

التعاطف الدينى:

يكون عندما توجه ميولنا التعاطفية إلى التاريخ (هو الأصل)، وإلى مصير الإنسانية، وعندما تتعرف على المجال الواسع لقوانين الطبيعة ونكتشف شيئا يمكن إدراكه وغرضا متماسكا يشمل كل العالم الطبيعى والشعور الإنسانى. هنا تنشأ الاهتمامات الدينية، ويفقد الفرد – لوقت ما – إحساسه بذاته وبأهميته الذاتية، ويشعر برهبة ومخاوف الأبدية وأغراضها المجهولة غير المدركة. وتلك أعتبرها أكثر الأوضاع فائدة ونتيجة.

(٣)

ما الذى من المرجح أن نهمله من بين تلك الاهتمامات؟

إذا اعتبرنا أن الجوانب الجمالية هى محط اهتمامنا، حيث إننا قبلنا تفسير هربرت الواسع، فيجب أن تكون لنا نظرة متسعة للفن تتلاءم معه، حيث إن علم الجمال يتضمن كل الفنون، وحين نختبر التعريف: "الاستحسان الذى يلقاه انسجامها وتواؤمها مع الغرض" نجد أن هذا التعريف غامض وغير دقيق، وبالنظر بدقة إلى "استحسان الانسجام"، فهذه خبرة شخصية. نحن نسمع ونرى شيئا يبعث على السرور ونسميه انسجامًا، ونشعر بالسرور، وبالتالى عرفنا أن الاختبار النهائى للانسجام، أو الجمال أو أية تسمية أخرى هو إحساس شخصى، مما يضع الاهتمامات الجمالية فى المجموعة العاطفية. انظر مرة أخرى لجملة "استحسان ملاءمة الأشياء مع أغراضها". هنا يأتى الانسجام مرة أخرى ولكنه أكثر قابلية

للإدراك، وأكثر موضوعية فى فكرته. نحن نرى غرضا طيبا فى الإنجاز المؤكد، الذى لا يقاطعه شىء. هو شىء مشبع لنا ونكون مسرورين به، لماذا؟ لأننا – كما أعتقد – نكون واعين لغرض عظيم غير يقينى، ومما يعطينا راحة وسرورا أن نتعرف بإدراكنا على تلك القوة التى تعمل فى الأشياء التى هى بعيدة عن تحكمنا. ولكن هذا أمر جانبى.

(٤)

هناك مدرستان للتفكير الجمالى منذ أن بدأ مثل هذا التفكير، وله تعاريف مختلفة:

١- الفن: هو التعبير عن الفكرة الكاملة والمقدسة، وتلك هى الفكرة الصوفية التى اعتنقها هيجيل، والجمال هو إشراق الفكرة عبر المادة.

٢- أ) الفن نشاط: يوجد فى المملكة الحيوانية وينبع من الرغبة الجنسية والاستعداد لها (داروين، شيلر، سبنسر).

ب) الفن هو التعبير الخارجى بالخطوط أو الألوان أو الكلمات أو الأصوات أو الحركات عن العواطف التى يحسها الإنسان.

ج) الفن هو إنتاج شىء دائم أو فعل مستمر بغرض توصيل انطباع منفصل تماما عن الشخصية.

التفسيرات التى قبلناها تمتزج فيها الفكرة الصوفية بالفكرة الحسية للفن، فاستحسان الانسجام يعد أمرا حسيًّا بينما استحسان التلاؤم يعد صوفيا وبالطبع لا يعد أى منهما جامدًا. فلنطبق ذلك على البجعة.

١- استحسان الانسجام (أو الجمال): هناك البياض الحريرى والانحناءات الانسيابية لخطوط الجسم وتناسق الكتلة. لماذا تعجبنا هذه الأمور؟ لا أستطيع الإجابة!

ننتقل إلى استحسان التلاؤم: يمكننا القول إننا نحب البياض الناصع الحريرى والأجنحة المرفوعة فى خيلاء؛ لأنها تعبيرات عن الغرض العظيم الذى يقود البجعة لأن تعلو بنفسها لأقصى مدى ممكن لكى تجذب القرين الجنسى؛ فالبجعة تختار أفضل الذكور لكى يتكاثر النوع بأفضل المزايا الممكنة. ولكن هناك إحساسا (ربما لا شعورى) بانسجام فائق وتلاؤم مع الغرض عندما نشعر بالبناء الذى يشبه القارب لجسم البجعة، وبقوة تلك الأجنحة المنحنية وليونة الرقبة الطويلة التى رأيناها تنغمس تحت الماء بحثا عن الطعام. فلنقارن ذلك بالبط الغطاس، ولنفكر فى الألم الذى نحس به عند رؤيتنا لجسمه الضخم غير المتناسق وهو يقف على الشاطئ بأرجل سوداء قبيحة. لماذا هى قبيحة؟ لأن تركيبا كهذا لا يوفر له القدرة على السير بسهولة أو رشاقة، وبالتالى فهو غير متلائم مع ما يحيط به. الأرجل كريهة لأنها سوداء وتمثل تباينا صارخاً مع الجسم الأبيض وتبدو مبتلة، وما دلالة ذلك البلل؟ فكر أيضا فى زهور المساء تحت ضوء القمر وفى الظهيرة. الزهور والطيور والحشرات نشأت وتطورت معًا جنبا إلى جنب، فبعضها متناسق وجميل (الزهور) والبعض الآخر غير متناسق ويفتقر إلى الجمال (البطة).

هذا هو الجمال فى الطبيعة، فهل ينطبق ذلك على الإنتاج الإنسانى للفن؟ عادة ما يحدث ذلك. فكر فى أعمال إدجار ألان بو، إميل زولا أو دى موباسان، مكسيم جوركى، وغيرهم. هل تحس بالسرور من تلك الأعمال؟ هل تثير فيك إحساسًا بالسرور؟ هل تظهر غرضا مقدسا؟ ورغم ذلك فهى فنون. لماذا؟ قد يقول قائل "لأنها شديدة الصدق"، ولكنها ليست صادقة بالضرورة بالمدلول الحرفى للكلمة، حيث إنها ليست واقعية غير أنها نتاج لشعور إنسانى وخبرة إنسانية، كما لو كانت صادقة. هذه الأعمال تُعَبِّر قدر الإمكان عن الإحساس الحقيقى للفنان. شىء أكبر، إذن، يجب أن يضاف إلى فكرتنا عن الفن الذى يمكن تعريفه بأنه الوسط الذى من خلاله يعبر البشر عن أحاسيسهم العميقة والحقيقية.

(٥)

نحن ننقل أفكارنا وأحكامنا فيما بيننا بالكلمات العادية وبالخطـــاب العـــادى. ولكن عندما نُعَبِّر عن عاطفة صادقة، يكون ذلك من خلال الفن.

عندما قال كارلايل "إن البطل لا يستطيع التعبير عن نفسه إلا عبر الأغنية"، فقد كان يعنى أن العاطفة القوية تشكل خطاب البطل، بحيث يصبح خطابه فنًا. الفن هو الوسيلة الثانية العظيمة للتواصل بين إنسان وإنسان آخر، كما قال تولستوى، أما الفن الفكرى الذى لا يشتمل على عاطفة ويعتمد على الذكاء فحسب، فيكـــون أثـــره باردا وعقيما كما يظهر ذلك فى رسائل البابا وفكر الموســوعيين العظـــام. هـــذه الوسيلة لتواصل العاطفة لها ثلاثة أشكال:

(أ) وفقا للشكل واللون: (مثل كل فنون الرسم والنحت والنـــسج والبنـــاء). (ب) وفقا للصوت: (الموسيقى). (ج) ووفقا للأفكار: عبر الكلمات (بما فى ذلك كل أشكال الأدب بما فى ذلك الحكاية التى يحكيها صبى لأقرانه، والكلمات التصويرية والصوت المخيف والتمثيل المسرحى والإيماءات الحية (البانتومايم) تشكل كلها فن الرواية والقصة.

(٦)

جوهر الفن الإنسانى الصادق هو قدرته على نقل عواطف إنسان إلى رفاقـــه من البشر. هو صورة للتعاطف، والتعاطف هو بمفهوم معين انسجام وتآلف، وفـــى الانسجام والتآلف توجد الفكرة والغرض والموضوع. وهكذا نعود مرة أخرى إلـــى التعريفات القديمة ولكنك قد تقول إن هناك عواطف مرغوبة وأخرى غير مرغوبة، والفن بمقدوره تصوير العواطف غير المرغوبة ويكون بالتالى فنا رديئـــا. فوفقًـــا للإحساس الذى ينتجه قد يكون الفن رديئًا وضعيفًا أو جيدًا، ويتدرج مثـــل ألـــوان الطيف كما قال تولستوى "إن الفن العارى هو فن ردىء!".

وقد يقودنا هذا إلى القول بأن أى فرد يشعر بعمق وجدانه لا بد وأن يكـون فنانا، ولكن علينا أن نكون متحفظين لأن واحدًا فى الألف فقط قد يستطيع التعبيـر عن عواطفه، فأغلبنا لا يجيد التعبير حين يتحدث مع القليلين الذين يفهمون إشاراتنا المبهمة والمعانى الغامضة التى نعطيها للكلمات التى نستعملها. إن الجملة نفسها التى تنطقها عشرة أفواه لها عشرة معان مختلفة. قد يمكن أن نشعر بوقع الكلمات، ولكننا لا نستطيع أحيانا أن نصف بها مشاعرنا أو التعبير بها عن أنفسنا، فحين تشعر بالاضطرار للكتابة لشخص ما قد لا تستطيع وصف مشاعرك، وسيظهر ذلك على ما ستكتبه، وسيكون خطابك ضعيفا ومثيرا للسخرية. لماذا؟ لأنك لم تكتب الكلمات التى تستطيع بها التأثير على القارئ، فأنت لم تحسن استخدام الكلمة التصويرية، ولم تستعمل أسلوبا سريعًا، حيا وقويا، وبالتالى فخطابك ليس فنا لأنه لم يعبر عن مشاعرك بشكل مناسب.

هذا يقودنا إلى أسلوب الفن، الذى يبدو أنه قضية تتعلق بالإحساس أكثر من أى شىء آخر. إن أى أسلوب للتعجب الفنى مثل الرسم والأدب والنحت والموسيقى والتمثيل،.. إلخ، قد يجعلنا فى وضع يؤهلنا لنقده. نستطيع أن ننقد "روح" العمل الفنى ولكننا لا نستطيع فهم أو تقدير أسلوب التعبير فهذا يحتاج إلى دراسة. وكما قال هيوم "إن الانتصار الأساسى للفن هو فى ترقية المزاج وتهذيبه، وفى أنه يوضح لنا المهارات التى يجب أن نحاول اكتسابها لإعادة تشكيل العقل والوجدان بصورة مستمرة وبالاعتياد المتكرر".

(٧)

إذا ما روضنا عقولنا، ليس فقط على استحسان الأشياء الجميلة وإنما على رؤية الجوانب الجميلة من الأشياء فسنكتسب من ذلك تهذيبا للمزاج الذى به يستطيع المرء أن يشعر بالشىء الجميل، فنحن أحيانا شديدو التطرف، وتقودنا عواطفنا الفجة بعيدا ولا نشعر بجمال الأشياء، وينطبق ذلك على كل شىء. يجب أن ندرب أنفسنا على الإحساس بجمال الفن، ونهذب أنفسنا ونكون مهذبين كما قال

هيوم، وما التهذيب؟ إنه التعاطف الرقيق مع الجمال، وما دور الفن؟ هو أن يقودنا إلى التعاطف مع البشر والأشياء والظواهر ما أمكن ذلك.. أن نكون متعاطفين مع الأشياء هو إلى حد ما أن نكون خاضعين لتأثيرها ونساعد فى ذلك الغرض. نحن نريد ونحاول للأبد أن نتوحد مع الكون بكامله ونسعى بغرض نهائى معين، ونسمى مرحلة من هذا السعى بالتطور. إن الرغبة العارمة للبشر فى أن يصلوا إلى فهم بعضهم بعضا تعد هائلة، ويمكن ملاحظتها فى الروايات والقصص والكتابات التى نقرؤها، فالعاطفة فيها تمثل أفضل وسيلة لتحقيق ذلك.

فى الاشتراكية، يوجد جهد لأخذ ما هو عام فى الخاصية الإنسانية لبناء حالة اجتماعية تتناسب مع الفن وتبرز الشخصية الفردية. الجزء من طبيعة الإنسان الذى يعد عامًا فى البشر ككل هو مجرد جزء صغير من طبيعته، فلا شك أن الإنسان أكثر من ذلك بكثير، وأكثر رقيا ليفهم نوعية الخصائص المميزة التى تصنع الشخصية الإنسانية والتى تؤثر فى تقدم الإنسانية، فعلى الرغم من أن الفن عام فإنه أيضا يعد خاصا. الاشتراكية أمر عام، لكن هناك فى الشخصية الإنسانية ما يعد خاصا، فنحن يمكننا أن نحب بفردية ونتألم عند الفراق، وهناك بعض القصص التى لا يستطيع كل منا فهمها، والقليل منا يستطيع إدراك المثل العليا فيها والعاطفة النبيلة التى عبر عنها كاتبوها بكمال تام فى تلك الأعمال، وكلها خصائص فردية وليست عامة. إذن فعبر الفن نستطيع أن نعيش فرديتنا بأشكال عديدة، وهذه الفردية نستطيع التجول فيها بخصوصية، وهذه الخصوصية تمنحنا السعادة، أو تسبب لنا شعورا بالتعاسة والفراغ من المضمون. الفن إذن هو الذى يمنح الإنسان هذه الخصوصية، وبالتالى يجب أن نفصل بين الحالة العامة التى تتبناها الاشتراكية والفن الذى يمنح الفرد خصوصيته.

فى الختام، أود أن أقول إنه مهما كان موضوع الفن فيجب على كل فرد أن يدرس ويفكر فيه وإذا ما شعر بالرغبة فى أن يقول شيئا خاصا، فليقله.

ستكون فكرة جيدة أن يأخذ المرء كتابًا أو قصيدة لشاعر أو لوحة أو رواية أو مسرحية أو أى شكل من الفنون والتعبير عن رأيه وحالته الوجدانية ومدى تأثرها بالفن الموجود فيها.



الإنســـان ..
ذاتية أم كينونة...

(١)

فى أعمال دانا وهيرمان ملفيل لم تعد العلاقة الإنسانية هى محط الاهتمام بل يدخل البحر كطرف رئيسى.

البحر عنصر كونى، والعلاقة بين البحر والنفس الإنسانية علاقة أولية غير شخصية. نحتاج للتنازل عن شخصيتنا وعن فرديتنا حين ندخل إلى مجال الأوليات.

بالتأكيد يوجد تعاطف معقد وعلاقة تقابل بين بلازما الجسم الإنسانى – والتى تمثل الطبيعة الإنسانية الأولية – والعناصر المادية خارجها. النفس الإنسانية الأولية هى بلازما معقدة، تتأثر وتدرك وتحس بما يحيط بها وبالأكوان التى حولها. إن طبيعتنا البلازمية نشطة إشعاعيا، وترتبط مع كل الأشياء ولديها المعرفة الغريزية الأولى بكل الأشياء.

النظم الدينية للعالم الوثنى فعلت ما لم تحاول المسيحية أن تفعله مطلقا، لقد أسست التقابل الحقيقى بين الأكوان المادية والروح الإنسانية. النظريات الكونية القديمة كانت دقيقة وكاملة، ففيها توافق العلم مع الدين.

حين نحاول البداية، فإننا يجب أن نحدد نقطة لبداية تفكيرنا، وفى الحقيقة لم تكن هناك بداية ولن تكون هناك نهاية للكون. إن الحياة فى الكون هى الحياة نفسها، وكان الكون دائما موجودا وسيظل موجودا دائما ويفصح عن نفسه فى المخلوقات الحية.

عندما نستخدم اللغة البدائية، نعيد ونكرر أنه فى البدء كانت الحقيقة الخالقة حية ومادية وملموسة رغم كونها غامضة ومجهولة. الكون الحى انقسم فكانت السماء والأرض، لا نعنى بذلك تلك السماء وهذه الأرض؛ فالأرض كانت لا تزال

فارغة ومظلمة، وإنما كانت هناك ثنائية أولية غير مفهومة، ففى الكون الأول تحركت "روح الله" لتنتشر فى الكون الحى أول سماء وأول أرض، كدلالتين على الثنائية الأولية غير المفهومة. ثم تحركت روح الله على وجه الماء، وحيث لم يكن الماء قد خلق بعد، فقد نأخذ "الأرض" على أنها الماء. كانت الأرض هى الماء الكونى والسماء هى النار الكونية، وروح الله فى تحركها بين الأساسين الكونيين العظيمين، الماء الكونى والنار الكونية غير المرئية، خلق المظهر الأول وهو النور، ومن النار الأولية ولد النور بواسطة الخالق.

(٢)

بالتأكيد هذا صادق علميا فيما يتعلق بمولد النور. بعد ذلك، انقسمت المياه بواسطة الغلاف الجوى. إذا تصورنا أن الانقسام الأول العشوائى كان عموديا فالانقسام غير المفهوم إلى الثنائية الأولى ثم هذا الانقسام التالى عندما يرسم خط الغلاف الجوى، يمكن اعتباره أنه كان أفقيا.

كان الكون عند نهاية اليوم الثانى للخلق يشبه الصليب، فقد كان الانقسام إلى أربعة أجزاء، والسماء الغامضة والنار الكونية المظلمة لم يكن بشأنهما حديث، ولكن الماء انقسم إلى جزأين فى المرتفعات الشاهقة وفى الأعماق السحيقة للنصف الآخر. كانت الأرض لم تتشكل بعد وكان الماء فى الارتفاعات الشاهقة ينقبض وينبسط – كما قال الفلاسفة اليونانيون – من موئل لموئل آخر.

فى مركز هذا الانقسام الرباعى كانت توجد الحقيقة الخالقة نفسها كجسد طائر رباعى الأجنحة بجناحين عظيمين متضادين للماء، وجناحين متضادين للنار، وبدأت حركة الكون وبدأت الأكوان فى الدوران. لقد بدأت الحركة الخالدة.

لقد ولدت الشمس وولد الفضاء الآن. الماء والنار المظلمة اللذان جمعا معًا فى نفخة الحياة تلاقيا فى مركز واحد فى الشمس، تلك النار وذلك الماء هما اللذان شكلا الفضاء.

(٣)

هناك إذن انقسام رباعى فى الكون وترحال رباعى. لدينا الماء تحت جو السماء والماء فى جو السماء ولدينا النار على اليسار من جو السماء ونار على اليمين منه، وكل منهم يرتحل خلفا وأماما عبر جو السماء. هذا يعنى – علميًا – أن الماء غير المرئى يتحرك تجاه الشمس، والنار تتحرك فى موجات إلى الشمس ونار أخرى جديدة تخرج من الشمس إلى الفضاء. الشمس إذن هى مركز السر الأعظم حيث النار غير المرئية والماء غير المرئى يتحركان معًا ويتلازمان بعظمة القوة الخالقة للفضاء ليتصارعا ثم يتلاشيا فى فيض النور.

من الناحية الأخرى الليل، فنحن نراه فضاءً لانهائيا. ذلك الفضاء اللانهائى عبارة عن حركة للعناصر الأولية التى لا ندركها فى الظلمة الحية.

وبذلك أصبح علم الكون الذى كان دائما كاملا من الناحية النظرية، كاملا تماما بالفعل بمساعدة معرفتنا العلمية. الانقسام الرباعى العظيم الذى أثار روح الإنسان منذ أزمان سحيقة، ومن عهود موغلة فى القدم أصبح حقيقيا وفق عقلنا وغريزتنا.

علم الكون يتعامل فقط مع خلق الكون المادى ووفقا للفكرة العلمية فإن الحياة نفسها ما هى إلا نتاج تفاعلات حدثت فى الكون المادى، لكن هذا ربما يكون خطأً.

(٤)

عندما نردد أنه فى أول يوم للخلق، خلق الله السماء والأرض، لا نعنى بذلك أن الله قد اختفى بين الاثنين بعد خلقهما، ولكن هذا هو الاتجاه العلمى الحديث، حيث يفترض العلم أنه عندما كانت القوى الأولى موجودة، والحركة الأولى قد بدأت، أنتج الكون نفسه أوتوماتيكيا وقذف بالحياة كناتج عرضى عند مرحلة معينة من مراحل الخلق، وتلك الفكرة هى التى أدت إلى مادية الحياة وفراغها.

عندما خلق الله السماء والأرض؛ أى فى البداية عندما انقسم الكون الحى بذاته، لم يختف الله. لو أننا تصورنا الله فى تلك اللحظة، لا بد وأن نتصور بلازما حية متجانسة ونادرة. أثير حى مُدرك لذاته قد ملأ الكون، وهذا الأثير الحى انقسم بنفسه كما تنقسم البويضة. هناك إذن ثنائية غامضة، فالحياة تنقسم بنفسها، وعلى الرغم من ذلك فالحياة غير منقسمة، فعندما تنقسم الحياة بنفسها لا يوجد انقسام وإنما تنقسم لتوجد حالة حية جديدة، كينونة جديدة تظهر، كما هو الحال عندما تنقسم بويضة. لا انشقاق فى الحياة، وإنما خلق لمرحلة جديدة حية. هذا هو التوحد الخالد.. وتلك هى عظمة الحياة.. إنها تتحرك باستمرار خالد، وكل مرحلة من مراحلها تكون كاملة متماسكة ووحدة واحدة، وبينما تتحرك الحياة فى وحدتها الخلاقة، تنقسم مادتها وتعاود الانقسام إلى وحدات متكررة، فعندما تنقسم البويضة ينتج عن هذا الانقسام مرحلة جديدة من الخلق ووحدة جديدة من الكائن الحى، ويصاحب ذلك تشكيل جديد فى المادة الأولية، ومن الحياة الجديدة تنتج حركة جديدة، وتتفاعل المادة الأولية ويتم الوصول إلى مرحلة ثالثة من الخلق وهكذا إلى أن وصلت إلى الحياة الآن، أى إلى مرحلة ثالثة من الكينونة وإلى توحد خلقى ثالث يظهر فى الكون، وفى الوقت نفسه، تعاود المادة الأولية الانقسام لتنتج من مادتها خلقًا جديدًا فى العالم المادى.

(٥)

وهكذا يستمر الخلق، يصبح الكل مع الكل، نصف الكون يصبح مع النصف الآخر بنتيجة ثنائية. فى البداية تنتج الوحدة الجديدة توحدًا جديدًا أى الحالة الحية الجديدة والكينونة الجديدة والفرد الجديد، ثم بعد ذلك يولد توحد جديد ويحدث الخلق الجديد وهكذا ..

إذن فكل شىء جديد يولد من اندماج نصفى الكون، وهما الماء الكونى والنار الكونية، وتعد لاقحة الذكر ولاقحة الأنثى هما القاعدتان الأساسيتان الكونيتان لأن منهما كانت نفخة الحياة. لا يمكن إنتاج الحياة أو صنعها، فالحياة وحدة واحدة

لا تقبل التقسيم. إن سر الخلق هو ظهور كائن جديد غير منقسم يكون دائما حلقة فى سلسلة الحياة المتصلة واللانهائية.

من المعتاد فى النظريات المختلفة لخلق العالم، أن يتعامل العلم مع الحياة كناتج لمادة الكون، بينما يتعامل الدين مع مادة الكون على أنها مخلوقة وفقا لإرادة ما، أى بتجريد مطلق. بالتأكيد فقد نشأ الكون من بلازما كونية حية مدركة لذاتها، ليس لها أصل ولا لها نهاية، إنما هى حياة خالدة ومتماثلة تأتى بالمخلوقات اللانهائية للوجود، مخلوقات حية تحتوى على المادة الأولية. ليس هناك وجود لامادى صرف، بلا روح، لكن التمييز يكون بين البلازما الحية والمادة الأولية، فالمادة الأولية تنطلق من الجسد الميت للمخلوقات، وهى البقايا الساكنة للبلازما الحية مثل ريش الطيور.

عندما انقسم الكون فى اليوم الأول للخلق أصبحت البلازما الحية مكونة من شقين يدعمان حالة جديدة من الانفراد أى كينونة جديدة، وفى الوقت نفسه فإن البلازما الحية ثنائية الشقين اشتملت على الثنائية المحدودة للعناصر غير المادية للكون. ففى تحول البلازما – فى مرحلة الموت – تتحرر العناصر غير الحية وتتحول إلى وجود مستقل، أى أن الكون المادى غير الحى يولد عبر الموت من الكون الحى ويتعايشان معًا.

نعرف أن البلازما الحية هى فى جوهرها ذات شقين، وبالطريقة نفسها فإن العناصر الديناميكية للوجود المادى ثنائية وهى النار والماء. هذان العنصران الكونيان متضادان، ومن تضادهما تم تشييد الكون المادى، ومن انجذابهما لكونهما متضادين يدور الكون ويشكل القلب الملتهب للشمس. فالشمس قد تشكلت من اصطدام الماء الكونى بالنار الكونية بقوة التضافر، و بالطريقة نفسها تشكلت العوالم الأدنى عندما تلاحمت العناصر الكونية فى حركتها الدورانية تجاه الالتحام المركزى العظيم. قلب الكواكب والنجوم هو لهيب من العنصرين عندما التحما فى كمال تام. ومن الالتحام الكامل للعنصرين ولدت كل المواد المادية.

(٦)

يحدث ذلك الآن بطريقة ميكانيكية وفقا لقوانين ثابتة. بلازما الحياة وحالة القدرة على الحياة لا تزال مركزية، وتدفع بتلقائية إلى الوجود. البلازما الخالقة ليس لها قوانين، ولكنها ما إن تأخذ شكلا وكينونة فإنها تحافظ على علاقة التزام بالقانون المتعلق بالنصف الآخر منها، أى بالعالم المادى الأولى. إن أول وأعظم قانون للخلق هو أن كل الخلق وحتى الحياة نفسها توجد فى التوازن الغريب لهذين العنصرين. فى الكائن الحى، لا بد وأن يتوازن عنصرا النار والماء ويتكاملا فى عملية مستمرة غامضة.

لذا يجب أن نبحث عن الحياة فى منتصف المسافة بين النار والماء. فأينما كانت النار أنقى فإن هذه علامة على أن الحياة قد سحبت نفسها وامتنعت. الشىء نفسه نجده مع الماء. فالماء النقى – ولا نعنى ماء المطر أو شلالات الينابيع، ولكن أنقى صور الماء – هو الماء المستخلص من النار، كما أن النار فى أنقى صورها لا بد وأن تستخلص من الماء. وبالتالى، يصبح الماء أكثر ضرورة عندما نتقدم عبر البلورات النقية من الجليد والثلج إلى العنصر غير المرئى الذى بيننا وبين الشمس، الماء غير المفهوم الذى لا نعرف عنه شيئا؛ لأنه حيث يكون لا تكون هناك حياة. هذا هو العنصر الكونى الحقيقى. ماؤنا كما هى نارنا لا يزالان خليطا من الماء والنار.

قد يقال إن الماء قد ثبت أنه مركب كيماوى مكون من غازين هما الهيدروجين والأكسجين، ولكن أليس من الأصوب القول بأن الهيدروجين والأكسجين هما أول ناتجين مجردين من العناصر الأبوية أى الماء والنار.

فى كل محاولاتنا لتحليل الماء، كل ما نفعله هو توصيل النار بالماء، بصورة أو بأخرى، وعند ملامسة النار المجردة الماء المجرد ينتج الهيدروجين والأكسجين تحت الظروف المناسبة. الهيدروجين والأكسجين هما الناتجان الأوليان للنار والماء. هذا هو الهواء الكيميائى، ولكن من اتحاد النار والماء فى البلازما

الحية التى تنتج المادة الأولى للجسم الحى، والتى فى صورتها الميتة هـــى الأرض الكيماوية.

(٧)

على ذلك فإنه بنهاية اليوم الثانى للخلق، يكون قد خرجت العناصر الكيماوية الأربعة للأرض وهى الهواء والنار والماء إلى الوجود. الهواء والأرض يولدان من اتحاد النار والماء فى البلازما الخالقة، والهواء ناتج نهـــائى. أمـــا الأرض فهـــى العنصر الباقى الذى لا يمكن حسابه من البلازما الحية. كل المواد الأخرى تنتج من الاتحاد الميكانيكى للنار والماء فى جوف الأرض، ومما لا شك فيه أن النار والماء اللذين يعملان على الأرض أو فى البلازما الميتة التى تنتج فى نهاية كـــل مرحلـــة حية، هما اللذان أخرجا العالم المادى إلى الوجود بما فيه من صخور ومعادن.

مولد العناصر الكيماوية من جوف الأرض عند اتحاد الماء والنار يعد أمـــرًا سحريا لا يمكن حسابه، تماما كمولد الإنسان. فمن اتحاد المواد تنتج مـــواد أعظـــم وأكثر تحملا مثل الذهب والبلاتين، أو عناصر غير ثابتة مثل الكبريت والفوسفور، فالفوسفور مجرد مظهر للماء، والكبريت شعلة خامدة. فى الفوسفور يكـــون الـــشق المائى ضعيف الاتحاد بحيث إنه ينكسر بمجرد اللمس، بينما ينتظر الكبريت رحيله إلى النار. الجمع بين هذين العنصرين غير الثابتين معا سيؤدى بهما إلـــى التحـــول إلى دخان مائى، وسكان زوروبا فى غرب أفريقيا وفقا لبقايا ثقافتهم الوثنية يطلقون على الكبريت "بقايا الرعد"، والرعد هو النار التى هى نتاج الاتحـــاد بـــين المـــاء العلوى والنار غير المرئية. يأخذ العنصران الكونيان اتجاهين عندما يتحركان معًـــا بالانجذاب الغامض فى وسط ما أو فى باطن الأرض، أو بذرة البلازما الحية، فهما يتحدان وتنتج من ذلك الخليقة أو مادة جديدة أو شكل جديد للحياة. ولكن هناك أيضا الحركة الطاردة المركزية العظيمة عندما يندفعان إلى الفضاء وإلى الفراغ الكونى.

(٨)

النشاط رباعي الأوجه هو النشاط الأصلي للكون. في البداية تكون هناك الثنائية الغامضة الخالصة، وهي التي لا يعترف بها العلم وتسميها المسيحية "العقيدة الضالة للقاعدتين". وتلك الثنائية توجد في كل شيء، حتى في الروح أو النفس وفي كينونة أي مخلوق حي. النفس والروح مفردتان متميزتان وغير منقسمتين وهما جوهر الجواهر وإنجاز الكون. على الرغم من ذلك ففي داخل النفس المفردة يكمن أساس الثنائية . وتبعا لهذه القاعدة تأتي الثنائية العلمية للقطبية. بالتالي نجد في الخليقة اتحاد عنصري الحياة داخل البلازما الحية، اتحاد ناعم ورقيق، كقبلة الملائكة لشعاع النور، وتنشأ بذلك حياة جديدة وكائن جديد ثم يأتي وقت يفترق فيه عنصرا الحياة بعد أن يكون الكائن قد اكتمل بذاته، وتحدث عملية التحلل للحياة فتختفي الصورة الفردية للكائن، ولكن تبقى من الكائن البلازما الحية. وبالتوازي مع ذلك – في الكون المادي – يوجد الاتحاد المستمر للنار والماء في الشمس والنور وقوس قزح وعناصر المادة. ويكون هناك النشاط البطيء في التحلل عندما تتجه المواد مرة أخرى إلى التحول إلى حالة الأثير الأولي.

الخليقة كلها إذن تعتمد على النشاط رباعي الأوجه. وفي داخل هذه الأوجه الأربعة يكمن القانون ويتضح الفهم. ووفقا لإدراك هذه الحقائق العلوية، صنع الفيثاغورثيون فلسفتهم وأكدوا أن الفرد عدد وأن الكل عدد كذلك، وحاولوا البحث عن حقيقة جذور الأعداد، الثلاثة، والأربعة، والخمسة، والسبعة، وهي أعداد ثابتة في الكون بأكمله، ولكن علم الرياضيات لا يزال ينتظر إنجاز ذلك في صورة اتحادها مع الحياة نفسها. إن حقائق الرياضيات ما هي إلا الهيكل الخارجي للكون الحالي.

(٩)

لا تزال الأعداد حية بالنسبة لنا، ولكن بطريقة رمزية. ففي الدين نحن لا نزال نقبل الخصائص الأربع للإنجيل، وبالأناجيل الأربعة للعهد الجديد برموزها

عن الإنسان والنسور والأسد والثور، وهى رموز موازية للعناصر الأربعة وللأنشطة الأربعة وللخصائص الأربع، وكل ذلك يتفق مع ذلك التقسيم رباعى الأوجه.

قال القدماء إن رموزهم الكونية لها مرجعية سباعية أو خماسية الأوجه. أبسط رمز وهو الدائرة المنقسمة إلى نصفين والتى تمثل – ليس فقط أول انقسام فى الكون الحى أو العنصرين الكونيين، ولكن أيضا فى مجالات الحياة المخلوقة – سر الجنس ثم سر النفس الثنائية الحسية والروحية فى الكائن المفرد، ثم الثنائية فى التفكير والإحساس.

انقسام الجنس هو أحد الأسرار الصينية الثلاثة المقدسة، وهو أحد الأسرار الأولى للخلق ويتوازى مع سر الانقسام الأول للعنصرين الكونيين. هذا لا يعنى أن أحد الجنسين يماثل النار والآخر يماثل الماء على الرغم من أن هناك تشابها غير محدد بينهما، فأفروديت ولدت من الماء وأبولو هو الإله (الشمس)، مما يعطى بعض الدلالات عن التمييز الجنسى. من الواضح أن بعض السلالات تتشابه فى ذلك، بما فى ذلك الرجال والنساء، فبعض السلالات مشتقة من الشمس ويغلب المكون النارى على تركيبهم، بينما البعض الآخر أشقر الشعر وأزرق العينين مثل الشماليين، من الواضح أن هذه السلالة مشتقة من الماء وولدت مع بللورات الثلج والأعماق الباردة الزرقاء وضوء الشمس الأصفر المنعكس من الثلج. إذا تصورنا أفضل دلالة عن الماء الخالد فإننا نفكر فى المرأة، بينما الرجل فهو دلالة كاملة عن النار.

(١٠)

تلاحم الجنسين معًا قد يكون هو الاتحاد الرقيق والناعم للخليقة أو قد يكون الاتحاد العظيم للتضاد، كما تتصارع النار مع الماء فى الشمس. ومن أى من هذين الاتحادين يحدث النسل ولكن فى الحالة الأولى يكون مولد الروح عندما تتحد

القاعدتان فى اتحاد رفيق بحيث تكون الروح متناغمة ومتوحدة مع نفسها، أما فى الحالة الثانية فيكون مولد روح متحللة حيث تتصارع القاعدتان فى تضاد خالد فى الكون كوحدة للانشطار. يحدث الطراز الأول من النسل فى بدايات فترة زمنية ما، بينما الطراز الثانى يحدث فى أوقات التحلل والتدهور أى فى نهاية فترة ما. ولكن طوال الوقت تولد كائنات بكلا الطريقتين وتتشكل الحياة من الثنائية.

قلنا إن الحياة تعتمد على الثنائية، وهذه الثنائية تؤكد نفسها داخل النفس الخاصة بالفرد؛ ففى الفرد يحدث النشاط رباعى الأوجه. ينقسم الإنسان وفقا للتعبير الشائع القديم إلى الإنسان الأعلى والإنسان الأدنى، أى إلى الكائن الروحى والكائن الحسى. هذا الانقسام يعد ماديا وفعليا. الشق الأعلى من الجسم والذى فيه الصدر والعنق والوجه هو الجسم الروحى والشق الأسفل هو الحسى.

ونعنى بالكائن الروحى هو الحالة من الوجود التى تتحد فيها الذات مع الكون ومع كل الأشياء بالاندماج الروحى مع الأشياء الحية، وهذا الاندماج العظيم هو الذى يشع على الزهور والأشجار والسماء، بحيث أصبح أنا شجرة وزهرة، أنا الذى هو نفسى. حيث إنه من خلال الحركة تجاه الأبدية أشعر بأن حياتى تتوحد مع كل الأشياء.

بالنسبة للكائن الحسى، أعنى الحالة التى تكون فيها الذات هى المركز العظيم الذى تنفخ فيه الحياة وتتقلب هى حالة إيجابية مركزية عظيمة، حيث ينام الكائن على قوة حقيقته الذاتية كما تنام العجلة فى سرعة دورانها عكس محورها. إنها حالة تم تصويرها بدقة فى التماثيل الضخمة للفراعنة فى مصر. إنها تعبر بصدق عن الذات الشامخة الثابتة التى لا يمكن تجاوزها.

(١١)

من خلال بوابات الأعين والأنف والفم والأذنين، وعبر أنامل الأصابع وعبر النوافذ العظيمة للصدر، نمر إلى توحدنا مع الكون. ولكن فى الجزء الأسفل من الجسم يوجد الظلام. فى البطن ينساب الكون إلى الدم ويدور الدم ليمتصه إلى ذاته.

هنا عالم الماء الحى، الذى تحوله النار إلى خلق مائى، ففى السرة تنبت زهرة اللوتس المائية، وهى روح الماء التى أنتجتها جذوة النار. زهرة اللوتس هى رمز كينونتنا الحسية الأولى والتى تتفتح من الماء.

عند الأقدام نحن نهتز كاللوتس الذى تمتد جذوره فى طين الأرض، وعند الركبة والفخذين نترنح فى حركة تشبه حركة سيقان اللوتس التى تستجيب لاهتزاز الماء، وفى الجزء الأسفل من الجسم يتركز إدراكنا فى الدم بصورة رئيسية.

نحن نؤكد أن الدم له إدراك تام خاص به، إدراك للحركة المتدفقة لأسفل، للإيجابية الذاتية القوية. فى الدم توجد أقوى إدراكاتنا. لقد قال القدماء إن القلب هو مركز الحياة وأنه مركز الإحساس الأوّلى. إنه مركز إدراك الذات.

(١٢)

بالأعصاب نتحرك ونلتحم بالكون. وهذا أيضا أمر ثنائى، فيبدو أنه من المراكز السمبثاوية للصدر يتدفق فيض رقيق من الذات تجاه الكون، وبواسطته نتحد بالكون، ونصل إلى امتداد وجودنا، حيث إنه فى الضفيرة الشمسية العظمى للبطن توجد القوة الفطرية التى تدفع بالعالم إلى الذات، ومن هذه المركزية الذاتية المطلقة تولد زهرة اللوتس فى السرة، وفقا للرمزية الشرقية.

ولكن بجانب المراكز العظمى للصدر والبطن، توجد ثنائية أعمق وأعلى. توجد ضفائر الوجه العجيبة حيث يتدفق وجودنا إلى الفضاء ليجد إدراكه الواسع، وكذلك توجد الضفائر الحية العظيمة بالخاصرة حيث ينادى الأعمق على الأعمق. إذن فطوال الوقت هناك اتزان عظيم لا يمكن إدراكه بين المراكز العليا والسفلى، مثلما تصاحب قبلة الفم احتضان الخاصرتين. بالوجه نعيش حياتنا السعيدة بالرؤية والإدراك، ونتحول بسرور إلى كينونتنا الأعظم، عندما نصبح متوحدين مع كل الأشياء. الوجه والصدر ينتميان للسماوات وإلى اللانهائية المضيئة، وفى الخاصرة يوجد جذرنا الذى لا ينكسر، جذر اللوتس، حيث نملك ذواتنا وتتأكد كينونتنا.

عندما يوجد توازن فى الكينونة الأولى بين الصدر والبطن، بين الخاصرة والوجه، يتأكد هنا فقط ذلك الإدراك رباعى الأوجه داخل الجسد، وعندها فقط نصل إلى الإدراك الكامل للعقل، فالعقل هو المخلوق الوحيد الذى يصل بفكره وتصوراته إلى الكمال، فبعد اكتمال العناصر الكيماوية الأخرى فى صورتها النهائية يأتى العقل بذهبه وجواهره وراء الثنائية.

فى الجسد، كما فى كل الأشكال المخلوقة، توجد الثنائية القطبية، والنشاط العصبى السمبثاوى العظيم للجهاز الإنسانى له قطبه المضاد فى الجهاز الإرادى. الجزء الأمامى من الجسم منفتح ومستقبل ويشكل الصمام الأعظم للكينونة. ولكن الجزء الخلفى مغلق. ومن العقد العصبية للعمود الفقرى تعمل الإرادة متجهة إلى الخارج بحتمية مباشرة.

الضفائر العظمى للصدر والوجه لها دور فى حركة التوحد ومنها تنطلق الروح إلى التوحد مع الكون. يقابل ذلك أن العقد العصبية الصدرية والعقد العنقية هى المراكز العظمى للتحكم الروحى، أى للنشاط السلبى للذات الروحية. فمن هذه العقد تندفع الحركة وتجبر الكون الخارجى على أن يصبح فى حالة توافق وانسجام مع إرادة التوحد الروحى، وهنا تجبر الفضائل الاجتماعية على الظهور، فمن العقد العصبية للشق الأعلى من الجسم يحدث الإجبار للفضائل مثل الحق والخير والجمال والكرم والصدق وجميع الفضائل الأخرى على الظهور.

بالطريقة نفسها ، من العقد العصبية بالخاصرة والعقد القطنية تنجم الإرادة الحسية العظمى باستقلال، ومن تلك المراكز تتجه الروح للأمام باحثة عن السيادة. تلك هى المراكز العظمى للنشاط فى الجنود والمقاتلين، وأيضا فى النمر والقط تكون مراكز القوة عند قاعدة العمود الفقرى بالعقد القطنية.

كل الإحساس العظيم بالقوة والتحكم يكمن فى تلك المراكز الخاصة بالإرادة الحرة، حيث الظهر المشيد والقوى يقف فى مواجهة الحياة. تلك هى مراكز القطبية السلبية لكينونتنا الأولى.

انقسام الجسم نفسيا هو الآخر رباعى. إذا كنا منقسمين أفقيا عنـــد الحجـــاب الحاجز فإننا منقسمون عموديا أيضا. الانقسام يؤدى إلى قطبيتنـــا، أى إلـــى "مـــع" و"ضد" وإلى سر "يمينا" أو "شمالاً".

أى إنسان كامل وتام يحيا بنشاط رباعى الأوجه، فهو يعرف الاتحاد الروحى البديع ويعرف رقة الاتحاد الحسى.





السيـرة الذاتية

(١)

دافيد هربرت لورنس، ولد فى ١١ سبتمبر عام ١٨٨٥ فى إيستوود، نوتنجهام، وهى مدينة صغيرة فى منطقة المناجم بالميد لاندز. كان أبوه عاملا بمنجم الفحم ويعرف بالكاد القراءة والكتابة بينما كانت والدته من الطبقة البرجوازية وتمثل العنصر المثقف فى الأسرة، ويعد الجزء الأول من روايته "أبناء وعشاق" سيرة ذاتية له.

كان الابن الرابع من بين خمسة أبناء، أخوان أكبر منه ثم أخت ثم دافيد هربرت ثم أخت أخرى. كان رقيق الصحة دائما ولكن قوى البنيان. انتظم فى المدرسة الابتدائية وكان مثله مثل كل أبناء عمال المناجم، ولكنه عندما كان فى الثانية عشرة فاز بمنحة دراسية بالمدرسة العليا بنوتنجهام والتى تعد أفضل مدرسة فى إنجلترا، وهى مدرسة برجوازية صرفة، وكان شديد السعادة بها، ولكن كان التلاميذ الحاصلون على منح يمثلون طبقة معزولة بها. صادق دافيد اثنين من الزملاء البرجوازيين، لكنهما كانا غريبى الأطوار، وكان هو ينفر من البرجوازيين، وانتهت هذه الصداقات بمغادرته المدرسة نهائيًا وهو فى السادسة عشرة. أصيب بوعكة صحية شديدة، وبعد أن استرد صحته تعرف على ميريام وأسرتها الذين كانوا يعيشون بمزرعة، وهى التى رفعت من مستواه الثقافى والفكرى ووضعته على أول الطريق. مارس التدريس بمدرسة ابتدائية متواضعة كانت لأبناء عمال المناجم حيث كان الأجر خمسة جنيهات فى السنة بالعام الأول، وترتفع إلى عشرة جنيهات فى السنة فى العام الثانى وإلى خمسة عشرة فى السنة فى العام الثالث، واستمر يعمل بها حتى بلغ الحادية والعشرين من عمره، بعد ذلك قضى العامين التاليين فى جامعة نوتنجهام، حيث كان سعيدا فى البداية ثم أحس بالملل الشديد. كان الملل هذه المرة من الطبقة المتوسطة، فكان ينفر منها بدلا من

التقرب إليها، ومحاولة الارتقاء بها. قرر بعد ذلـك أن يـدرس مقـررات درجـة الليسانس فى الآداب، ولكنه لم يكملها. وكان يكتب الـشعر وأجـزاء مـن قـصة "الطاووس الأبيض" خلال المحاضرات. وكان فى هذه الفترة يكتب إلى ميريام التى ساعدته، وكانت قد أصبحت مدرسة هى الأخرى، وكانت ميريام تعتبر ذلك شـيئًا رائعًا بالنسبة لها.

(٢)

نشأ دافيد فى أسرة "طبيعية" تماما، لكنها كانت تعد الكتابة عملاً غير مُجـدٍ، فبدأ يكتب بطريقة سرية وهو فى البيت. وذات يوم قرأت أمه فصلا مـن روايـة "الطاووس الأبيض" فتعجبت وقالت له "ولكن يا ولدى، كيـف تعـرف أن الأمـور كانت تسير على هذا النحو؟ إنك لا تستطيع معرفة ذلك". كانت تعتقـد أن المـرء يجب أن يعرف ما يكتب، وكانت تأمل أن ابنها الذى كان ذكيا ونابها سوف يصبح فى يوم ما أستاذا أو رجل دين وربما رئيسا للوزراء. كان هذا يعـد فـى نظرهـا ارتقاء له وللأسرة، وكانت ترى طفرات العبقرية كلامًا فارغًا، فعليـك أن تكـون نابها وترتقى فى الدنيا خطوة بخطوة.

نفر دافيد من الدنيا وكره سلمها الاجتماعى ورفض أن يرتقيه. كـان لديـه خالات لديهن مكتبات وغرف استقبال فى بيوتهن، ولكنه لم يحب ذلك وفضل عليه الحياة القوية فى مطبخ عامل بالمنجم وأصوات الأحذية ذات المسامير المعدنية فـى المطبخ الصغير بمزرعة ميريام. كانت ميريام أشد فقرا منه ولكنها كانـت تحـب الشعر والأدب وجامحة الخيال، وكان دافيد يكتب لها دون أن تكون لديه رغبة فـى أن يصبح من رجال الأدب، حيث كان ينظر إلى نفسه كمدرس فقط وإن كان يكره التدريس بالمدارس. كتب قصة "الطاووس الأبيض" على مراحل بين عمر التاسـعة عشرة والرابعة والعشرين ومعظم أجزائها أعيدت كتابتها ست أو سبع مرات.

(٣)

عند عمر الثالثة والعشرين، ترك جامعة نوتنجهام وذهب لأول مرة إلى لندن ليصبح مدرسا فى مدرسة للبنين فى كرويدون براتب قدره تسعون جنيها فى السنة، ثم بدأ يشعر بعدم الرضا بصورة حادة مع ميريام التى قرأت كل ما كتبه، وهى الوحيدة التى فعلت ذلك. لم يحدث أمه التى أحبها أكثر من أى شيء فى الوجود عن كتاباته أبدا حيث كان يعتبر ذلك "تباهيا" لا داعى له.

كانت ميريام هى التى أرسلت بأشعاره إلى فورد مادوكس هيوفير الذى كان يرأس مجلة أدبية شهيرة، وكان عمر دافيد وقتها الرابعة والعشرين. قبل هيوفير الأشعار وكتب إلى دافيد يفيده بذلك، فكتب إليه دافيد برقة شديدة وأريحية بالغة جعلته يقبل النسخة المكتوبة من "الطاووس الأبيض"، وأن يدعو دافيد إلى الغداء ويقدمه إلى شريكه إدوارد جارنيت الذى أصبح صديقا كريما وأصيلا له. كان هيوفير وجارنيت هما اللذان دفعا بدافيد إلى عالم الأدب. عمل جارنيت على قبول ديك وورث وقام بنشر أول كتبه الشعرية "قصائد عن الحب".

عندما وصل دافيد إلى الخامسة والعشرين ظهرت رواية "الطاووس الأبيض"، ولكن قبل يوم نشرها توفيت والدته التى رأت النسخة الأولى لمرة واحدة وأمسكتها بيديها، وموت الأم كان له وقع الصدمة عليه وكان بمثابة التحطم العظيم ونهاية لشبابه. عاد بعدها إلى كرويدون وإلى التدريس الذى يكرهه حيث كان قد أنفق الخمسين جنيها التى حصل عليها من الناشر مقابل رواية "الطاووس الأبيض" فى سداد أتعاب الطبيب الذى كان يعالج أمه قبل وفاتها.

مرت عليه بعد ذلك سنة مليئة بالمرارة، انفصل فيها عن ميريام وأصيب بالالتهاب الرئوى، وكان يتعافى ببطء ويكسب القليل من المال بكتابة القصص، لكن أوستن هاريسون الذى تولى رئاسة تحرير المجلة الأدبية الشهرية وجارنيت وهيوفير كانوا يساعدونه.

في الثاني عشر من مايو عام ١٩١٢ غادر فجأة بصحبة زوجته الألمانية المولد، ابنة البارون فريدريش، فون ريكتهوفن إلى ميتز وبافاريا، ثم إلى إيطاليا وبدأت المرحلة الجديدة.

(٤)

كان إبّان هذه الفترة في السادسة والعشرين ولكنه في داخله كان يشعر بشيخوخة مبكرة. قضى معظم أيام شبابه في أزمات وأحزان ومتاعب، وأمضى أغلب الفترة بين عامي ١٩١٢ ، ١٩١٤ بين إيطاليا وألمانيا، ثم ذهب إلى إنجلترا خلال فترة الحرب العالمية الأولى، وكان معزولا تماما.

في عام ١٩١٥ تم حجب رواية "قوس قزح" عن النشر بدعوى أنها إباحية وغير أخلاقية، وأصبح الإحساس بالانفصال عن العالم البرجوازي الذي يحكم عالم الطباعة والنشر وكل شيء إحساسا كاملا. لم يكن يستهويه ذلك العالم، ولم تكن لديه الرغبة في أن يصبح جزءًا منه، وأثبت حجب "قوس قزح" عن النشر صعوبة ذلك. منذ ذلك الحين تخلى عن فكرة "النجاح" أو التواصل مع الطبقة البرجوازية البريطانية وظل مبتعدا وفضل العزلة.

غادر إنجلترا عام ١٩١٩ إلى إيطاليا وكان له بيت لمدة عامين في تورمينا بصقلية، وفي عام ١٩٢٠ نشرت له بأمريكا رواية "نساء عاشقات"، والتي رفضها لمدة أربعة أعوام جميع الناشرين، نتيجة فضيحة "قوس قزح".

كتب وهو في تورمينا "الفتاة الضائعة"، "البحر وسردينيا" وأغلب قصة "قضيب هارون". أبحر عام ١٩٢٢ من نابولي إلى سيلون وعاش في كاندي لفترة، ثم أبحر إلى أستراليا لبعض الوقت، وفي كل مرة كان يؤسس بيتًا ويستقر فيه.

أبحر بعد ذلك من سيدني إلى سان فرانسيسكو، ثم ذهب إلى نيومكسيكو حيث استقر مع زوجته بالقرب من الهنود الحمر، وفي السنة التالية امتلك مزرعة صغيرة بجبال روكي تطل على ولاية أريزونا من الغرب، وفي أثناء وجوده

بالمكسيك حيث عاش وتجول لمدة عام ١٩٢٦ كتب الصورة النهائية لقصة "الثعبان".

عاد إلى إنجلترا عام ١٩٢٦ ولكنه لم يستطع تحمل الطقس فغادرها إلى إيطاليا وعاش آخر سنتين من عمره فى فيلا بالقرب من فلورنسا حيث كتب رواية "عشيق الليدى تشاترلى" وهى آخر أعماله، ومات فى فينيسيا عام ١٩٣٠ وهو فى الرابعة والأربعين.



عن رواية "عشيق الليدى تشاترلى"

(١)

نظرا لوجود نسخ عديدة مقلدة من رواية "عشيق الليدى تشاترلى"، وافقت فى عام ١٩٢٩ على طبعها طبعة شعبية رخيصة فى فرنسا وبيعها للعامة بستين فرنكا، وكنت بذلك آمل أن تشبع الطلب الأوروبى، ولكن القراصنة بالولايات المتحدة كانوا مستعدين لذلك فقلدوها، وأول نسخة مقلدة كانت تباع بنيويورك بعد شهر واحد من وصول النسخ الأصلية من فلورنسا وقد طبعت بالطريقة الزنكوغرافية. كانت تباع حتى بواسطة المكتبات الموثوق فيها على أنها الطبعة الأولى الأصلية، وكان سعر النسخة خمسة عشر دولارا، بينما كان سعر النسخة الأصلية عشرة دولارات وكان المشترى لا يعلم بالتزييف.

أعقبت تلك المحاولة محاولات أخرى، فقد قيل لى بأنه لا تزال توجد نسخ مقلدة تباع فى نيويورك وفيلادلفيا، واشتريت أنا شخصيا نسخة مقلدة قذرة المظهر مغلفة بغلاف سيىء وعليها توقيع مزور لى. حين ظهرت هذه الطبعة المقلدة فى لندن وكانت آتية من نيويورك بيعت بثلاثين شلنا، صدرت الطبعة الثانية فى فلورنسا وبيع منها مائتا نسخة فى لندن مقابل جنيها للنسخة. كنت قد أردت الإبقاء عليها لمدة سنة أو أكثر ولكن كان على الدفع بها إلى المكتبات لمواجهة النسخ المقلدة. ولكن عدد النسخ كان قليلا جدا وبقيت النسخ المقلدة.

ثم وقعت فى يدى نسخة جنائزية كئيبة مغلفة بالأسود وطويلة، لتبدو كالإنجيل. كان الناشر القرصان مقداما، فلم يجعل للنسخة صفحة واحدة للعنوان بل صفحتين، ويوجد بكل منهما رسم للنسر الأمريكى وحول رأسه ستة نجوم وينبعث البرق من مخالبه، ويحيط به غصن من نبات الغار لإضفاء الشرف على استغلاله وسرقته الأدبية. كانت نسخا شاذة مثل نسخ كتاب "كابتن ليد". لكن لماذا قام الناشر المزور بإطالة الصفحة بإضافة عنوان زائف لها؟ لا أعرف، كانت النتيجة مقبضة

لأن هذا الكتاب أنتج أيضا بطريقة التصوير الزنكوغرافى. كان توقيعى قد أُغفل تماما، وقيل لى إن النسخة كانت تباع بعشرة وعشرين وخمسين دولارا وفقا لرغبة البائع واستعداد المشترى.

(٢)

هناك إذن ثلاث طبعات مزورة فى الولايات المتحدة، وقد سمعت عن وجود طبعة رابعة، ولكن حيث إننى لم أرها فلا رغبة عندى فى تصديق ذلك. توجد أيضا الطبعة الأوروبية المقلدة المنتجة فى باريس، والمكتوب عليها أنها طبعت فى ألمانيا. وسواء طبعت فى ألمانيا أم لا، فهى بالتأكيد مطبوعة وليست مصورة؛ لأن بعض الأخطاء الهجائية فى الأصل قد تم تصويبها، وهى نسخة محترمة وقريبة جدا من الأصلية، ولكن كان ينقصها توقيعى. هذه النسخة بيعت بمائة فرنك للمكتبات" وبثلاثمائة فرنك فى السوق، وأحيانا بخمسمائة فرنك. وقد قيل إن بعض بائعى الكتب قاموا بتزوير توقيعى وباعوا النسخ على أنها أصلية. أملى ألا يكون ذلك صحيحا، وإن كان ذلك كله يسيىء إلى الناشرين وإلى هذه التجارة. ولكن هناك بعض الارتياح؛ فقد رفض بعض باعة الكتب التعامل بالنسخ المقلدة مطلقا. منعتهم الأخلاقيات العاطفية والمهنية من ذلك. قام آخرون بالتعامل بها ولكن بدون حماس. من الواضح أن الجميع كان يفضل التعامل مع النسخ المعتمدة، وهكذا تدخل العاطفة الساحة ضد المزورين حتى وإن لم يكن التدخل قويا بدرجة تمنعهم تمامًا.

لم تحصل أيا من تلك النسخ المقلدة على تصريح منى ولم أتلق بنسًا واحدًا من أى منها. ولكن أحد باعة الكتب النادمين بنيويورك أرسل لى ببعض الدولارات كانت وفقا لكلامه نسبة العشرة بالمائة الخاصة بحق الملكية عن كل النسخ التى باعها. كتب يقول لى "أعرف أن ذلك لا يمثل سوى قطرة فى بحر". كان يعنى بالطبع ما يقول حيث إن حصيلة البيع كانت هائلة.

(٣)

تلقيت عرضا متأخرا من المزورين الأوروبيين يحددون لى نصيبا مقابل حق الملكية عن كل النسخ المباعة فى الماضى والتى ستباع فى المستقبل لو قبلت أن أعتمد طبعاتهم. قلت لنفسى على قاعدة من لا يظلم يُظلم، ولم لا؟ ولكن كبريائى منعنى. من المعروف أن يهوذا مستعد دائما بقبولة، ولكن علىّ أنا أيضا أن أقبل. تمكنت بعد ذلك من نشر النسخة الرخيصة الفرنسية والتى كانت تباع مقابل ستين فرنكا، وحثنى الناشرون الإنجليز على عمل نسخة منقحة ووعدونى بمقابل كبير، وأصروا على أن تكون رواية نظيفة لا تحتوى على الألفاظ الفاضحة. كنت قد بدأت أستسلم للإغراء وأبدأ فى تنقيح الرواية وتهذيبها، ولكنى وجدت أن ذلك مستحيل؛ لأنه يعنى أن أقطع أنفى بالمقص ليصبح أجمل شكلا.

ومع ذلك وعلى الرغم من كل المعارضات، فإننى أعرض روايتى ككتاب أمين وصحى وضرورى لنا حاليا. الألفاظ التى تصيب بالصدمة الشديدة فى البداية سيعتادها القارئ بعد أن يمضى فى قراءة الرواية. هل يرجع ذلك إلى أن العقل يفسده الاعتياد؟ لا، على الإطلاق، إن الألفاظ تصدم العين ولكنها لا تصدم العقل مطلقا، فمن قرأ الرواية من ذوى العقول أكدوا أنهم ليسوا مصدومين ولم يكونوا مصدومين، ويحسون بالراحة.

تلك هى النقطة الأساسية. نحن اليوم قد تطورنا وزادت ثقافتنا وتجاوزنا المحرمات والمحظورات فى ثقافتنا. هذه حقيقة مهمة يجب أن ندركها. بالنسبة للقراء المحافظين والمتشددين، الكلمات ربما تكون قوية وعادية إلى درجة لا نستطيع قبولها، والقوة الاستدعائية لما تسمى بالألفاظ الفاضحة لا بد وأنها كانت شديدة الأثر على أصحاب العقل المظلم وربما لا تزال شديدة القوة لذوى العقل البطىء والطبيعة المتدنية. ولكن الثقافة الحقيقية تجعلنا نعطى للكلمات تلك الاستجابات العقلية والتخيلية التى تنتمى للعقل وتحفظنا من الانفعالات الجسدية العنيفة المتجاوزة التى قد تمس التحفظ الاجتماعى. فى الماضى كان الإنسان ضعيف العقل ومحدود الفكر بحيث كان لا يمكنه قبول من يتكلم معه فى وظائفه الجسدية دون أن

يختلط كل شيء عليه فى صورة انفعالات ترهق قواه. لم يعد الأمر كذلك. الثقافة والحضارة تعلمنا أن نقرأ بمعزل عن الانفعالات.

(٤)

نعرف الآن أن الفعل لا يتبع التفكير بالضرورة فى الحقيقة والتفكير والفعل والكلمة والعمل، شكلان مختلفان للوعى، حياتان مختلفتان نحياهما. نحتاج بأمانة مطلقة إلى الحفاظ على صلة بينهما. ولكن بينما نحن نفكر، فإننا لا نفعل، وبينما نفعل لا نفكر. الحاجة العظمى هى أن نفعل وفقا لأفكارنا وأن نفكر وفقا لأفعالنا. ولكننا ونحن نفكر لا نفعل وعندما نفعل لا نفكر. شروط التفكير والعقل تبدو متناقضة أحيانا تبادليا على الرغم من أن التفكير والعقل يجب أن يكونا على صلة ببعضهما.

هذه هى النقطة الأساسية لهذا الكتاب. أريد أن يستطيع الرجال والنساء أن يفكروا فى الجنس بكليتهم وبصورة كاملة وحيادية. حتى لو لم نستطع أن نمارس الجنس بطريقة توفر لنا الرضا الكامل، فلنفكر فيه على الأقل بموضوعية، بصورة كاملة وبوضوح. كل الكلام عن البنات الصغيرات والعذرية وأنهن كالملاءة البيضاء التى لم يكتب عليها شيء، هو كلام فارغ تمامًا. الفتاة الصغيرة والصبى الصغير لديهما رغبات مضطربة وأحاسيس مشوشة عن الأفعال الجنسية، الأيام والسنين فقط هى التى ستصقلها. سنوات من التفكير الشريف فى الجنس وسنوات من الممارسة الطبيعية للجنس سوف يقربوننا فى النهاية مما نريد أن نصل إليه، إلى النشوة المتبادلة الحقيقية، وإلى نضجنا حيث يصبح فعلنا الجنسى وتفكيرنا الجنسى فى تناسق، لا يتداخل أحدهما مع الآخر.

ما أبعد عن نفسى أن أقترح أن تجرى النساء وراء حراس الحدائق ليتخذونهن عشاقا، وما أبعد عن نفسى اقتراح أن تطارد النساء أى رجل. هناك نسبة كبيرة من الرجال والنساء حاليا يكونون أسعد حالا عندما يتجنبون الجنس لارتباطه بالخطيئة ويفضلون العيش فى نقاء خالص، وهم فى الوقت نفسه يفهمون

ويدركون الحقائق عنه تماما. زمننا هو زمن الإدراك وليس الفعل. لقد كان هناك الكثير من الفعل فى الماضى، خاصة الفعل الجنسى، التكرار الممل لمرات ومرات بدون تفكير أو إدراك. شاغلنا الآن أن ندرك معنى الجنس. اليوم، الإدراك الواعى الكامل للجنس يعد أكثر أهمية من الفعل فى حد ذاته. فبعد قرون من البلبلة يطلب العقل أن يعرف الحقائق كاملة، فالجنس دائما فى حالة انتظار، وحين يمارس الناس الجنس حاليا فهم فى الوقت نفسه يمثلون، ويمارسونه بالغريزة إلا أنهم يعتقدون أن ذلك أمر عادى. بينما فى الحقيقة العقل هو الذى يبدى الشغف والجسم يحتاج إلى الإثارة. السبب هو أن أسلافنا كانوا يمارسون الجنس بالغريزة البحتة دون أن يفكروا فيه مطلقا أو يدركوا حقائقه بحيث إن الممارسة الآن أصبحت ميكانيكية وكئيبة ومخيبة للأمل ولن ينعشها سوى الإدراك العقلى الجديد.

(٥)

يجب أن يتوافق العقل مع الممارسة الجسدية للجنس، نحن نتلكأ فى تفكيرنا الجنسى فى ظلام الخوف الذى يعود لأسلافنا البدائيين، وتركنا العقل جامدًا دون أن يتطور. الآن علينا أن نلحق ونحدث التوافق بين إدراك أحاسيس الجسد وتجاربه. توافق بين فهم معنى الممارسة بالغريزة والممارسة ذاتها، وأن نجعل الاثنين متناغمين. يعنى ذلك احتراما مناسبا للجنس ورهبة مناسبة لتجربة الجسد الغريزية، ويعنى القدرة على استعمال الكلمات المسماة بالفاضحة؛ لأنها تمثل جزءًا طبيعيا من الفعل الغريزى للجسم. لا تأتى الفاحشة إلا عندما يخاف العقل من الجسد ويكره الجسد ويقاوم الغريزة.

عندما نقرأ عن حالة الكولونيل باركر ندرك ما هو الوضع. كولونيل باركر كانت امرأة تتنكر فى صورة رجل. تزوج "الكولونيل" امرأة وعاش معها لخمس سنوات فى "سعادة زوجية". اعتقدت الزوجة طوال الوقت أنها تزوجت طبيعيا بزوج حقيقى. كان انكشاف الحقيقة فى النهاية قاسيا على المرأة المسكينة. موقف شديد الوحشية. ولكن آلاف النساء حاليا يمكن أن يكونوا مخدوعين بالطريقة نفسها

ويعيشون مخدوعين. لماذا؟ لأنهم لا يعرفون شيئا، ولا يستطيعون التفكير جنسيا على الإطلاق. هن بلهاء فى هذا الخصوص. من الأفضل أن تعطى كل فتاة هذا الكتاب عند سن السابعة عشرة.

(٦)

تنطبق الحالة نفسها على رجل الدين، المدرس الذى بعد سنوات "مقدسة وطيبة" وفى عمر الخامسة والستين حوكم بتهمة التحرش الجنسى بالفتيات الصغار. حدث ذلك بعد أن كان وزير الداخلية وهو رجل مسن يطالب بالسكوت عن الموضوعات الجنسية. ألم تجعله قصة الرجل المسن الآخر – الشديد النقاء والطهر – يتمهل قليلا؟

ولكن هكذا الأمر. العقل لديه خوف من الجسد ويقاوم قوى الجسد. إذن فالعقل يجب أن نحرره، ونثقفه فى تلك الأمور، فخوف العقل من الجسد قاد الكثيرين من الرجال للجنون، وبعضهم كان من ذوى العقول العظيمة مثل سويفت. ففى إحدى قصائده التى كتبها لعشيقته سيليا، يمكن رؤية ما يمكن أن يحدث لعقل عظيم عندما يسقط فى براثن الخوف. ثم ماذا عن سيليا التى جعلها "عشيقها" تشعر بعدم الإنصاف تجاه وظائفها الطبيعية. إنه موقف فى غاية الغرابة، ويظهر ذلك من كلمات التحريم ومن عدم الدراية وضيق الأفق فيما يختص بالوعى الجنسى.

وعلى النقيض من إخفاء المتطهرين للأمر والذى يؤدى إلى البلاهة الجنسية، يوجد الرجل الجديد الذى "يفعل ما يحلو له". فمن خوفه يذهب إلى حد التطرف ويتعامل مع جسده كلعبة يلهو بها، قد تكون اللعبة قذرة قليلا، ولكن يعتقد أن بإمكانه الحصول على بعض المرح منها، فهو يحتقر الشباب لإيمانهم بأهمية الجنس ويمارسونه بلا تحفظ ويتهكمون على من يكبرونهم الذين يمارسونه. هؤلاء وفقا لضوابط مشددة يمكن اعتبارهم تقدميين وفائقين على الرغم من أنهم يزدرون رواية "عشيق الليدى تشاترلى" لأن الجنس شديد البساطة ومعتاد بالنسبة لهم،

والألفاظ الفاضحة لا تعنى شيئا لهم والسلوك المهذب تجاه الحب يجدونه عتيق الطراز. هم يتساءلون باستغراب، لماذا كل هذه الضجة عن الجنس؟ خذه كالكوكتيل! إنهم يقولون أيضًا إن الكتاب يظهر عقلية صبى فى الرابعة عشرة. ولكن ربما كانت عقلية صبى الرابعة عشرة الذى لا يزال لديه القليل من الحياء الطبيعى والخوف من الجنس هى أكثر كمالا من شباب الكوكتيل، الذين لا يحترمون شيئا ولا تحتوى عقولهم على شيء تفعله سوى اللعب بألعاب الجنس، وتصل عقولهم فى هذه العملية إلى حد الهوس.

(٧)

المتطهر الذى من المرجح أن يسقط فى الفحش الجنسى وهو فى العمر المتقدم، والشباب الذكى الذى يقول "نستطيع أن نفعل أى شيء، وإذا فكرنا فى شيء فإننا نفعله"، أيضا الشخص المتدنى غير المثقف ذو العقل المحدود والذى يتطلع إلى الفحش لم أكتب هذا الكتاب من أجله، ولهم جميعا أقول: احتفظوا بانحرافكم إذا كنتم تحبونه وأنا سأحتفظ بكتابى وبموقفى، الحياة محتملة فقط عندما يكون العقل والجسم فى توافق وهناك توازن طبيعى بينهما وكل منهما لديه احترام طبيعى للآخر.

من الواضح أنه لا يوجد تناغم ولا توازن الآن. الجسد فى أحسن حالاته مجرد أداة للعقل وفى أسوأها لعبته. رجل العمال يحافظ على نفسه "لائقا" أى يحافظ على جسده فى حالة طيبة للعمل من أجل إنجاز أعماله، والشاب العادى الذى ينفق معظم وقته للحفاظ على نفسه "لائقا" يفعل ذلك استجابة لذاته ونرجسيته. للعقل أفكار نمطية ومشاعر نمطية والجسد عليه أن يفعل، كالكلب المدرب، يطلب السكر سواء كان يريده أو لا يريده، ويصافح اليد التى تعطيه السكر الحلو.

أجساد رجال ونساء هذه الأيام كالكلب المدرب ولا يصدق ذلك أكثر إلا على الشباب فأجسادهم أجساد كلاب مدربة. ولأن الكلب مدرب على فعل أشياء، كانت

الكلاب القديمة لا تفعلها فهم يسمون ذلك تطورًا وتحررًا وتمتعًا بالحياة الحقة وأنه الشيء الحقيقى، ولكنهم يعرفون جيدا أن هذا كله مزيف. الرجال والنساء ليسوا كلابا فى الحقيقة، كل ما فى الأمر أنهم يبدون كذلك ويتصرفون كذلك، ويكون فى داخلهم تذمر وعدم رضا؛ لأن الجسد فى استجابته يكون خاملاً ويستثار بافتعال ويؤدى الحركات الغريزية تماما مثل الكلب، يمثل ويستعرض ثم ينهار.

أية حياة هذه؟ حياة الجسد هى حياة الإحساس والعواطف الرقيقة، حين يشعر بالجوع الحقيقى والفرحة الحقيقية تحت الشمس أو تحت الجليد، وبالمتعة الحقيقية فى رائحة الورود أو فى الزهور، ويشعر بالغضب الحقيقى والحزن الحقيقى والحب الحقيقى والرقة الحقيقية والدفء الحقيقى والعاطفة الحقيقية والكره الحقيقى والأسى الحقيقى، فكل هذه المشاعر تنتمى للجسد ويتم التعرف عليها بالعقل، فقد نسمع خبرًا يسبب لنا حزنا عظيما ولا نشعر إلا بحزن مؤقت لحظة سماعه، ولكن بعد ساعات طويلة يستوعبه العقل ويصل الإدراك إلى المراكز الجسدية وعندها يعتصر الأسى الحقيقى قلبك.

(٨)

ما أشد اختلاف المشاعر العقلية عن المشاعر الحقيقية. اليوم، يعيش الكثيرون من الناس ويموتون بدون أن تكون لهم مشاعر حقيقية، على الرغم من أنهم قد عاشوا "حياة عاطفية غنية" وأظهروا مشاعر عقلية قوية. ولكن كلها كانت زائفة. فإحدى الألعاب السحرية تصور رجلاً يقف أمام عدد من المرايا المسطحة تعكس صورته من الخصر حتى الرأس، بحيث يظهر الرجل من خصره حتى رأسه وتتعكس الصورة من الرأسى إلى الخصر مرة أخرى. ومهما كان معنى ذلك فى السحر، فإنه يعنى أننا اليوم مخلوقات لا وجود لذواتها العاطفية النشطة وإنما كل شيء ينعكس لأسفل من العقل. تعليمنا من البداية لقننا حدودًا معينة للعواطف، ما الذى نحسه؟ وما الذى لا نحسه؟ وكيف نحس بالمشاعر التى نسمح لأنفسنا بأن نحسها؟ وما عدا ذلك لا وجود له. الإحساس فقط بما تسمح لنفسك بأن تحسه يقتل فى النهاية كل القدرة على الإحساس، وفى المستوى العاطفى الأعلى لا تشعر

بشىء على الإطلاق. جاء ذلك من الماضى واستمر حتى قرننا الحالى. إن العواطف العليا مقيدة تماما، ويجب عدم إظهارها.

أعنى بالعواطف العليا، الحب بكل تجلياته من الرغبة الحقيقية إلى الحب الرقيق، حب رفاقنا من البشر وحب الله، وأعنى بالحب الفرحة والسرور والأمل والغضب الحقيقى والإحساس بالعدل والظلم والحقيقة والزيف والشرف والنبل وحب الطبيعة، والاعتقاد فى أى شىء؛ لأن الاعتقاد عاطفة شاملة يحابيها العقل. كل هذه الأشياء قد ماتت حاليا ولدينا مكانها العواطف المزيفة.

لم يكن هناك عصر أقل عاطفية وأكثر خواءً من المشاعر الحقيقية ومبالغة فى المشاعر الزائفة مثل عصرنا هذا. العاطفة والمشاعر المزورة أصبحتا كالمباراة، كل شخص يحاول أن يبتز جاره. الراديو والسينما عبارة عن أدوات لتزييف المشاعر طوال الوقت. الصحافة والأدب هما على نفس الوضع، تعطى الناس مشاعر مزيفة يعيشون فيها وبعد ذلك ينزفونها.

(٩)

أحيانا يبدون وكأنهم يعيشون جيدا مع كل ذلك، ثم ينهارون فى النهاية ويتمزقون. تستطيع أن تخدع نفسك لوقت طويل فيما يخص مشاعرك ولكن ليس للأبد. سينقلب عليك الجسد ويحاربك فى النهاية. أما فيما يخص الآخرين، فإنك تستطيع أن تخدع بعض الناس طوال الوقت وكل الناس لبعض الوقت، ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت بالمشاعر الزائفة. قد يقع شاب وفتاة فى حب زائف ويخدعان نفسيهما تماما. ولكن الحب الزائف كعك طيب ولكنه خبز ردىء، حيث يؤدى إلى عسر هضم عاطفى ومؤلم.

مشكلة العاطفة المزيفة هى أنه لا أحد يكون سعيدًا أو راضيا وفى حالة سلام. يحاول كل شخص الهرب والابتعاد عن العاطفة الزائفة التى هى أسوأ ما فى الإنسان، ولكنهم يهربون من المشاعر المزيفة لبيتر إلى المشاعر المزيفة لأدريان،

ومن المشاعر المزيفة لمارجريت إلى المشاعر المزيفة لفيرجينيا، من السينما إلى الراديو، من إيستبورن إلى بريتون، ومهما كان التغيير، يبقى الأمر هو ذاته فوق كل شيء، الحب هو إحساس مزيف هذه الأيام. سيقول لك الصغار إنه أعظم غشًا، هذا إذا أخذته على محمل الجد. الحب مقبول إذا أخذته على محمل التسلية أما إذا أخذته بجدية فستسقط سقوطًا مدويا.

(١٠)

تقول النساء إنه لا يوجد رجال حقيقيون ليحبونهم، ويقول الرجال لا توجد نساء حقيقيات لنحبهن؛ لهذا يستمرون فى الوقوع فى الحب بمن هم غير ملائمين لهم من الجانبين. مما يعنى أنه إذا لم يكن لديك مشاعر حقيقية تكون مشاعرك مزيفة؛ لأنه لا بد وأن تكون لديك مشاعر، فعند الوقوع فى الحب، بعض صغار السن يريدون أن تكون مشاعرهم حقيقية ويفزعون عند اكتشاف أن مشاعرهم كانت غير حقيقية.

ينشأ الحب هذه الأيام على مشاعر مزيفة. لقد تعلمنا من آبائنا ألا نشق عاطفيا بأحد، وألا نعطى عواطفنا الحقيقية لأحد بسهولة إذا كان لدينا أى منها. هذا هو شعارنا اليوم. تستطيع أن تأتمنهم على مالك، ولكن لا تأتمنهم أبدًا على عواطفك؛ لأنهم سيدوسونها بالأقدام.

أعتقد أنه لم يأت علينا عصر شاع فيه انعدام الثقة بين الأشخاص مثل عصرنا هذا. هناك ثقة اجتماعية مظهرية وإن كانت أصيلة. قليل جدا من أصدقائى قد يسرقوننى أو يعاملوننى بخسة وجفاء، أو يصيبوننى بأذى، ولكن كل أصدقائى سيجعلون من مشاعرى الحقيقية مادة للسخرية. هم لا يستطيعون تفادى ذلك؛ لأنها روح العصر. وهكذا يكون الحب وتكون الصداقة لأن كلا منهما يحتوى على العنصر الأساسى للتعاطف، وبالتالى يكون تزييف العواطف أمرًا لا مفر منه.

ومع الأحاسيس المزيفة لا يوجد جنس حقيقى على الإطلاق. الجنس هو الشيء الوحيد الذى لا يمكنك الغش فيه على الرغم من أن الغش العاطفى هو أسوأ أنواع الغش. ما إن يصل الأمر إلى الجنس إلا ويظهر الغش العاطفى، وفى كل المداخل إلى الجنس يحدث الغش العاطفى بشكل كبير إلى أن يدرك الطرفان الحقيقة وبعدها يحدث الانهيار.

(١١)

الجنس الحقيقى يقاوم العاطفة المزيفة؛ لأن الجنس بلا حب هو دعارة مؤكدة. الناس الذين لا يحبون بعضهم بعضًا ويدعون غير ذلك هم ظاهرة زماننا هذا. الظاهرة بالطبع كانت موجودة فى كل زمن ولكنها زادت اليوم. الناس الذين اعتقدوا أنهم أحبوا بعضهم بعضًا بشدة وعمق وظلوا على اعتقادهم هذا لسنوات طويلة، يجدون فجأة كراهية حادة وعميقة قد حلت محل الحب، وقد يحدث ذلك أحيانا فى مرحلة مبكرة، وأحيانا أخرى يظل خفيًّا حتى يصل الاثنان إلى عمر الخمسين ويحدث الفتور الجنسى، ثم تأتى الكراهية. لا شيء يثير الأسى والفزع فى نفسى أكثر مما أشعر به حيال من اعتقدوا أنهم فى وقت ما قد أحبوا بعضهم بعضا، ثم تفجرت الكراهية بينهم بشكل شديد الغرابة، وحينما تُصادف أولئك الناس تعرف جيدًا أن الأمر شديد الشيوع، ويحدث كثيرا وفى كل الأوساط، للسيدة وللدوقة وللخادمة أيضا.

ولسوف يكون غريبا أن تعرف أنه بالنسبة لهم جميعا، رجالا ونساءً، يرجع ذلك إلى الرفض التلقائى للحب الزائف، فكل الحب حاليا مزيف، وهو النمط الشائع. كل الشباب لا يعرفون كيف يجب أن يشعروا ولا كيف يجب أن يسلكوا فى الحب؛ فيشعرون ويسلكون بطرائق خاطئة تؤدى إلى حب مزيف، ومع ذلك يستمرون فيه إلى أن تنكشف لهم حقيقة الزيف. والكائن الجنسى فى الرجل والمرأة يصرخ فى يأس من الممارسة الفجة الخالية من العاطفة وبعد كم الحب الزائف الذى كابده. عنصر الزيف فى الحب يقتل الجنس العميق بالفرد، ولكن قد يكون من

الأجدر القول بأنه يثير التقزز، ثم يقتل الرغبة كلية فى النهاية. هناك دائما مرحلة يصل فيه الحب الزائف إلى حالة التشبع، والغريب أن أسوأ المشاركين فى الحب الزائف هم الذين يصلون بسرعة إلى التشبع، أما الذين كان حبهم مشوبا بالعاطفة وعلى درجة من الإخلاص، هم دائما ما يكونون أكثر رقة وأكثر استمرارية؛ لأنهم لم يتعرضوا للغش فى مشاعرهم.

(١٢)

المأساة الحقيقية تكمن فى أنه لا واحد منا زائف بالكامل أو صادق بالكامل فى الحب. وفى الكثير من الزيجات تضاء شعلة صغيرة من الحب الحقيقى من داخل الزيف، وفى كلا الجانبين، المأساة هى أنه فى عصر يسيطر فيه الزيف ويشكك فى المشاعر وخاصة المشاعر الجنسية، فإن عدم الرضا وعدم الثقة المتولدين من الزيف يتغلبان ويطفئان الشعلة الصغيرة الحقيقية للالتحام الحقيقى فى الحب الذى من الممكن أن يسعد الطرفين. هنا تكمن خطورة العزف فقط على وتر الزيف والغش العاطفى كما يفعل الكتاب "التقدميون". هم يفعلون ذلك بالطبع لموازنة الغش الأعظم الذى يبثونه فيما يكتبون.

ربما يمكن أن أشرح بعض جوانب إحساسى تجاه الجنس الذى دائما ما أسيء إلىّ من أجله. عندما قال لى شاب جاد فى أحد الأيام "أنا لا أؤمن ببعث إنجلترا من جديد من خلال الجنس". كل ما قلته كان "أنا متأكد بأنك لا تستطيع ذلك". لم يكن لديه فكرة عن الجنس على أى حال، فهو شاب فقير، واع لذاته، مضطرب ونرجسى كما بدا لى. لم يعرف معنى الذى أقصده، فبالنسبة له، الناس إما أن يكون لديهم عقول أو ليست لديهم عقول، وغالبا ليست لديهم عقول على الإطلاق، وبالتالى فهم موجودون لمجرد السخرية منهم، وكان الشاب يدور بلا طائل باحثا عن السخرية أو الصدق وهو مغلق فى الأنا.

عندما يتحدث الشباب اللامع مثل ذلك الشاب معى عن الجنس أو يزدرونـــه، لا أقول شيئا حيث لا شيء يمكن قوله، ولكنى أشعر بالملل الشديد مـــنهم. الجـــنس بالنسبة لهم يعنى ببساطة الملابس الداخلية للسيدة ومجرد تحسسها. لقد قـــرأوا كـــل أدبيات الحب من آنا كارنينا ... إلخ، ونظروا إلى التماثيل والـــصور لأفروديـــت، ولكن عندما يصل الأمر إلى ما هو فعلى فلا يعنى الجنس لهم سوى أجساد نـــساء وملابس داخلية غالية الثمن، سواءً كانوا شبابا من أكسفورد أو عمالاً. القصة عـــن المنتجع الصيفى حيث تختلط سيدات المدينة بمتسلقى الجبالِ الـــشباب علـــى مـــدى الموسم، هى نموذج واضح. فى نهاية سبتمبر بعد أن يكون أغلب زوار الصيف قد ذهبوا، يكون جون، الفلاح الشاب قد قال لسيدته إلى اللقـــاء وراح يتجـــول وحيـــدا يسترجع كلمات صديقه. "جون، سوف تفتقد سيدتك!"، فيقول "لا، إن لديها ملابـــس داخلية جميلة" هذا كل ما يعنيه الجنس لهم، مجرد أشياء متعلقة بـــه، هـــل بعـــث إنجلترا سيكون بذلك؟، بالطبع لا! إن عليها أن تعيد بعث الجنس فى شبابها قبل أن يقوموا هم ببعثها. ليست إنجلترا من يحتاج البعث، إنه شبابها.

(١٣)

هم يتهموننى بالبربرية، وبأننى أريد العودة بإنجلترا إلى البدائية. ولكن مـــا أعتبره بربريا وبدائيا هو البلاهة والموات فيما يتعلق بالجنس. الرجل الذى يجد أن أكثر أجزاء المرأة إثارة ملابسها الداخلية هو الذى يكون بربريا. المتوحشون لهـــم السلوك نفسه ، فقد قرأنا عن المرأة المتوحشة التى تلبس ثلاثة أردية الواحد فـــوق الآخر لتثير الرجل. هذه الفجاجة فى عدم رؤية شيء فى الجنس سوى أداء وظيفى وعبث بالملابس هو فى رأيى أحط درجات البربرية والتوحش. كما أننـــى أرى أن حضارتنا البيضاء فيما يتعلق بالجنس تعد بربريـــة ومتوحـــشة، خاصـــة إنجلتـــرا وأمريكا. راقب برنارد شو، أحد الخصوم الألداء لحضارتنا، وهو يقول إن الملابس تثير جنسيا، والعرى يقتل الجنس. كان يتحدث عن النسوة المحتـــشمات وشـــقيقاتنا ذوات الأذرع والسيقان العارية، ويتهكم على البابا لرغبته فى أن تحتشم النساء فى

ملابسهن قائلا: إن آخر شخص فى العالم يعرف شيئا عن الجنس هو القس الأكبر لأوروبا، وأن من يجب أن يسأل عن الجنس هى العاهرة الكبرى لأوروبا، إذا كانت توجد مثل تلك الشخصية.

قد نرى فى ذلك زلاقة اللسان وسوقية لأحد كبار مفكرينا، فالنساء نصف العاريات فى أيامنا هذه لا يثرن الكثير من المشاعر الجنسية فى رجالنا المحتشمين، والذين لا يثيرون المشاعر الجنسية فى النساء أيضا، ولكن لماذا؟ لماذا تثير النساء العاريات فى أيامنا هذه أقل كثيرا من المشاعر الجنسية التى تثيرها النساء المحتشمات عند السيد شو؟ من السخف أن نرجع ذلك إلى مقولة إن كل ما هو مخفى ومستور يدفع للرغبة فى اكتشافه.

(١٤)

عندما يكون الجنس فى المرأة ديناميكيا وحيا، يصبح قوة فى ذاته وخارجًا عن سيطرتها ويشع سحره الخاص الذى يجذب الرجال إلى بهجة الرغبة. والمرأة عليها أن تحمى نفسها وتخفى نفسها بقدر ما تستطيع. هى تغلف نفسها بالحياء والتواضع؛ لأن الجنس فيها قوة، تعرضها لرغبات الرجال. إذا عرضت امرأة ذات رغبة لحمها عاريا كنساء هذه الأيام، سيصاب الرجال بالجنون من أجلها مثلما كان سليمان مجنونا ببلقيس.

ولكن عندما يفقد الجنس فى المرأة نداءه الديناميكى بتقدم العمر تصبح المرأة شديدة الرغبة فى جذب الرجال؛ لسبب بسيط هو أنها لم تعد تجذب الرجال. وبالتالى فكل الأنشطة التى اعتادت أن تكون لا واعية ومبهجة تصبح واعية ومنفرة. المرأة التى تكشف لحمها أكثر لتكون محط أنظار الرجال وجاذبة لهم تفقد بريقها كلما زادت مساحة ما تكشفه من جسمها لجذبهم. ولكن علينا ألا ننسى أن الرجال يستثارون من سلوك المرأة اجتماعيا وينفرون منها جنسيا، فالأمران متضادان. فالرجال يحبون إيماءات المرأة نصف العارية فى الشارع لأنها إعلان

عن الرغبة وعن الاستعداد وليس فيها ما يشين؛ ولأنها حرية وشائعة، لكن عند الاتصال يحدث النفور لانتفاء العاطفة؛ فالرجال يريدون الإحساس بالرغبة الحقيقية ولا يريدون التزييف.

إننا جميعا مشوشون ولدينا رغبات متباينة ومتعارضة. الرجال الذين يشجعون النساء على أن يكن شديدات الجرأة يشتكون بمرارة من فتور الجنس في النساء. الشيء نفسه ينطبق على النساء اللاتي يعشقن الرجال بشدة لذكائهم الاجتماعي، هؤلاء الرجال أحيانا ما يكونون ضعافا وليسوا "رجالاً". من الطبيعي أن يرغب الجميع في الجنس ولو كان مزيفا. ولكن في مرحلة معينة من أعمارهم يكره الجميع الجنس المزيف.

(١٥)

فتيات هذه الأيام يستطعن ستر أنفسهن حتى الأعين ويرتدين الملابس الثقيلة والضفائر المستعارة، وعلى الرغم من ذلك لا يحدثن الأثر المطلوب على قلوب الرجال كالذي تحدثه النساء نصف العاريات ولا يكون لذلك أثر في زيادة الجاذبية الجنسية، فإذا لم يكن هناك رغبة حقيقية فلا جدوى من الاستثارة؛ فالرجل عادة ما يكون راغبا في أن يُخدع لبعض الوقت، حتى بواسطة الاستثارة.

عندما تكون النساء متشوقات للجنس وجذابات فإنهن يجتهدن في ستر مفاتنهن، ودائما ما يغطين أنفسهن برشاقة. كانت المبالغة الخاصة بثمانينيات القرن التاسع عشر بوضع الأرداف الصناعية تحذيرا مسبقا بأن الجنس في الأيام القادمة سيكتنفه الزيف.

الجنس قوة في ذاته، وتحاول النساء القيام بكل أشكال التنكر لجذب الرجال. لكن عندما يصر البابا أن تغطي النساء لحمهن العاري في الكنيسة، فهو لا يعارض بذلك الجنس وإنما يعارض الحيل النسائية المفضوحة. البابا والقساوسة يقررون أن المباهاة بلحم النساء العاري في الشارع والكنيسة يعد سلوكا ممجوجا وغير مهذب

فى الرجال والنساء، وهم فى ذلك على حق؛ ولكن ليس لأن عرض اللحم العارى يثير الرغبة الجنسية، ولكن لأنه يقود إلى ذلك. حتى السيد شو يعرف ذلك، ولكن عندما لا يثير لحم المرأة أى حماس يكون هناك شىء خطأ؛ لأن الأذرع العارية للمرأة حاليا تثير إحساسًا بالرخص والسوقية وهى آخر مشاعر يمكن الذهاب بها إلى الكنيسة إذا كان لدى المرأة احتراما لها. فأذرع النساء العارية فى الكنيسة الإيطالية هى علامة على عدم احترام الكنيسة.

الكنيسة الكاثوليكية خاصة فى الجنوب ليست ضد الجنس ككنائس الشمال، ومثل السيد شو وغيره من المفكرين الاجتماعيين. تعترف الكنيسة الكاثوليكية بالجنس وتجعل من الزواج رباطا مقدسًا يرتكز على الاتصال الجنسى بغرض الإنجاب. ولكن الإنجاب فى الجنوب ليس هو الغرض الوحيد للزواج كما هو فى الشمال. فعل الإنجاب فى الجنوب يأتى مع إشباع الغريزة أولا وليس له الأهمية نفسها التى كانت له فى الماضى. الإنسان مخلوق وهو يحمل غرائزه التى تساهم فى بقاء نوعه، وهو فى ممارسته لغرائزه قد يكون عاطفيا أو مجردا من العاطفة، لكن من المحتم أن يمارسها، وهذا ما تحاول كنائس الشمال فرض قيود عليه وتحاول الكنيسة الحفاظ عليه فى الجنوب لعلمها بأهميته الشديدة للحياة. الإحساس بإمكانية أن تكون مخلوقا غريزيا وواهبا للحياة كزوج وكأب، ربما كان ضروريا للحياة اليومية للرجل لكى يعيش حياة كاملة ومشبعة الإحساس بأبدية الزواج، ربما كان ذلك ضروريا للسلام الداخلى لكل من الرجل والمرأة. الكنيسة الكاثوليكية لا تضيع وقتها فى تذكير الناس بأنه فى الآخرة لا يوجد زواج. إنها تصر على أن يكون الزواج للأبد، وأن يقبل الناس هذا القرار بكل ما يشتمل عليه. بالنسبة للقس، الجنس هو المفتاح للزواج، والزواج هو المفتاح للحياة اليومية للناس، والكنيسة هى الباب الذى ندخل منه لحياة ما بعد الموت.

(١٦)

إذن الجنس فى حد ذاته ليس مميتا بالنسبة للكنيسة ولكن الذى هو مميت بدرجة أكبر هو التصدى للابتذال وللأذرع العارية ولكل ما يثير الغرائز. قد يكون الجنس مشينا من وجهة نظر الكنيسة أو حتى تجديفا، ولكنه لا يكون إلحادًا أو سخرية. أذرع النساء العارية حاليا هى إلحاد فى أشد صوره سوقية.

وبالطبع الكنيسة الكاثوليكية تقف ضده. القس الأعظم فى أوروبا يعرف عن الجنس أكثر مما يعرفه السيد شو؛ لأنه يعرف أكثر عن الطبيعة الأساسية للإنسان، فلديه ألف سنة من الخبرة بينما السيد شو قفز إلى الساحة فى يوم واحد. السيد شو ككاتب درامى قفز ليلعب بألاعيبه مع الجنس المزيف للعامة من الناس. لا شك فى أنه يستطيع ذلك. وكذلك تستطيع أرخص الأفلام. ولكنه من الواضح أيضا أنه لا يستطيع أن يلمس الجنس الأعمق للفرد الحقيقى والذى لا يشك فى وجوده.

يقترح السيد شو أن أعظم عاهرة فى أوروبا هى من يجب أن تستشار فى أمور الجنس وليس القس الأعظم. وهو فى ذلك على حق. العاهرة الأعظم لأوروبا ستعرف بالتأكيد عن الجنس ما يعرفه السيد شو نفسه. وهو ليس بالكثير. هى ستعرف الكثير عن الجنس المزيف للرجال، الشيء الذى يمارس بالتحايل والخداع. وهى مثله، لا تعرف شيئا على الإطلاق عن الجنس الحقيقى للرجل، الجنس الذى له إيقاع الفصول والسنين ودفء الشتاء وعاطفة الربيع. هذا لن تعرف عنه شيئا لأنها لكى تكون عاهرة لا بد وأن تفقده أولا. لكن مع ذلك ستعرف أكثر من السيد شو، ستعرف أن الجنس الشامل الإيقاعى للحياة الداخلية للرجل موجود.هى ستعرف لأنها بالتأكيد تعرضت له. كل الأدبيات فى العالم تظهر عجز العاهرة فى الجنس وعدم قدرتها على الاحتفاظ برجل. وثورتها الغاضبة على الإخلاص للرجل والتى كما أظهر تاريخ العالم أنه أعمق وأقوى من عدم الإخلاص الجنسى. كل أدبيات العالم تظهر قوة غريزة الإخلاص فى الرجل والمرأة، وكيف يسعيان وراء إشباعها ويجزعان من عدم قدرتهما على إيجاد طراز الولاء المأمول.

غريزة الإخلاص قد تكون أعمق غريزة فى المعقد العظيم الذى يسمى بالجنس. أينما وجد الجنس الحقيقى وجدت العاطفة الراغبة فى الإخلاص. تعرف العاهرة ذلك؛ لأنها تقف ضدها. تستطيع أن تحتفظ بالرجال الذين ليس لديهم جنس حقيقى، أى المزيفون وهى فى الوقت نفسه تكرههم. الرجال الممارسون للجنس الحقيقى لا بد وأن يتركوها لعدم قدرتها على إشباع رغبتهم. تعرف العاهرة ذلك، وكذلك البابا إذا ما فكر فيه، ولكن كاتب الدراما الرئيسى لا يعرفه، فبالنسبة له كل الجنس عبارة عن عدم ولاء وملكة الجنس هى العاهرة. إذا تَأَتَّى الجنس من الزواج فسيكون ذلك لأن أحد الطرفين قد وقع فى الغرام مع شخص آخر ويريد أن يكون غير مخلص. عدم الإخلاص هو الجنس وتعرف العاهرات كل شىء عن ذلك، ولا تعرف الزوجات شيئا ولسن لديهن خبرة فى هذا الخصوص.

هذه هى تعاليم السيد شو، الدرامى الأعظم والمفكر الأعظم لجيلنا ويوافقه العامة والسوقة على ذلك تماما. الجنس شىء لا تحصل عليه فيما عدا أن تمارسه إذا أتيح لك وبالكيفية التى تراها. مفكرونا العظام، انتهاءً بإباحية السيد شو، علمونا هذا الهراء بعمق لدرجة أنه يكاد يصبح حقيقة. الجنس لا وجود له بعيدا عن الزنا والعهر، والزواج هو ببساطة برود وخواء.

الآن أصبحت قضية الجنس والزواج ذات أهمية عظيمة. نظامنا وحياتنا الاجتماعية قائمة على الزواج، والزواج – كما يقول علماء الاجتماع – قائم على الملكية. لقد وجد أن الزواج هو أفضل وسيلة لنقل الملكية وتحفيز الإنتاج وهذا كل ما له.

ولكن هل الزواج كذلك بالفعل؟ نحن فى مخاض ثورة عظيمة ضد الزواج، ثورة شديدة على قيوده وحدوده. على الأقل ثلاثة أرباع التعاسة فى حياتنا ترجع للزواج. هناك الكثير من الناس المتزوجين والقليل من غير المتزوجين الذين لم يشعروا بكره حاد للزواج فى حد ذاته وللزواج كمؤسسة، وكقيد فرض على الحياة الإنسانية. إن الثورة ضد الزواج أكبر من الثورة ضد الحكومة!

(١٧)

من المسلم به أنه ما إن نجد طريقة ممكنة للتخلص من الزواج، سيتم إلغاؤه. لقد ألغى السوفييت الزواج، وإذا نشأت دولٌ جديدة فسوف تفعل ذلك بالتأكيد. سيحاولون إيجاد بديلٍ اجتماعى للزواج وسيلغون ذلك الاقتران الممقوت. ستدعم الدولة الأمومة وتدعم الأطفال واستقلال النساء. إن ذلك جزءٌ من برنامج أى مخطط عظيم أو إصلاح مرتقب. وسوف يعنى بالطبع إلغاء الزواج.

السؤال الذى يجب أن نسأله لأنفسنا هو "هل نحن نريده حقًا؟"، هل نريد الاستقلال المطلق للمرأة، ودعم الدولة للأمومة وللأطفال، وبالتبعية التخلى عن الزواج؟ هل نريد ذلك؟ المهم هنا هو أن الرجال والنساء سيفعلون ما يريدونه حقا. ولكن يجب أن نتذكر أن الإنسان له مجموعتان من الرغبات، المجموعة السطحية والمجموعة العميقة، المجموعة الشخصية والمؤقتة من الرغبات والمجموعة الداخلية غير الشخصية والعظيمة من الرغبات التى يتم إشباعها على فترات زمنية طويلة. الرغبات اللحظية يسهل التعرف عليها، ولكن الرغبات العميقة أصعب. إنها مسئولية مفكرينا أن يقولوا لنا عن رغباتنا العميقة بدلا من الحديث عن رغباتنا الصغيرة باستمرار.

(١٨)

تقوم الكنيسة على الاعتراف ببعض الرغبات العميقة العظيمة فى الإنسان، الرغبات التى تحتاج لسنوات وأحيانا إلى عمر بكامله لكى يتم إشباعها. والكنيسة المتمثلة فى قساوستها والقائمة على الصخرة الوحيدة لبطرس أو لبولس تقوم على عدم انفصام الزواج. لو جعلنا الزواج غير ثابت وقابل للانفصام وحطمنا أبديته، ستسقط الكنيسة. لاحظ التدهور الفادح لكنيسة إنجلترا الآن.

السبب هو أن الكنيسة أُسست على عنصر اتحاد البشر، وأول عنصر للاتحاد فى العالم المسيحى هو رابطة الزواج. رابطة الزواج هى الرابطة الرئيسية

فى المجتمع المسيحى ولو تحطمت لعدنا مرة أخرى إلى التسلط الطاغى للدولة الذى كان قائما قبل عصر المسيحية. لقد كانت الدولة الرومانية شديدة السطوة وكان الآباء الرومان يمثلون الدولة، والأسرة الرومانية تمثل تراث الآباء الذى يسيطرون عليه من أجل الدولة ذاتها. كان الوضع مماثلا فى اليونان، ولكن كانت الأسرة أقل أمانا فى اليونان عنها فى روما.

لكن فى أى من الحالتين، كانت الأسرة هى الرجل الذى يمثل الدولة، حيث لا توجد دولة تكون المرأة فيها هى الأسرة. وهناك دول لا توجد فيها الأسرة وهى الدول الكهنوتية، حيث يحكم الكهنوت كل شىء ويمارس نفس نظام تحكم الأسرة. وهناك الدولة السوفييتية حيث من المفروض ألا توجد بها الأسرة وتتحكم الدولة فى كل فرد بصورة مباشرة وميكانيكية مثلها مثل الدولة الدينية كما كانت فى العهود المبكرة فى مصر حيث كان يتم التحكم المباشر فى كل فرد بالرقابة الكهنوتية وبالطقوس.

السؤال الآن، هل نرغب فى التقهقر للخلف أم التقدم للأمام لأى شكل من أشكال تحكم الدولة؟ هل نريد أن نكون كالرومان؟ أم نريد أن نكون كالمواطنين الإغريق فيما يتعلق بالأسرة؟ هل نريد أن نتخيل أنفسنا فى الظروف الغريبة للدولة المصرية القديمة التى يحكمها الكهنوت؟ هل نرغب فى أن نخضع لاستبداد السوفييت؟

بالنسبة لى، أقول لا لكل هذه الأوضاع. وحيث إننا قلنا لا، فيجب أن نعود للتفكير فى القول الشهير بأنه ربما كان أعظم مساهمة قامت بها المسيحية فى الحياة الاجتماعية هى الزواج. المسيحية هى التى جاءت بالزواج إلى العالم، الزواج كما نعرفه الآن. أسست المسيحية الإدارة الذاتية للأسرة داخل الحكم الأشمل للدولة. المسيحية قد جعلت الزواج فى بعض جوانبه غير قابل للانفصام، ولا يمكن انتهاكه بواسطة الدولة. الزواج هو الذى أعطى للإنسان أفضل حرية، أعطاه مملكته الصغيرة التى تخصه داخل المملكة الكبيرة للدولة، أعطاه موضعا لأقدامه ومكانا يقف فيه والذى فيه يستطيع مقاومة دولة ظالمة. الرجل والزوجة، كالملك والملكة،

والرعية واحد أو اثنان من الأبناء، هذا هو الزواج فى الحقيقة. إنه حرية حقيقية لأنه إشباع حقيقى للرجل وللمرأة وللأطفال.

(١٩)

هل نريد إذن القضاء على الزواج؟ لو فعلنا لجعلنا أنفسنا نقع تحت التحكم المباشر للدولة. هل نريد ذلك؟ بالنسبة لى، لا أريد. فالمسيحية خلقت الزواج وجعلته مقدسا، بتقديس الرجل والمرأة المتحدين فى الاتصال الجنسى ولا يمكن فصلهما أبدا إلا بالموت. وحتى إذا انفصلا بالموت فلن يتحررا من الزواج. الزواج أبدى. الزواج يصنع كلا واحدا مكتملا من جسدين غير مكتملين ويوفر التطور المعقد لروح الرجل وروح المرأة فى اتحادهما عبر الحياة. الزواج مقدس وغير قابل للانتهاك والطريق العظيم للإشباع للرجل وللمرأة فى اتحادهما معًا بمباركة الرب.

هذا هو العطاء الأعظم للمسيحية لحياة الإنسان وهو ما لا يمكن تجاهله. هو الوسيلة الشرعية للإشباع الحياتى للرجال والنساء. فهل يكون الزواج مشبعًا للرجل والمرأة أم محبطًا؟ إنه سؤال مهم جدا يجب على كل رجل وامرأة الإجابة عنه.

لو أننا تبنينا الفكرة البروتستانتية عن أنفسنا بأننا أرواح فردية منعزلة وأن أهم ما يشغلنا هو خلاص أرواحنا، فسيكون الزواج عقبة. لو أننى أعيش لمجرد خلاص روحى، فمن الأفضل ألا أتزوج، كما يعرف الرهبان والأحبار. ولكن إذا كنت أعيش لخلاص أرواح الآخرين، فمن الأفضل أيضا أن أدع الزواج وشأنه كما يعرف القديسون والوعاظ والرسل.

ولكن بافتراض أننى غير معنى بخلاص روحى أو أرواح الآخرين، وبافتراض أن الخلاص أمر لا أستطيع إدراكه كما أعترف بذلك. "أن يتم خلاصك" تبدو بالنسبة لى مجرد رطان، رطان الغرور الذاتى. وعلى فرض أننى لا أستطيع

أن أرى ما يعنيه المخلّص والخلاص وأننى أرى الروح على أنها شيء يجب تطويره وإشباعه عبر الحياة وحتى النهاية، فماذا سيكون عليه الحال؟

أنا مقتنع أن الزواج أو شيئًا قريبًا منه يعد ضروريا، وأن الكنيسة القديمة هى أفضل من عرف احتياجات الإنسان الدائمة خلافا للاحتياجات المرحلية اليوم والأمس. لقد أقامت الكنيسة الزواج مدى الحياة لإشباع حياة الروح وليس لتأجيل ذلك لما بعد الموت.

عرفت الكنيسة القديمة أن الحياة هى نصيبنا ويجب أن تعاش، وأن تعاش بإشباع. الحكم العابس لبيندكت والنزعات الشرسة لفرانسيس الأسيسى لم تكن سوى ومضات فى السماء الواثقة للكنيسة. إيقاع الحياة نفسه حفظته الكنيسة ساعة بساعة بين الناس واستطاعت احتواء الومضات الشرسة فى ذلك الإيقاع الدائم. نشعر بذلك فى الجنوب وفى الريف عندما نسمع أجراس الكنيسة فى الفجر والظهر وعند الغروب. نحدد الساعات بأصوات الترانيم والصلوات. إنه إيقاع الشمس اليومية. نشعر بذلك فى الاحتفالات وفى الكريسماس وفى الأعياد الثلاثة، عيد الفصح وعيد الخمسين ويوم القديس جون. هذه هى حركة عجلة السنة، حركة الشمس عبر الانقلاب والاعتدال، قدوم الفصول وذهاب الفصول. إنه الإيقاع الداخلى للرجل والمرأة أيضا. حزن الصوم الكبير وفرحة عيد الفصح، عجائب عيد الخمسين وألعاب النار للقديس جون، الشموع على مقابر كل الأموات، الشجرة المضاءة للكريسماس، كلها تمثل العواطف الإيقاعية فى أرواح الرجال والنساء. الرجال يشعرون بها بطريقة رجولية والنساء بطريقة نسائية، وفى اتحاد الرجال والنساء تكون كاملة.

(٢٠)

قال القديس أوجستين إن الله يخلق الكون جديدا كل يوم. للأحياء والأرواح العاطفية. هذا صحيح، فكل فجر يشرق على كون جديد تماما وفى كل عيد فصح

ينبثق مجدا جديدا لعالم جديد يتفتح فى زهرة جديدة. وروح الرجل وروح المرأة جديدتان بالطريقة نفسها، بالغبطة اللانهائية للحياة وبتجدد الحياة. وبالتالى فالرجل والمرأة يتجددان ببعضهما عبر الحياة بكاملها، وفى إيقاع الزواج الذى يماثل إيقاع السنة.

الجنس هو توازن الذكر والأنثى فى الكون، الانجذاب والتنافر، الانجذاب الجديد، التنافر الجديد، دائمًا مختلف ودائما جديد. الحياد الطويل للصوم عندما يكون الدم راكدا، وبهجة قبلة الفصح، المرح الجنسى للربيع، شهوة منتصف الصيف، الانطواء البطىء وأسى الخريف، ثم مجىء الشتاء ولياليه الطويلة. الجنس إذن يتبع إيقاع السنة فى الرجل والمرأة، يتغير باستمرار مع تغير إيقاع الشمس فى علاقتها بالأرض، ويا لها من كارثة للإنسان عندما قطع نفسه عن إيقاع السنة وعن توحده مع الشمس والأرض، ويا لها من كارثة أيضا أن يُمنع الحب عن الاتصال السحرى بالانقلاب والاعتدال الشمسى. نحن ننزف من جذورنا لأننا عزلنا أنفسنا عن الاتصال بالأرض والشمس والنجوم وقطفنا الحب من شجرة الطبيعة وزرعناه فى الفازة المتمدينة على المنضدة فى بيوتنا وتوقعنا أن يستمر فى التفتح.

(٢١)

الجنس هو المفتاح للحياة الإنسانية ولكن لا يوجد زواج بعيدا عن الشمس الدوارة والأرض الناعسة، عن دوران الكواكب وروعة النجوم. أليس الإنسان مختلفا ومختلفا تماما فى الفجر عما يكون عليه فى الغروب، والمرأة أيضا؟ ألا يصنع التناغم المتغير الموسيقى الخفية للحياة. ألا يكون الأمر هكذا عبر رحلة الحياة؟ الرجل يختلف فى الثلاثين عن الأربعين والخمسين والستين والسبعين، والمرأة أيضا تختلف. ولكن أليس هناك اتصال غريب فى اختلافاتهما؟ ألا يوجد تناغم خاص فى فترة الشباب، وفى فترة الإنجاب وفترة تربية الصغار وفترة تغير حياة المرأة التى تكون مؤلمة وفترة فتور الرغبة وانطفاء العاطفة والفترة الكئيبة التى تسبق الموت عندما ينظر الرجل والمرأة إلى بعضهما بالخوف المبهم من

الانفصال، والذى فى حقيقته لا يعد انفصالا، ألا يوجد توازن غير مرئــى وتنــاغم متكامل كالسيمفونية الصامتة التى تتحرك من مرحلة إلى مرحلة وهى مختلفة أشــد الاختلاف فى نغماتها ولكنها فى حقيقتها سيمفونية واحدة صنعت من ألحان حياتين غريبتين، حياة رجل وحياة امرأة؟

هذا هو الزواج، وسر الزواج، الزواج الذى يشبع نفسه فى هذه الحياة. قــد نعتقد أنه فى السماء لن يوجد زواج. كل شىء يجب أن يتم إنجازه هنا، وإذا لم يتم إنجازه لن ينجز أبدا. القديسون العظام يعيشون فقط، حتى عيسى عــاش ليــضيف إنجازا جديدا وجمالا جديدا للقداسة الدائمة للزواج.

ولكن – وهذه الكلمة تخترق قلوبنا كالطلقة – الزواج لا يكون زواجا ما لــم يكن فى الأساس وبصورة دائمة جنسيا، ما لم يكن متصلا بالــشمس وبــالأرض، بالقمر والنجوم والكواكب، بإيقاع الأيام وإيقاع الشهور وإيقاع الفــصول والــسنين والقرون. لا يكون الزواج زواجًا ما لم يكن نظيرا للدم؛ لأن الدم هو مادة الــروح والإدراك العميق. بالدم نكون، وبالقلب والكبد نعيش ونتحرك وتكون لنا حياتنا. فى الــدم، المعرفــة والكينونة والإحســاس، وكلها شىء واحد غير منقسم. لا ثعبــان ولا تفاحة أوجدا انقساما، فحيث يكون الاتصال بالدم، فإن الزواج يكون زواجًا. دم الرجل ودم المرأة تياران مختلفان لا يمكن أن يمتزجا. نحن نعرف ذلــك علميــا. وعلى ذلك فهما النهران اللذان يحيطان بالحياة، وفى الزواج تكتمل الإحاطة وفــى الجنس يتلامس النهران ويجددان بعضهما بعضا وبدون أن يختلطا. نحــن نعــرف ذلك. عضو الذكر عمود من الدم يملأ وادى الدم بالمرأة. النهر العظيم لــدم الــذكر يلمس أعماق النهر العظيم لدم الأنثى ولكنه لا يتخطى حواجزه. إنه أعمق اتــصال كما جاء فى كل الديانات، وهو أحد الأسرار العظيمة أو هو أعظمها على الإطلاق.

(٢٢)

هذا هو معنى العملية الجنسية، هذا الاتصال وهذا التلامس للنهرين، دجلــة والفرات اللذان يحيطان بأرض ما بين النهرين حيث كانت الجنة وكــان الإنــسان

وبداياته. هذا هو الزواج، اتصال النهرين واتصال التيارين من الدم. هذا هو ولا شيء غيره! كما جاء في كل الديانات.

نهران من الدم هما الزوج والزوجة، تياران خالدان متميزان، لهما القدرة على التلامس والاتصال والتجدد وتجديد بعضهما بعضا بدون أن يتخطيا حدودهما وبدون أن يحدث أى اختلاط. عضو الذكر هو الرابطة التى تصل بين النهرين وهو الذى يجعل التيارين يصيران متوحدين ويخرج من ثنائيتهما مفرد جديد هو التوحد والذى يتحقق بينهما تدريجيا عبر فترة الحياة، هو أعظم إنجازًا للزمن أو الأبدية، فمنه تنبع كل الأمور الإنسانية، الأطفال والجمال والأشياء جيدة الصنع، كل الخليقة الإنسانية. وكل ما نعرفه عن إرادة الله، وأنه أراد ذلك التوحد أن يحدث ويتحقق فى فترة الحياة، وداخل ثنائية التيارين العظيمين للدم.

هناك بالطبع المقابل العكسى لكل ذلك وهو التزييف. هناك زواج مزيف مثل كل زيجات هذه الأيام تقريبا، ويكون فيه الناس مجرد شخصيات ويحدث عندما ينبهر اثنان بشخصية أحدهما الآخر. عندما يكون لهما المذاقات نفسها فى الأثاث أو الكتب أو الرياضة أو التسلية، عندما يحبان "التحدث" مع بعضهما، عندما يعجبان "بعقل" بعضهما. هذا التقارب فى العقل والشخصية قد يشكل أساسا ممتازا للصداقة بين الجنسين، ولكنه أساسا كارثيا للزواج؛ لأن الزواج بالضرورة هو بداية النشاط الجنسى والنشاط الجنسى كان وسيظل عدوا للعلاقة الشخصية بين الرجل والمرأة. من المسلمات تقريبا أن الزواج الذى لا تحتويه العاطفة سوف ينتهى بكراهية جسدية عنيفة. الزواج الذى ينبنى على الانبهار الشخصى فى البداية ينتهى به الأمر إلى الكراهية بين طرفيه، كراهية لا يستطيعون إدراك سببها. ويحاولون إخفاءها لأنها تجعلهم يحسون بالعار، ولكنها تكون شديدة الوضوح خاصة لأحدهما الآخر. وفى الناس ذوى المشاعر الفردية القوية يتراكم التوتر فى الزواج إلى أن يصل إلى مرحلة الهياج القريب من الجنون، وبالطبع كل ذلك من دون أسباب.

السبب الحقيقى هو أن التعاطف الخالص للأعصاب والعقل والمصلحة الشخصية يكون معاديا لتعاطف الدم فى الاثنين. التقارب غير المبنى على العاطفة للشخصية يكون ممتازا أساسا للصداقة بين الجنسين وقاتلا للزواج، وعلى وجه العموم، سيكون الأفضل للأصدقاء ألا يتزوجوا حيث يستطيعون البقاء أكثر إخلاصا لما هم عليه، ولشخصياتهم الخاصة.

ولكن فى الزواج أو عدم الزواج، سيحدث الأمر القاتل. لو أنك لم تعرف سوى التعاطف الشخصى والحب الشخصى، فإن الهياج والكراهية سوف يأخذان بتلابيب الروح نتيجة الإحباط وإنكار تعاطف وتلامس الدم. فى الرهبنة قد يؤدى إلى الذبول والمرارة، ولكن فى الزواج ينتج نوعا من الهياج. لا نستطيع أن نتفادى ذلك حاليا قدر استطاعتنا تفادى عاصفة رعدية. لقد أصبح جزءًا من ظاهرة النفس. المهم هو أن الجنس فى حد ذاته يأتى لإسعاف الشخصية ولتلبية نداء الغريزة بصورة آلية دون أن يمنح الرضا الجنسى أو الإشباع. فى الحقيقة، ربما كان هناك نشاط جنسى أكبر فى الزواج "الشخصى" عن زواج الدم. تتحرق المرأة شوقا لعاشق دائم، وفى الزواج الشخصى تحصل عليه، ثم تكرهه بعد ذلك؛ لأنها لا تصل فيه لشىء ولا تشبع أى شىء.

من الأخطاء التى ارتكبتها أننى تحدثت عن الجنس وأنا مقتنع بأن الجنس يعنى تعاطف الدم وتلامس الدم. قد يكون هذا صحيحا، ولكن فى الحقيقة، كل الجنس الحديث تقريبا هو أمر خاص بالأعصاب، بارد وبلا دماء. هذا هو الجنس الشخصى. هذا الجنس البارد والعصبى له أثر فسيولوجى محدد علاوة على الأثر السيكولوجى. تياران من الدم يتلامسان، فى الرجل والمرأة كما يحدث فى حث عاطفة الدم ورغبة الدم. ولكن بينما التلامس فى حث رغبة الدم يكون إيجابيا ويجدد الدم، فإنه فى حالة الرغبة العصبية الشخصية يصبح هداما، حيث يكون الدم راكدا وفقيرًا.

(٢٤)

الجنس الشخصى أو العصبى مدمر للدم وله أثر مثـبط، بينمـا الاتـصال المشوب بالعاطفة والرغبة الحارة للدم له نشاط بنـاء. النـشاط الهـادم للاتـصال الجنسى العصبى قد ينتج لفترة من الوقت نوعا من النشوة، ولكن ذلك مثله مثل أثر الكحول أو المخدرات، ناتج عن تحلل بعض كرات الدم وبالتالى فهو عملية هـدم. هذا واحد من الأسباب العديدة لفشل الناس الحاليين. النشاط الجنـسى الـذى مـن المفروض أن يكون مجددا ومنعشاً يصبح مجهدا وموهنا وبالتـالى فعنـدما يفـشل الشاب فى الاعتقاد ببعث إنجلترا عن طريق الجنس، قد أوافقه على ذلك لأن الجنس الحالى أغلبه شخصى وعصبى ومجهد ولا ينتج عنه ارتواء. الأثر المجهد للجـنس الحالى لا يمكن إنكاره. إنه فقط أقل سوءًا من العادة السرية.

أخيرا بدأت أدرك سر هجوم النقاد على تعظيمى للجنس. هم يعرفون فقـط طرازا واحدا منه: الطراز العصبى، الشخصى والمشتت. الجنس البارد. هذا بالطبع شيء يمكن تزييفه ولكن لا فائدة ترجى منه. أنا أوافق على أنه لا أمل فـى بعـث إنجلترا بهذا الطراز من الجنس. فى الوقت نفسه ، لا أرى أى أمل فى البعث بدون جنس. إنجلترا التى فقدت الجنس الخاص بها تبدو لى مفقودة الأمل فيهـا، وعلـى الرغم من أننى ربما كنت أبلها بالإصرار على الجنس مع أن الطراز الشائع منـه حاليا هو ما لا أعنيه ولا أريده، فإننى لا زلت على موقفى ولـن أتراجـع عنـه، فإنجلترا بلا جنس لا تمثل أملا بالنسبة لى.

إذن لا بد أن نستعيد الجنس الحقيقى، جنس الدم الحار الـذى يعقـد الـصلة الحية بين الرجل والمرأة، كيف نستعيده مرة أخرى؟ لا أعرف. لا بد أن يـستعيده جيل الشباب وإلا لضعنا جميعا. إن الجسر للمستقبل هو الجـسر الجديـد للعبـور للمستقبل، ولكنه ليس الجنس البائس، العصبى، المزيف للحب، لا، ليس ذلك.

الدافع الجديد للحياة لن يتأتى دون تلامس الدماء، التلامس الحقيقى الإيجابى وليس العصبى السلبى. والتلامس الضرورى للدماء يكون بين الرجل والمرأة، كان كذلك دائما وسوف يبقى كذلك، تلامس الجنس الإيجابى. تلامس المثلية الجنسية يعد

ثانويا، لو لم يكن مجرد بديلٍ للانفعال الغاضب من الجنس العصبى غير المرضى بين رجل وامرأة.

(٢٥)

لو أن إنجلترا ستبعث – مستخدما الجملة التى قالها الشاب الذى يبدو أنه يعتقد فى ضرورة بعثها – سيكون ذلك بإيقاظ تلامس الدم من جديد، لمسة جديدة وزواجا جديدًا. سوف يكون بعثًا كاملا يبدأ بالبعث الجنسى، بعثًا للحيوية الإلهية فى الإنسان. سوف يكون أيضا تجديدا للزواج الحقيقى، وإعادة العلاقة بين الزواج وإيقاع الكون. إيقاع الكون شىء لا نستطيع الهرب منه؛ لأن بدونه يكون الإفقار المرير لحياتنا. لقد حاول المسيحيون الأوائل أن يقتلوا الإيقاع الوثنى للطقوس الكونية ونجحوا إلى حد ما فى ذلك. قتلوا الكواكب والتقاويم ربما لأن التنجيم تحول إلى مجرد قراءة للطالع. أرادوا قتل احتفالات السنة. ولكن الكنيسة التى تعرف أن الإنسان لا يعيش بذاته الإنسانية فقط ولكن بالشمس والقمر والأرض فى دورانها، أعادت الأيام المقدسة والأعياد كما كانت لدى الوثنيين، وصار الفلاحون المسيحيون كما صار الفلاحون الوثنيون، يصلون مع طلوع الشمس ومع غروبها وفى الظهر، أى فى الأوقات اليومية الثلاثة العظيمة للشمس، ثم فى اليوم الجديد المقدس، ثم الفصح، وفى عيد قيامة الإله، والعيد الخمسينى، وفى منتصف الصيف، وعلى أرواح الموتى وفى الكريسماس. لقرون عاش الناس فى هذا الإيقاع تحت تعاليم الكنيسة، فى جموع الناس توجد جذور الدين خالدة. عندما تفقد جموع الناس الإيقاع الدينى، يصبحون موتى وبدون أمل. ولكن البروتستانتية جاءت لتوقع ضربة عظيمة للإيقاع الدينى، وأنهى الانشقاق على الكنيسة ذلك. الآن لدينا أناس مساكين وعميان وغير مترابطين، لا شىء لديهم سوى السياسة والإجازات العامة يشبعون بها الحاجة الإنسانية الخالدة للعيش بطقوس ترتبط بدوران الكون فى استسلام أبدى للقوانين العظمى. ولأن الزواج إحدى الضرورات الكبرى، فقد عانى من ضياع

سلطة القوانين العظمى وإيقاعات الكون التى يجب أن تسود الحياة دائما. على الإنسانية أن تعود إلى إيقاع الكون واستدامة الزواج.

(٢٦)

كل ذلك كان حاشية لروايتى "عشيق الليدى تشاترلى". للإنسان احتياجات صغيرة واحتياجات أعمق. لقد وقعنا فى خطأ العيش على احتياجاتنا الصغيرة إلى أن أوشكنا أن نفقد احتياجاتنا الأعمق بصورة مجنونة.

هناك القليل من الأخلاقيات تتعلق بالأشخاص والاحتياجات الصغيرة للإنسان، وهذه هى الأخلاقيات التى نعيش بها، ولكن توجد أخلاقيات أعمق تتعلق بالرجولة والأنوثة والأمم والسلالات وتؤثر فى مصير الإنسانية على مدى الزمان، وتتعلق بالاحتياجات الأكبر للإنسان وتتعارض غالبا مع الأخلاقيات الصغيرة للاحتياجات الصغيرة. علمنا الإدراك المأساوى أن أحد الاحتياجات العظمى للإنسان هى معرفة الموت، كل إنسان يحتاج إلى معرفة الموت فى جسمه الخاص. ولكن الإدراك الأعظم لأحقاب ما قبل المأساة وما بعد المأساة يعلمنا – على الرغم من عدم وصولنا حتى الآن إلى مرحلة ما بعد المأساة – أن الاحتياج الأعظم للإنسان هو التجدد الأبدى للإيقاع الكامل للحياة والموت، إيقاع السنة الشمسية، والسنة الجسدية لفترة العمر والسنة الأكبر للنجوم وسنة الخلود للروح. هذا هو احتياجنا أو حاجتنا الضرورية. إنها حاجة العقل والروح والجسم والنفس والجنس، كلها معًا. لا فائدة إذن من السؤال عن "كلمة" لتشبع هذه الحاجات. لا توجد كلمات بمقدورها فعل ذلك، لقد قيلت الكلمة. أغلب ما نحتاجه هو أن نصغى باهتمام. ولكن من ذا الذى سيضعنا فى الفعل، الفعل العظيم للفصول وللسنة، فعل دورة الروح، فعل حياة المرأة المتوحدة مع الرجل، الفعل الصغير لتجوال القمر والفعل الأعظم لتجوال الشمس والنجوم؟ إنها أفعال الحياة التى علينا أن نعيها، فنحن من المفترض أن نعرف العالم ولكن انظر إلينا! إننا مستعدون الآن لموت حياتنا الصغيرة وانتظار البعث فى حياة أكبر، على علاقة بالكون الدوار.

إنها قضية ولكنها عمليا عبارة عن علاقة. يجب أن نعود لنكون على علاقة حية ومشبعة بالكون والعالم. الطريق هو عبر الطقوس اليومية وعـودة الـصحوة. يجب أن نعود لممارسة طقوس الفجر والظهر والغروب، طقوس النـار المـشتعلة والماء المتدفق، طقوس الميلاد الأول والموت الأخير. هـذه هـي مهمـة الفـرد والعائلة، طقوس اليوم. طقوس القمر، طقوس نجم الصباح ونجم المـساء للرجـل وللمرأة منفصلين، ثم طقوس الفصول مع دراما وعاطفة الروح فـي الاحتفـالات والرقص. إنها طقوس تخص المجتمع، عمل مستمر للرجـل وللمـرأة وللمجتمـع بكامله فى جماعية. وطقوس الأحداث العظيمة فى الـسنة هـي للأمـم وللبـشرية بكاملها. بهذه الطقوس علينا أن نعود أو نطورها لتناسب احتياجاتنا.

(٢٧)

الحقيقة هى أننا نهلك من الافتقار لإشباع حاجاتنا العظمى، لقد ابتعدنا عـن المنابع العظمى التى تغذى داخلنا وتجدده، المنابع التى تتدفق خالـدة فـي الكـون. السلالة الإنسانية تموت، كشجرة ضخمة اقتلعت من بطن الأرض وجـذورها فـي الهواء. علينا أن نزرع أنفسنا مرة أخرى فى الكون. هذا يعنى العودة إلى الأطـر القديمة ولكن علينا أن نعيد خلقها من جديـد، وإن ذلـك لأصـعب مـن التبـشير بالإنجيل. أخبرنا الإنجيل أننا جميعا قد تحررنا من الذنوب. انظر إلى العـالم الآن وسوف تدرك أن الإنسانية بدلا من أن تتحرر من الذنوب أصبحت ضـائعة تمامًـا وشارفت على الانعدام والانتهاء. علينا أن نعود، عبر طريق طويل، إلى مـا قبـل ظهور الأفكار المثالية، قبل أفلاطون وأفكاره المأساوية عن الحياة؛ لكى نقف مـرة أخرى على أقدامنا. بالنسبة لإنجيل الخلاص وما فيه من المثاليات والهـروب مـن الجسد، إنه يتفق مع الفكرة المأساوية للحياة الإنسانية. الخلاص والمأساة هما الشيء نفسه ، وكلاهما الآن يعد ثانويا بالنسبة للأمر. فلنعد إلى ما قبل أن تظهر الـديانات المثالية والفلسفات وتضع الإنسان فى مسار مأساوى جديد. آخـر ثلاثمائـة سـنة

للإنسانية كانت رحلة إلى المثاليات، الآن انتهت الرحلة كنهاية لمأساة مسرحية. المسرح ممتلئ بالأجساد الميتة التى بلا معنى، والستار ينزل.

ولكن فى الحياة، لا ينزل الستار أبدا على المشهد. تبقى الأجساد الميتة والخاملة وعلى البعض إخلاؤها، وعلى البعض الاستمرار فى المسرحية. إنه يوم القيامة. اليوم هو اليوم التالى للحقبة المثالية المأساوية. يسقط العجز فجأة على الباقى من الممثلين وعلى الرغم من ذلك عليهم الاستمرار.

(٢٨)

علينا إعادة العلاقات العظيمة التى حكمها المثاليون العظام بتشاؤمهم واعتقادهم بأن الحياة ما هى إلا صدام عبثى يجب تجنبه حتى الموت. كان بوذا وأفلاطون وعيسى متشائمين عظام فيما يتعلق بالحياة، يبشرون بأن السعادة الوحيدة تكمن فى أن يستخلص الإنسان نفسه من الحياة اليومية والسنوية والفصلية للميلاد والموت، ويعيش فى الروح الخالدة غير المتغيرة. ولكن الآن، بعد ثلاثة آلاف سنة، ونحن بعيدون تماما عن إيقاع الحياة للفصول والميلاد والموت، ندرك أن هذا الاستخلاص ليس بنعمة ولا تحرر، وإنما عدمية؛ لأن المخلصين والمعلمين العظام يقطعوننا من الحياة. لقد كانت أفكارهم مأساوية!

الكون ميت بالنسبة لنا، فكيف يعود للحياة من جديد؟ "المعرفة" قتلت الشمس وجعلتها كرة ملتهبة من الغازات وعليها بقع، "المعرفة" قتلت القمر وجعلته مجرد جزء منفصل من الأرض ومليء بفوهات البراكين كالجديرى، الماكينة قتلت الأرض لنا وجعلتها لا تصلح للسكنى. كيف من بين كل ذلك يمكننا العودة إلى المسارات العظمى لسماوات الروح التى تملؤنا بالغبطة المطلقة؟ كيف نستعيد أبوللو وأيتس وديميتر ؟ كيف سنرى النجم هسبورس أو بتلجيوس؟!

علينا أن نستعيدها مرة أخرى لأنها العالم الذى تعيش فيه أرواحنا وإدراكاتنا العظمى. عالم العقل والعلم يجعل القمر كتلة ميتة من الأرض، والشمس كرة من

الغازات، وهما بهذا يقدمان عالما عقيمًا صغيرا يسكنه العقل المجرد. إنه عالم إدراكنا الصغير الذى نعرفه. هكذا نعرف العالم بعيدا عن أنفسنا، فى الانفصال الدنئ لكل شيء. عندما نعرف العالم فى اتحاده معنا، نعرف أن الأرض مخضرة، ونعرف أن القمر يمنحنا السرور، نعرف الأسد الذهبى العظيم للشمس الذى يجعلنا شجعانا. هناك طرائق عديدة للمعرفة، ولكن الطريقتين للمعرفة الإنسانية هما المعرفة عن طريق الابتعاد وهى طريقة عقلية وعلمية، والمعرفة بالاتحاد، وهى دينية وشاعرية وفلسفية، لقد أسقطت الديانة المسيحية فى البروتستانتية فكرة الاتحاد مع الكون، اتحاد الجسد والجنس والعواطف والمشاعر مع الأرض والشمس والنجوم.

ولكن العلاقة ثلاثية. أولا، العلاقة بالكون الحى، ثم تأتى علاقة الرجل بالمرأة ثم علاقة الإنسان بالإنسان، كل منها علاقة دم وليست مجرد علاقة روح أو عقل. لقد اختزلنا الكون إلى مادة وقوة، واختزلنا الرجال والنساء إلى شخصيات منفصلة، وحدات منعزلة غير قادرة على الاتحاد بحيث صارت العلاقات الثلاثة ضعيفة وتكاد أن تكون ميتة.

ولكن لا أكثر موتا من علاقة الإنسان بالإنسان. أعتقد أننا إذا حللنا ما يشد به الإنسان حاليا تجاه الإنسان الآخر لوجدنا كل إنسان يشعر بأن الإنسان الآخر يمثل مصدر تهديد. شيء غريب حقا، فكلما كان الإنسان عقلانيا ومثاليا، زاد شعوره بأن الوجود الجسدى لأى رجل آخر هو تهديد لوجوده. كل إنسان يقترب منى يهدد وجودى ويهدد كيانى.

هذه هى الحقيقة القبيحة التى تصم مدنيتنا. فكما جاء فى الإعلان الخاص بإحدى الروايات أنها عن "الصداقة والأمل، الوحل والدم"، وهذا يعنى بالطبع أن الصداقة والأمل ينتهيان بالوحل والدم.

عندما بدأت الحملة العظمى ضد الجنس والجسد بكامل عنفوانها مع أفلاطون، كانت حملة من أجل "المثل العليا" ومن أجل المعرفة "الروحية" والابتعاد عن الجنس. وهو فى رأيى هراء، فالجنس هو الموحد الأعظم، ففى متعته الكبيرة يجعل الناس سعداء معًا. الفلسفات المثالية والديانات عمدت إلى قتل ذلك وقد فعلت.

لقد شوهت المعانى العظيمة للصداقة والأمل. البشر هم الآن كيانات صغيرة منعزلة، وعلى الرغم من أن اللطف والشفقة نحتاجهما بشدة فى زمننا الراهن، فإن كل إنسان يجب أن تكون لديه شفقة تجاه البشر وتجاه سائر المخلوقات بدلا من تلك القسوة المفجعة التى تجعل كل إنسان يمثل تهديدا لإنسان آخر. لذلك فإن البشر يتربص كل منهم بالآخر ويعامله بحذر؛ لأن كل واحد يرى فى الآخر تهديدا محتملا له. هذه هى خاصية مجتمعنا هذه الأيام، الكل يحذر من الكل.

(٢٩)

الإحساس بالانعزال يتبعه إحساس بالتهديد والخوف، وينشأ هذا الإحساس عندما يتضاءل إحساسنا بالانتماء إلى بشرية واحدة. والتجمع مع أقراننا من البشر ويزيد الإحساس بالفردية والانعزالية وتتضح بصورة جلية فى الطبقات المثقفة، فالمثقفون هم من يميلون إلى العزلة والانفرادية وأول من يتجنبون أقرانهم من البشر. بينما تحافظ الطبقات العاملة على دفء مشاعر التوحد بصورة أطول قليلا، لكن مؤقتة، حيث يفقدونها أيضا بعد ذلك حين يحدث التغير الطبقى، فالانتقال من طبقة لأخرى يخلق كراهية للطبقة الأدنى، وهذه علامة على أن الشعور بدفء الانتماء إلى طبقة واحدة قد انهار وأصبح كل إنسان يفكر فى ذاته بانعزال.

(٣٠)

فى "عشيق الليدى تشاترلى" لدينا رجل وهو السيد كليفورد، الذى كان انعزاليا بطبعه، وقطع تماما كل ما يصله برفاقه من الرجال والنساء فيما عدا من يستخدمهم. كل الدفء قد ذهب عنه بالكامل. كان قاسيًا ولا يعرف ما يعنيه التعاطف والشفقة وظل على ما هو عليه حتى فقد المرأة التى اختارها. أما الرجل الآخر فقد كان لديه دفء الرجل، ولكنه طورد وتحطم. وكان التساؤل عما إذا كانت المرأة التى لجأت إليه سوف تقف بجانبه؟!

لقد تم سؤالى كثيرا عما إذا كنت قد جعلت كليفورد مشلولاً بالقصد وما إذا كان ذلك رمزيا. أصدقائى الأدباء قالوا إنه كان من الأفضل جعله كاملاً وسويًّا على أن تتركه المرأة لغلظته.

فيما يتعلق بما إذا كانت الرمزية مقصودة؟ أنا لا أعرف، لكن بالتأكيد ليس فى البداية حين تم خلق شخصية كليفورد. عندما خلقت شخصية كليفورد وكونى، لم تكن لدى فكرة عما سيكونان عليه أو لماذا؟ لقد جاءا على النحو الذى رأيته ككاتب. ولكن الرواية كتبت من البداية للنهاية، ثلاث مرات، وبعد أن قرأت النسخة الأولى، لاحظت أن عجز كليفورد جاء رمزيا بالشلل. كان الشلل الأعمق لمشاعره وأحاسيسه المميزة لنوعيته من الرجال ولطبقته حاليا. أدركت أنه استغلال غير عادل لـ "كونى" أن يكون مشلولا. لقد جعل ذلك تركها له يبدو سوقيا بدرجة كبيرة، ولكن الرواية جاءت على النحو الذى جاءت عليه وبالتالى تركتها على حالها. وأما أن نسمى ذلك رمزية أم لا، فإن الرواية بمدلول أحداثها جعلتها رمزية.

هذه الملاحظات التى أكتبها الآن بعد سنتين تقريبا من الانتهاء من الرواية ليس مقصودا بها شرح أو توضيح أى شىء وإنما فقط كان لجعل المعتقدات العاطفية التى ربما كانت ضرورية خلفية للكتاب. كان من الواضح أن الكتاب يعد مغايرا للمألوف وبالتالى كان علىّ تقديم أسباب لسلوك شخصياته، حيث إن الرغبة السخيفة فى إرباك الشخص العادى لا تستحق التعليق. إذا كنت قد استعملت الكلمات التى تسمى فاضحة، فهناك سبب، فنحن لن نحرر الحقائق الجنسية من الحظر المفروض، إلا إذا أعطيناها اللغة الجنسية واستعملناها فى مكانها الصحيح.

إن أعظم الكفر ضد الحقيقة الجنسية هو "اعتبارها عملا مشينا!!" مع أننا جئنا من خلاله. المحافظون التقليديون يحرصون على عدم الخوض فى المسألة الجنسية مع أولادهم واعتبار ذلك من المحرمات لكنهم ينسون أن الغريزة هى المعلم الأول، وهى التى تقود أبناءها للحقائق دون معلم.

(٣١)

أخيرا، هناك المراسلات التى تشكو من أن النسخ المقلدة أو بعضها رديئة ومليئة بالأخطاء. النسخة الأولى الأصلية التى طبعت فى فلورنسا مغلفة بغلاف مقوى، من ورق أحمر قاتم وعليه رسم العنقاء (رمز الخلود – الطائر الذى يبعث من جديد من داخل النيران) والرسم باللون الأسود وعلى الغلاف ورقة بيضاء للعنوان ولكن بالخلف. الورق جيد، باللون الكريمى للورق الإيطالى ولكن الطباعة على الرغم من جودتها، فقد كانت عادية والتجليد هو المعتاد للمطبوعات الموجودة فى فلورنسا، لا توجد خبرة زائدة فى صناعة الكتاب وعلى الرغم من ذلك فإنه ممتع وأكثر إمتاعًا من كثير من الكتب "الأرقى".

لكن هناك الكثير من الأخطاء الإملائية؛ لأن الكتاب قد تم جمعه فى مطبعة إيطالية صغيرة، تخص أسرة ليس من بين أفرادها من يعرف كلمة بالإنجليزية. لا أحد منهم كان يعرف الإنجليزية على الإطلاق؛ وبالتالى فلم يكن الكمال واردا. كان القائم بالطبع يقوم بالعمل وهو سكران أو شىء من هذا القبيل، فتتراقص الكلمات أمام عينيه لذلك كان متوقعا أن تظهر بعض الأخطاء وإنها لرحمة أنها ليست أكثر من ذلك.

ثم كتب أحدهم فى الصحف مشفقا على الرجل المسكين الذى قام بالطباعة وهو مخدوع لعدم معرفته النص. لم تكن هناك خدعة على الإطلاق. كان رجلا ذا شارب أبيض وقد تزوج لتوه للمرة الثانية، وقيل له إن الكتاب يحتوى على الكلمات كذا وكذا بالإنجليزية، ويصف أشياء معينة لا تطبع. فسأل الرجل "وماذا فى ذلك؟" وعندما قيل له أجاب بعدم اكتراث الفلورنسيين. "ولكننا نفعل ذلك كل يوم!"، وبدا له أن ذلك أنهى الأمر تمامًا. وحيث إنه لم يكن شيئا سياسيا أو شاذا فلم يكن هناك ما يستحق الاعتبار.



الأرستقراطيــة

(١)

كل شىء فى العالم يتناسب مع كل شىء آخر، وكل شىء حى على علاقة بكل شىء حى آخر.

ولكن الخليقة تتحرك فى دورات وبدرجات. هناك الأرقى والأدنى فى دورات الخلق، والأعظم والأقل فى درجات الحياة.

كل شىء يصل إلى النقاء فى دورة وجوده، يكون نقيا ويكون هو ذاته، وفى نقائه لا يقبل المقارنة. ولكن بالنسبة للأشياء الأخرى، إما أن يكون أعلى أو أدنى، وبدرجة كبيرة أو صغيرة. علينا أن نسلم بأن زهور الأقحوان أكثر تطورا من السرخسيات حتى لو كانت شجرة سرخسية. الأقحوان ينتمى إلى رتبة أعلى من السرخسيات فى سلم تطور النبات.

النحلة أطول حياة من نبات الأقحوان لأنها من رتبة حياة أعلى من زهرة الأقحوان على نقائها.

الطيور أرقى من النحل وأطول حياة، والثدييات أرقى من الطيور، والإنسان هو الأرقى والأكثر تطورا والأكثر ذكاءً وإدراكا والأطول حياة من بين الثدييات، وهو أعلى درجة فى سلم التطور.

فى داخل النوع الواحد توجد اختلافات، البلبل أرقى وأنقى وأطول حياة من العصفور، والببغاء أكثر تطورا من الحمام.

توجد فى البشر فروق لانهائية، وهى فروق فى الدرجة وأيضا فى الطراز. الرجال مثلا يختلفون فى الأعمار، فهناك رجل أطول عمرا من آخر، وهناك من هو أكثر ذكاءً، ومن هو أكثر طولا، ومنهم من هو أكثر رجولة، ومن هو كثيف الشعر وهكذا.. إذن الفروق لانهائية.

وحيث إن من هم أدنى أكثر بكثير ممن هم أسمى، فعندما جاء عيسى سعى الذين هم أدنى إلى أن يرثوا الأرض.

وفى مواجهة عالم من المتكبرين والرومان الأنانيين، اعتقد عيسى أن النقاء والفقر هما شيء واحد. كانت غلطة قاتلة. النقاء أحيانا ما يكون فقيرا، ولكن الفقر فنادرا ما يكون نقيا. الفقر عادة ما يكون مجرد نتيجة لغياب عنصر طبيعى، الافتقار للشجاعة هو جبن، والافتقار للذكاء غباء، الافتقار للمال هو حياة فقيرة، وصفات فقيرة، والفقير فى الحياة هو الأشد فى عدم النقاء والذى من السهل أن يتخلى عن مبادئه. القليل من الرجال الأغنياء فى الحياة والأنقياء فى القلب أخذوا النقاء على أنه الفقر، فوفقًا للتعاليم المسيحية. "البر أبقى لأنه عطوف. لا حسد فى البر. البر لا يُبتغى لذاته ولا تنتفخ أوداجه". هذه كلمات الرجولة النبيلة.

(٢)

وحدث ما كان لا بد أن يحدث، فقد ترك الرجال ذو القلوب النقية الصراع من أجل المال والسلطة لغير الأنقياء.

ولا يزال النداء "ملكوت السماء هو فى داخلكم" يفعل فعله القوى فى قلوب الفقراء، ولا يزال الفقير يريد ملكوت السماء أكثر من أى شيء، ثم بدأ الأنقياء يفقدون الثقة فى ملكوت السماء حيث "لا ملكوت سماء لإنسان جائع" كما يقولون.

كانت هذه غلطة وسقوط فى عدم النقاء؛ لأنه حتى لو أننى مت من الجوع، فإن ملكوت السماء فى داخلى وأنا فى داخله، إذا كنت أؤمن به عن حق.

ولكن ما إن قال الإنسان إنه "لا ملكوت سماء لإنسان جائع" إلا وبدأت الروح تموت فى الإنسان.

العقيدة القديمة تنص على أن كل الأرواح سواء فى عين الله، والعقيدة الجديدة هى أن كل البشر يجب أن يكونوا سواءً فى عيون الناس. أن يكونوا سواءً تعنى أن يكونوا متساوين فى الملكية، والملكية تعنى المال.

وهكذا أصبح المال هو المطلق الوحيد، وأصبح الإنسان مالكًا للمال، والمطلق والإله وملكوت السماء مفردات تعنى جميعها المال، وأصبحت العبارة "ملكوت السماء فى داخلكم" تعنى الآن "المال فى جيوبكم"، وأصبحت "وليكن السلام فيكم كالنهر" تعنى الآن "ولتكن رؤوس أموالكم توفر دخلاً كبيرًا وأمنا".

الآن توجد أرستقراطية جديدة، أرستقراطية عملية وغير غامضة هى أرستقراطية المال. إذا كنت تملك مليونا من الجنيهات الذهبية، فأنت من النبلاء، وإذا كنت تملك خمسمائة ألف، فأنت لورد!

"فى بلدى، كلنا ملوكا ولوردات" كما قالت سيدة أمريكية بعد أن أحست بالسأم من التعالى البريطانى. لقد كانت على حق، فكلهم من الممكن أن يصبحوا ملوكا ولوردات بخمسمائة ألف دولار وبدونها سيظلون من العامة.

ومع ذلك توجد أرستقراطية طبيعية هى أرستقراطية المولد. والأمثلة على ذلك القيصر ولهلم والإمبراطور فرانز جوزيف والقيصر نيكولاس، وهؤلاء لم يكن لهم سوى نبل المولد. وكانت الحياة كلها قائمة على الأرستقراطية الطبيعية قبل أن تسود أرستقراطية المال. المليونير يكتسب أرستقراطيته دون نبل مولد، ولكن نبل المولد قد لا يوفر العيش دون دولارات. وعلى ذلك فوفقا للقانون الواقعى، الدولار له نبل المولد.

إذن فمن أى شىء تتكون الأرستقراطية الطبيعية؟

ليس من الذكاء فقط، فالعقل مجرد أداة، ولقد كان ينظر إلى الأساتذة العلماء منذ عهد البطالمة على أنهم الطبقة العليا من الخدم، كما أن للمليونير عقلا أيضا، وكذلك للرئيس ولرئيس الوزراء، فكلهم ينتمون إلى الطبقة العليا من الخدم، فهم يخدمون العامة.

يقول الكونت كيذرلنج: "الأرستقراطية الطبيعية لا تكون بما لا يستطيع الإنسان أن يفعله ولكن بما هو عليه". ولسوء الحظ، ما يكون عليه الإنسان يقاس

بما يستطيع أن يفعل حتى فى الطبيعة؛ فالبلبل لكونه بلبلا يستطيع الغناء وهو ما لا يستطيعه العصفور. إذا كنت شيئا فستفعل شيئا.

(٣)

السؤال هو: ما الشيء الذى يستطيع الإنسان عمله؟ هل يستطيع أن يضع فينا حياة أكثر، ويطلق فينا شلالات الحيوية؟ أم يستطيع فقط أن يطعمنا ويعطينا المال والتسلية؟

إعطاء الطعام والمال والتسلية يقوم بها بحق طبقة الخدم. أما تقديم الحياة فينتمى للأرستقراطيين. إذا صنع الإنسان حياة بالفكر أو بالفعل فهو أرستقراطى. قيصر وشيشرون كانا وفقا لذلك أرستقراطيين. لو لم يوجدا، لكان القرن الأول قبل الميلاد أقل حيوية وحياة. وأنطونيو الذى كان أكثر حيوية وعافية بالمقارنة بهما، كان بلا أهمية. لقد أشعل قيصر وشيشرون الشعلة.

كيف؟ من السهل أن نسأل عن أن نجيب!

شيئا واحدا فعلاه، لقد وضعوا الرجال فى علاقة جديدة مع الكون، فقد فتح قيصر بلاد الغال، وترك لمعان الثلج والجليد وخشونة الشمال، وأعاد بعث الروح المتخشبة لروما. وكان شيشرون يستكشف الطبيعة الأخلاقية للإنسان ويضع الإنسان فى علاقة جديدة مع الإنسان.

ولكن قيصر كان أعظم من شيشرون. لقد وضع الإنسان فى علاقة جديدة مع الثلج والشمس. ربما كان شيشرون شديد التعلق بالأنا، فلم يعرف الأسرار التى كان يتحرك حولها. ولكن قيصر كان عظيما فوق الأخلاق.

حياة الإنسان مكونة من ارتباطات بكل الأشياء فى الكون. فمن استطاع إقامة ارتباط جديد بين الإنسانية والكون يكون مخلصًا. ولأن البشرية تستنفذ إمكانياتها الإنسانية دائمًا فهى تتدهور دائما بالتكرار الممل لكل شيء. والملل هو

علامة على ذبول الحيوية الإنسانية وانفصام الارتباط بالكون، ومن يجيء ليقيم ارتباطا جديدا، سواء أكان جنديا أم رجل دولة، شاعرًا، فيلسوفًا أم فنانًا، فهو مخلّص.

(٤)

عندما اخترع جورج ستيفنسون الآلة البخارية، قدم وسيلة للاتصال، ولكنه لم يغير العلاقة الحيوية للإنسان بالكون. ولكن جاليليو ونيوتن المكتشفان وليس المخترعين قد صنعا فرقا كبيرا، وكانت الطاقة التى أطلقاها فى البشرية عظيمة. ينطبق الشىء نفسه على بطرس الأكبر وفريدريك الأكبر ونابليون. وينطبق أيضا على فولتير وشيلى وورروسو. لقد أقاموا اتصالا بين البشرية والكون وكانت النتيجة انطلاقًا عظيمًا للطاقة. لقد ولدت الشمس من جديد للإنسان وكذلك القمر. بالنسبة للإنسان أصبحت الشمس مبتذلة ومعتادة، ثم يأتى المخلّص فتكون الشمس نفسها جديدة فى السماء. هذا لأن الشمس هى دائما شمس وراء شمس وراء شمس وهى شمس كل يوم سواء كانت هليوس أو ميتراس أو شمس الصين أو شمس براهما أو بيرو أو المكسيك، هى نفسها الشمس، غلاف الغازات اللامعة التافه الخاص بنا والذى هو فتيل شمعة!

إنها غلطتنا، فعندما أصبح الإنسان مبتذلا وتافها، فإن شمسه تكون مجرد الشمس المعتادة. عندما يكون الإنسان عظيما ورائعًا، تشرق شمس جديدة، شمس الصين وميتراس وبراهما من فوقه، ولا تمنحه الطاقة فى صورة حرارة وضوء فحسب بل تمنحه الحياة.

العالم بالنسبة لنا هو ما نأخذه منه. الشمس بالنسبة لنا هو ما نأخذه منها. فإذا كنا تافهين فلأن ما نأخذه تافها من الشمس النفيسة.

الإنسان يكون عظيما وفقا لعلاقته بالكون فى اتساعه وحيويته. البشر على علاقة بالبشر بما فى ذلك النساء، وهذا بالطبع شديد الأهمية، ولكن قد يعتقد المرء

أن ذلك هو كل ما فى الأمر، فقد يعتقد أن الحياة الخاصة بكاتب البنك هى أهم من الشمس والقمر والنجوم، وكما نقرأ للنقاد، قد نتخيل أن أى شخص تافه يرفع صوته بالموافقة أو الاعتراض هو قيصر الذى يحكم ويقضى فى الأحكام. هذه سمات العصر الديمقراطى، عصر التصفيق الرخيص الذى يحكم حكم الغراب على كل الأمور العظيمة.

وهذه هى النتيجة! إننا بغرورنا جعلنا الإنسان وحده هو مقياس الكون. مع أن الكون شديد الاتساع والشمول، وهو الذى يقيس الإنسان بدقة على أنه الكلب الذى يعوى وذيله بين رجليه، والشمس العظيمة والقمر يسخران منه ويدفعانه إلى العدم.

(٥)

الإنسان بالطبع، لكونه مقياس الكون، يقاس بمقارنته بالإنسان؛ لأنه له بالطبع علاقة حيوية فقط مع نوعه الصغير الرخيص؛ لهذا أصبح كالمصاب بالهذيان كما هو عليه الآن.

فى العصور القديمة، كان للإنسان علاقة حيوية بالإنسان وبالمرأة، وفوق كل ذلك بالبقرة والأسد والثور والقط والنسر والخنفساء والثعبان، وأيضا بالنرجس والأنتيمون والريحان وشجرة البلوط والزيتون ونبات اللوتس. وعلاقة أخرى بالماء والسحاب وقوس قزح، وفوق كل ذلك بالشمس والقمر والليل الحى والصبح الحى.

هل تظن أن الحقائق الكونية الكبرى وكبش آمون هى مجرد رموز لشىء إنسانى؟ هل تظن أن الرموز العظمى.. كالتنين والثعبان، والثور، لا تشير إلا إلى صفات وخصائص للإنسان القزم؟ بالتأكيد أن ظنك هذا سخف صبيانى يكاد يكون مضحكًا.

آمون، الكبش العظيم، هل تعتقد بأنه يقف شامخا وحيدًا فى الكون بدون موافقتك، أيها الإنسان الصغير الرخيص؟ ولأنه هناك، هل تعتقد بأنك أنت الذى روضته بجبروتك الخاص؟ آمون، الكبش العظيم وميثراس الثور العظيم، هل تعتقد أيها الإنسان الأبله الجالس فى مقعد وثير بملابس داخلية من صوف الغنم، وتأكل لحم الخنزير ولحم البقر تحت زخارف الكريسماس أن آمون وميثراس وكل شجرة الحياة قد اخترعت لتساهم فى سرورك؟

أيها الأبله المصاب بعسر الهضم، تستطيع أن تأكل لحم الخنزير ولحم البقر، وتقتنى قطا سمينا يجلس على ركبتيك؟ هل تعتقد وأنت ترتدى ملابس داخلية صوفية أنك تلبس جبروت آمون؟

ألم يخلق الكبش قبل أن توجد أيها الثرثار؟ ألم يأت جبارا من بين أطناب الفوضى، أليس إلى الآن يملك الجبروت؟ بالنسبة لك هو مجرد لحم تتناوله، وفطنتك الرائعة تجعل علاقتك به فى حدود ذلك. وأبعد من ذلك، هو مجرد لا شىء!

ألا ترى، أيها الأبله أنك فقدت الكبش تمامًا من حياتك مع أنه اتصال عظيم وتدفق حياة عظيم؟ وشجرة البلوط العظيمة أليست حية؟ ألا تعيش حيث لا تعيش أنت؟ وبجلال الصمت الذى لن تستطيع اختراقه، على الرغم من أنك تقطعها إلى قطع تطعمها للنار؟ إنها حية أكثر منك. ولأنها ضخمة وقوية وحياة صامتة، كان يجب عليك أن تعبدها.

يجب أن تسعى إلى علاقة حياة معها. ألم يكن الرجل الإنجليزى القديم له علاقة حية وصوفية بشجرة البلوط؟ ألم يكن أمراء البحر هم الذين صنعوا منها سفينتهم؟

ألا تعتقد أن الشجرة - الآن وللأبد - مقدسة ومهيبة؟ لقد انقلبت الشجرة عليك وأنت تندفع الآن وبغباء إلى دمارك.

هل تعتقد أن الثور تحت تصرفك؟ إن دماء الثور التى تجرى فى شرايينك هى سم لك، حتى اللبن الذى تشربه هو دم هاتور.

(٦)

إن بقرتى سوزان تجعلنى أرى الحقيقة، فحين أراها تخرج من بوابة حظيرتها بسوادها الفاحم إلى الشمس، يتوقف قلبى وأنحنى لها محييا هيبتها؟ ألا تتسع حياتى عندئذ وتتعمق بالاتصال بحياتها، وتدق بنبض دماء الثور. هذه حياتى، ونبض دماء الثور فى دمى؟

عندما يصيح الديك الأبيض عند المدخل، من الذى يصيح؟ قد يكون مجرد ديك لا تتعدى قيمته دولارا ونصف، ولكنى أنصت له لأنه يذكرنى بالفجر القديم للخليقة وصياح الروح القدس عاليا فى ضوء الفجر. فى كل مرة أسمعه تتدفع شلالات الحيوية فى دمائى وتبعث فىّ الحياة.

وهكذا، ودرجة بدرجة، تتسع العلاقة بين الإنسان والكون إلى أن تصل إلى الشمس والليل. طبيعة الوجود تعنى فناء كل المراتب الأدنى للحياة. هكذا ينظر الإنسان إلى الديك الأبيض وإلى البقرة وإلى الكبش على أنها صالحة للأكل فقط، وأن الله خلقها لهذا الغرض! ولكن ما دمت أنا كائن وداخلى روح، فإن علىّ الاتصال بينى وبين هذه الأرواح، وكل الأشياء. ومادمت أنا هو أنا، كائن فخور وفى مكانه، فلى ارتباطات بالكون الذى أعيش فيه وأعرف مكانى منه. عندما يصيح الديك الأبيض لا أسمع نفسى أصيح، ولكن أسمع من هو ليس أنا، أسمع صوت الروح القدس، وعندما أرى شجرة الصنوبر تتجه نحو السماء الزرقاء من أطرافها أقول: "أنظر للصمت القوى المخصب للشجرة الرائعة! الله فى الأيكة كالقبضة المنطبقة الداكنة". هكذا الحال مع كل شىء طبيعى، له علاقة حيوية بكل الأشياء الطبيعية. الماكينة فقط هى تشذ عن قاعدة العلاقة الحيوية؛ لأنها من

الحديد، ومع ذلك فهى تتحرك بتطويع قوة طبيعية هائلة هو بخار الماء ضد قوة أخرى بحيث يؤدى إلى توليد الطاقة الميكانيكية، ويجعل عجلات القاطرة تدور.

(٧)

هل تدور الأرض كالعجلة بالطريقة نفسها؟ بالقطع لا! فى دوران الأرض يوجد توازن غير ساكن، توازن ديناميكى يعود إلى نسبية الأرض والقمر والشمس. كل شىء طبيعى له علاقته الحية الخاصة بكل شىء طبيعى. النمر بخطوطه الذهبية والسوداء يرقد مادًا أطرافه فى اتساق نادر بين كل ما فى النهار وكل الليل. إن له علاقة غامضة بالأشجار والأرض والماء والإنسان والثعابين والغزلان والنمل، وبالطبع بالأنثى، وحيث يتمدد هكذا، فإنه يتمدد بين الصبح الحى والليل الحى، الثنائية التى لا تنقضى للخليقة. إنه دائما متوثب بروح الحياة.

الشىء نفسه مع الإنسان. حياته مكونة من علاقة بكل الأشياء، بالأحجار فى الأرض، فى الشجر والزهور، فى الماء والحشرات والأسماك والطيور، بالمخلوقات والشمس، وبقوس قزح، وبالأطفال وبالنساء، وبغيره من البشر. ولكن علاقته العظمى والنهائية كانت مع الشمس، ومع الليل والقمر والظلام والنجوم. فى علاقته العظيمة النهائية يرفع جسده للشمس وللقمر والنجوم وللفضاء بين النجوم. الشمس، هى الشمس المعتادة التى تسطع بالنهار، والتى يسميها العلماء كرة من الغازات الملتهبة، وما أطلق عليه الإغريق هليوس!

الشمس كما أقول لكم حية، وأكثر حياة منى ومن الشجرة. قد يكون بها غازات ملتهبة كما أن لى شعرا وللشجرة أوراقا، ولكنى أقول لكم إنها الروح القدس فى إشراقها الكامل، حية تسعى فى السماء. وعندما أتجه بجسدى إلى السماء وأصبح كالشمس، ثم نتقابل، عندئذ أصل فى النهاية إلى ذاتى، لأن أكون متحدًا مع الكون. وعندما تسطع الشمس فى الصباح، أنا أيضا أسطع معها وأكون سيدا على العالم كله.

فى الليل، عند ظهور القمر والنجوم والفضاء بين النجوم أصل إلى ذاتى بالليل؛ لأن الليل حياة لا يمكن أن توصف، والروح القدس كالنجوم، تُرى كما نرى نحن الليل على الأرض. فى هذه العلاقة المتجاوزة، مُنح الإنسان ما لا يستطيع أن يصفه أو يدركه.

لحظة توهج الإنسان القصوى للحياة النشطة تكون عندما ينظر للأعلى ويصبح متحدًا مع الشمس ويكون اتحاده مع الشمس كاتحاد المرأة بالطفل.

(٨)

هذا هو ما يجعل الإنسان سيدا أرستقراطيا فى الحياة. اللحظة القصوى التى تتوهج فيها الحياة الساكنة هى عندما ينظر الإنسان إلى الليل ويذهب إلى الليل فيصبح الليل كالمرأة التى تتداخل فيه ومعه.

الأرستقراطى الحقيقى هو الإنسان الذى مر بكل العلاقات وقابل الشمس، وأصبحت الشمس معه كالإكليل.

كان قيصر كذلك، لقد مر بالعلاقات العظمى واتحد بالشمس؛ فأصبح رجل الشمس، ولكنه كان بلا وعى. لم يكن يدرك أن الشمس ليست فى متناوله وأنه فقط بعلاقته بها لن يصبح إلهًا، لقد أراد قيصر أن يكون الإله!

الإسكندر كان أكثر حكمة. لقد جعل من نفسه إلها بين البشر. ولكن عندما نزف الدم من جرح فيه قال "انظروا، إنه دم إنسان كغيرى من البشر".

الشمس تجعل الإنسان سيدا أرستقراطيا وإلها، ولكن فى ائتلافه مع الليل والقمر، يدرك الإنسان حقيقة خلود الروح. لن يكون الإنسان إنسانا بكل روعته إلى أن يتجاوز كينونته الإنسانية، ويتجاوز الرجولة والأنوثة فى مساره للاتحاد بالشمس والليل. الإنسان الذى يستطيع أن يلمس أشعة الشمس، كما لمست المرأة ثوب عيسى، يصبح سيدًا ومخلِّصًا، فمع الشمس يكون شيئًا آخر، ليس بالرجل ولا بالمرأة،

أى شىء غير محدد الجنس، مخلوق آخر ذو طبيعة مختلفة عن الطبيعة الإنسانية التى كان عليها.

كل مخلوق فى ذروة عظمته يتجاوز الخليقة ويكون وحيدًا فى وجه الشمس وسكون الليل. فالشمس هى النهار، والليل هو الظلام وهما سرمديان، بعد ذلك يتجاوز كل علاقة أخرى، حتى العاطفة المشبوبة للحب والجنس تُنسى تمامًا وتختفى نهائيا. كل علاقة حتى علاقة الحب الخالص تكون أكثر اقترابًا من اندماج الإنسان بالشمس والقمر والليل. وفى لحظة اندماجه بالشمس، ينسلخ من كل شىء ومن ذاته.

الأرستقراطى الخالص هو من تكون الشمس فى وجهه وفى جسمه وفى صدره، والقمر فى بطنه. عندئذٍ يكون أول الأرستقراطيين، والفائق فى أرستقراطية الحياة.

(٩)

كونك حيًّا يشكل أرستقراطية لا تجاوز لها، وحين تتحد بالشمس تكون حياة وتصبح ملكًا سواء أقر الناس بذلك أم لا. فى مواجهة الشمس، ترتقى الحياة فى دورات وبدرجات. الأكثر حياة هو الأعلى، والأدنى سيخدم الأعلى، وأكثر حياة تعنى أكثر حيوية.

ربما كان دستوفسكى أكثر حيوية وحياة من أفلاطون؛ فقد أتم دورة حياة كاملة وأعطى المفتاح لدورة أرقى. ولكن المفتاح لا يعطى لأى أحد، فلا بد أن تتجاوز المسارات الأولى أولا.

كل الخليقة تشارك ويجب أن تشارك فى الوصول إلى دائرة أوسع وأكثر حيوية من الحياة. هذا هو هدف العيش. من يقترب أكثر من الشمس هو القائد، ويكون هو الأرستقراطى من بين الأرستقراطيين مثل دوستوفسكى الذى أتم دورة حياة كاملة.

الصحراء تجعل الصبار شوكيا. ولكن الصبار لا يزال ينتج زهورًا من بين الأشواك، كذلك الخوف يجعل من القنفذ كتلة أشواك. هناك فرق بين الخوف الذى يحكم الجموع الديمقراطية حاليا وخاصة الجموع الرأسمالية، وروح المحافظة على النوع القوية التى تجعله يقاوم الخوف من أجل بقائه.

الجمع الديمقراطى، سواء كان رأسماليا أو بروليتاريًا، ما هو إلا قنفذ ضخم، طماع، ثقيل الحركة لقصوره الذاتى. حتى البلشفية هى القنفذ نفسه لا شىء عندها سوى الطمع.

للصبار زهرة يقاتل من أجلها. ولكن ما الذى لدى الديمقراطية لتقاتل من أجله، ضد العناصر الحية فيما عدا المال والمال فقط!

لقد تجمع العالم داخل الوضع الذى وصل إليه وأنبت الأشواك ليحمى جسده الضخم، وهو يتغذى على امتصاص رحيق الشجرة الصغيرة للحياة ويقتلها من قمتها إلى جذرها.

القنفذ الفعلى، على الرغم من الأسطورة، لا يستطيع أن يطلق أشواكه ولكن هناك بشر لهم أشواك مثل القنفذ الحقيقى، يستطيعون أن يطلقوا أشواكهم حتى فى وجه الشمس.

(١٠)

كفانا صراخًا من أجل الإنسانية الديمقراطية. لقد حان الوقت لنبدأ فى التعرف على أرستقراطية الشمس. أبناء الشمس سيصبحون ملوك الأرض. سوف يشكلون أرستقراطية جديدة من رجال وصلوا إلى الشمس. رجال الشمس، سواء كانوا صينيين أو سودًا أو بيضًا أو هندوسًا أو إسكيمو، إذا لمسوا الشمس فى السماوات سيكونون سادة الأرض. هم معا سوف يشكلون أرستقراطية العالم الجديدة، وفى السنوات القادمة سيحكمون العالم، بأخوة الشمس الحية.



طوبى للأقوياء

(١)

عهد الحب ينقضى وعهد القوة يعود من جديد. انقضى صباح الديمقراطيـــة وجاءت لحظات الغروب التى تسبق الليل الذى يوشك أن يحل.

قبل أن تأتى الظلمات علينا أن نحدد اتجاهنا، لقد آن الأوان لنبحث فى طبيعة القوة حتى لا نتعثر فى عهد جديد أو نسقط فى الفوضى والظـــلام ونحـــن نجتـــاز الحدود. نحن لدينا فكرة مشوشة عن الإرادة والقوة، وأنهما متطابقان. نحن نعتقد أن بإمكاننا أن تكون لنا إرادة القوة.

إرادة القوة يبدو أنها تعمل بأسلوب البلطجة، والبلطجة شيء مذموم وقبـــيح. الطغيان أيضا الذى يبدو لنا إلها للقوة قبيح هو الآخر، إنه يولد من رحـــم فكرتنـــا الخاطئة عن القوة، من الخطأ القديم قدم موسى، من الخلط بين القوة والإرادة، قـــوة الله وإرادته. نحن نتخيلهما شيئًا واحدًا. كل ما نحتاجه هو أن نفكر لحظـــة لنـــرى الاتساع الهائل للفرق بين الاثنين.

اليهود فى زمن موسى، وعلى الأخص فى زمن الملوك، نظروا إلى يهـــوه على أنه إله الإرادة، وهذا هو أصل كل الشرور، وهو أصل قديم جـــدا. فـــالإرادة ليست أكثر من أنها خاصية من خصائص الأنا. هى بمثابة قوة الإله أو الأداة التـــى تجعلها تسير. قد يكون للإنسان إرادة قوية، إرادة حديدية كما نقول، ولكنـــه يكـــون مجرد أداة ميكانيكية غبية.

(٢)

الأداة حتى لو كانت حديدية، لا إرادة لها، يجب أن توضع بها القـــوة. هـــذا ينطبق على من لديهم إرادة حديدية الكيفية بنفسها. ارتكب اليهود خطأ فادحًا بتأليـــه

الإرادة، الإرادة الأخلاقية للإله، وارتكب الألمان مرة أخرى خطأ تأليه إرادة الإنسان، إرادة القوة.

يوجد غباء واضح فى تأليه الإرادة وما يتبع ذلك بالضرورة من دونية من يفعلون ذلك، فهم جميعا مصابون بعقدة الدونية. القوة ليست كالإرادة على الإطلاق. القوة تأتينا من خارجنا بينما إرادتنا تخصنا وتنبع من داخلنا.

عندما يفتخر إنسان بشيء يوجد فيه يقع فى الغرور، والغرور أحيانا ما يعكس وجود عقدة الدونية. لو أن إنسانًا أو سلالة أو أمة كان لهم أن يصبحوا شيئا، فيجب أن تتوافر لديهم القدرة على الاعتراف بأن قوتهم تأتيهم من الخارج، وأنها ليست ذاتية الانبعاث بل تأتى كما تأتى الكهرباء، من مكان غير معلوم إلى مكان معلوم. لا جدوى من محاولة وضع نظرية لذلك. كل محاولات الجدال والتنظير تخنق العقل والقلب. نريد أن تبقى قلوبنا مفتوحة. وبالتالى نطرح جانبا أية نظريات أو أى جدال.

(٣)

الفكر من أكثر أدوات النفس حساسية ولكنه كالإرادة مجرد أداة، ويعمل فقط تحت ضغط الإرادة. بالإرادة والتفكير فعلنا كل ما نستطيع حاليا. كل ما نفعله أننا نرهق أنفسنا ونفقد حيويتنا والقوة التى نحيا بها، ووقفنا حائرين بين الإرادة والفكر. لقد حان الوقت لكى نبعد أيدينا عن رقابنا وأن نعرف جيدا ما نحن بصدده ونختار مسار أفعالنا بقلب ثابت.

أن نبعد أيدينا عن رقابنا ليس معناه إطلاق العنان لأفعالنا بلا ضوابط، فالإنسان خلق ليعيش حياته وليس لأى سبب آخر. والحياة ليست مجرد أيامٍ وسنوات يعيشها. هناك الكثيرون من الناس يبقون فى الحياة حتى يصلوا إلى سن متأخر لمجرد أنهم "باقون"، لكنهم لم يعيشوا ولم يعرفوا كيف يعيشوا، ولم يعرفوا هدفا للحياة.

يجب أن نعيش، ولكى نعيش يجب أن تكون الحياة فينا. يجب أن تأتى إلينا قوة الحياة. وحين تأتى الحياة إلينا من الخارج ويجب أن تظل قلوبنا مفتوحة لها. ولكن قوة الحياة لن تأتى ما لم نعش بحيوية. هذه هى النقطة الأساسية "من لديه سوف يُمنح"، من لديه الحياة سوف يُمنح حيوية الحياة بشرط أن يعيش بالطبع.

مرة أخرى، الحياة لا تعنى عددا من الأيام نعيشها. الملكة فكتوريا عاشت عددا كبيرا من الأيام ولكن إيملى برونتى كان لديها حياة وماتت بعد حياة قصيرة.

(٤)

العيش لا يعنى مجرد فعل أشياء وكفى، كالسعى وراء النساء أو زرع حديقة أو تشغيل ماكينة أو أن يصبح المرء عضوا بالبرلمان. ليس موسيقى أو سيارات أو الذهاب إلى المنتزهات لمجرد أن معظم الناس يفعلون ذلك. العيش الحقيقى هو أن تفعل ما تريد حقيقة، الذى تريده الحياة فيك، وليس ما تتخيل ذاتك العليا أنك تريد فعله، أن تعرف كيف تريد الحياة فيك أن تعاش من الأمور شديدة الصعوبة، إذ يجب أن يعطينا أحد دليلاً إرشاديا

هذه هى الممارسة الفعلية للقوة وهذا يحسم أمرين، الأول أن القوة هى الحياة التى تأتى إلينا، والثانى أن ممارسة القوة هى إطلاق حركة الحياة وهذا شديد البعد عن الإرادة.

قد يكون سهلا لأى ديكتاتور، سواء أكان لينين أو موسولينى أو بريمو دى ريفيرا أن يطلق النقود للتداول، ولكن من المستحيل أن يطلق الحياة للحركة فى شعبه.

وعلى الرغم من اضطرارنا للاعتراف بذلك، فإن لينين أطلق جزءًا كبيرا من الحياة للحركة من أجل البروليتاريا الروسية. كانت البروليتاريا الروسية كالطفل الذى ظل حبيسا لفترة طويلة واشتاق للحرية، وبعد أن تحرر كان من الجنون أن يحتفظ ببيت له لأنه قد تحرر من سجنه وأصبح بدون بيت وبلا أب وبلا أم.

أما بالنسبة لنا نحن الإنجليز، وبالنسبة للأمريكان أو الفرنسيين أو الألمان، فلقد احتفظنا ببيت لنا لفترة طويلة ولم يعد الأمر مثيرا بعد كل هذا الزمن، وبالتالى فإن لينين لن يقدم لنا جديدا. فهو لن يقدم الحياة لنا على الإطلاق.

(٥)

القوة هى شيء يجب أن تحترمه و تقدره قبل أن تحصل عليه. إنها ليست الرئاسة أو استئجار خادم أو التحكم فى من هو أدنى منك أو إصدار أوامر صاخبة وتنفيذ تلك الأوامر، أو طرح خصمك أرضا. هذه ليست قوة! القوة: هى أن تكون قادرًا.

الجبروت: هو القدرة على الفعل بقوة، هو أن تفعل أى شيء. لكن من أين نحصل على القوة أو الجبروت أو المجد أو الشرف أو الحكمة؟

هل من ديكتاتورية لينين أو موسولينى أو ريفيرا أو من أى شيء آخر سياسى؟ لا؛ لأنها يجب أن توجد فى الناس قبل أن توجد فى السياسة. هل حقا نريد القوة؟ الجبروت والمجد والشرف والحكمة؟ لو كنا نريد فيجب أن نبدأ فى الحصول عليها، كل فرد لنفسه. أما إذا لم نكن نريد، فمن الأفضل أن نستمر فى السعادة كالملوك وألا نفكر فى هذه الأشياء، فالدنيا مليئة بالعديد من الأشياء الأخرى التى تسبب لنا سعادة. كل ما علينا أن نكون سعداء، سعداء كالملوك، لكن أى ملوك؟ يجب أن نكون حذرين.

عن نفسى أنا أريد القوة، ولكنى لا أرغب فى أن أكون رئيسًا لأحد. أريد الشرف، ولكنى لا أرى أية أمة أو حكومة بمقدورها أن تمنحنى إياه. أريد المجد، ولكن لتحفظنى السماء من البشر. أريد الجبروت، ولكن ربما كنت أملكه.

أول شيء بالطبع هو أن يفتح المرء قلبه لمصدر القوة والجبروت والمجد والشرف. هذا يعتمد على أى الأبواب التى سيفتحها المرء فى قلبه. تستطيع فتح أبواب التواضع أو أبواب الكبرياء أو كليهما لترى ماذا سيحدث. ولكن افتح كليهما وتحمل التبعات. ضع حراسا على كل بوابة لتمنع دخول الكاذبين والطماعين

والأفاقين. مهما كنا أذكياء وأغنياء ومحبين وخيرين وروحانيين فإن ذلك لا ينفعنا على الإطلاق. القوة الحقيقية تأتى إلينا من الخارج. الحياة تأتى إلينا من الخلف حيث لا نستطيع الرؤية، ومن أسفلنا من حيث لا نستطيع الفهم. وما لم نسلم بأننا نحصل على قوتنا وجبروتنا وشرفنا ومجدنا من ما هو غير مرئى وغير معروف، فسنستمر فارغين. قد يكون باقى لنا الكثير من الأيام، ولكن صفيحة فارغة تعيش أكثر مما عاش الإسكندر.

(٦)

إذا أردنا القوة يجب أن ننحى جانبا إرادتنا الخاصة، وغرورنا الذاتى ونقبل القوة من الخارج. وما إن نقبل القوة من الخارج إلينا، يجب أن نلتزم بها وألا نهتكها. الشجاعة والانضباط والشحذ الداخلى هى الشروط التى وفقا لها ستلازمنا القوة. وبين الشجعان من الناس سيكون هناك تواصل للقوة قبل تواصل الحب، وتواصل القوة لا يمنع تواصل الحب. هو دائما يحتويه. تواصل الحب ما هو إلا جزء من التواصل الأكبر للقوة. القوة هى الخاصية الأسمى لله والإنسان، قوة السبب وقوة الخلق وقوة الفعل وقوة الصنع وقوة التدمير. ومن بين كل هذه الأمور ينبع الحب ويكون الحب هو العلاقة والرابطة السامية بينهما وبين أولئك الذين وفقا لدوافع فردية يهرعون لتدمير كل ما يجب تدميره؛ ليحل محله ما هو جدير بالوجود والبقاء داخل تواصل القوة.

الحب قد يكون مجرد علاقة، وفى العلاقة الخالصة لا يمكن أن تكون هناك سوى المساواة أو على الأقل تعادلية. ولكن القوة هى أكثر من مجرد علاقة. إنها الكهرباء بدرجات مختلفة. البشر إما أقوياء أو ضعفاء ولا نعرف كيف ولماذا. ولكن الأمر هو هكذا. وتواصل القوة سيكون دائمًا تواصلاً بين أشياء متفاوتة.

وفى النهاية كما فى البداية، القوة هى التى دائما تحكم العالم. يجب أن يكون هناك حكم. والقوة فقط هى التى تستطيع أن تحكم. الحب لا يستطيع ولا يجب أن

يسعى للحكم. قاعدة أن الحب يحكم المعسكر والمحكمة والقبر هى مجـرد كذبـة. القوة تحكم وستحكم دائما؛ لأن القوة هى التى خلقتنا جميعا. فعمل الحب فـى حـد ذاته من أفعال القوة وهو أصيل فينا. بينما القوة فقد منحت لنا.

ما أن يكون هناك فعل، حتى فى الحب، فإنه قوة؛ لأن الحب فى ذاته مجرد علاقة. ولكن فى عصر كعصرنا تغير معنى القوة وقل احترامها؛ لأن هناك قـوة زائفة حلت محلها وهى قوة المال.

(٧)

قوة المال هى قوة تقوم على الحسد والطمع الإنسانيين ولا شىء غير ذلـك. وبالتالى فالأمم تصبح أكثر حسدا وطمعا كل يوم. بينما ينزف الأفراد فى جبن مـا يسمونه حبا. يطلقون عليه حب وسلام وخير وتراحم عندما يسود العجز والخوف، ولكنهم فى الحقيقة جشعون وحاسدون.

القوة الحقيقية تتميز عن القوة الزائفة التى هى جمـاع بعـض الأمـراض الإنسانية التى توجهها وتغذيها الأحقاد. أما القوة الحقيقية فـلا تنتمـى إلينـا. لقـد أعطيت لنا من الخارج. حتى أبسط صور القوة وهى القوة الجسدية ليست خاصـة بنا لنفعل بها ما نشاء، كما حدث مع شمشون.

ولكن القوة منحت بدرجات متفاوتة وطرز متباينة لناس مختلفة. لقد كانـت دائما على هذا النحو وسوف تظل كذلك. لن توجد أبدا مساواة فى القوة بل سـيوجد دائما الاختلاف فى درجاتها.

حاليا، حيث لا قوة إلا قوة الجشع الإنسانى والحسد، وحيث أعظـم الرجـال فى العالم هم على شاكلة السيد فورد، الذى يستطيع إشباع الشهوة المجنونة لاقتنـاء سيارة، أو على شاكلة رجل المال الذى يستطيع أن يحلـق بأجنحـة الجـشع إلـى الأعالى ويستطيع أن يجعل من الطمع أمرا روحانيا.

هم يتحدثون عن "الفرص المتساوية" ولكنها أكذوبة، وأكذوبة مضحكة. إنها القصة القديمة للثعلب الذى دعا طائر اللقلق على الغداء وهو يخطط لالتهامه، فى حين أن الطائر المسكين كان يتضور جوعا ويمنى نفسه بطعام شهى.

لو أنك ثعلب، مثل رجل المال تستطيع أن تأكل الطائر المسكين، أما لو كنت طائرا لقلق أو كنت إنسانًا، فستجلس تحلم بالطعام وأنت خاوى المعدة، وفى انتظار أن تؤكل. هل الثعلب أو رجل المال هما أرقى المخلوقات الحيوانية؟ بالطبع لا! لم تخدع الإنسانية نفسها بهذا العمق مثلما فعلت بالمساواة وادعاء "الفرصة المتكافئة".

(٨)

فى الحياة المعاشة، نولد بقوى مختلفة ودرجات مختلفة للقوة، بعضنا بدرجة عالية وبعضنا بدرجة أقل. ما يمكن عمله هو أن نقبل ذلك بشرف، وأن نعيش تواصل القوة. أليس من الأفضل أن تخدم إنسانا تعيش فيه القوة عن البحث عن المساواة مع السيد فورد أو السيد روتشيلد؟ أن تكون فى مساواة مع مثل هؤلاء الرجال أمرًا يجعل جسمى يقشعر. أليس من الأفضل أن تكون كولونيلاً تحت قيادة نابليون عن أن تكون المارشال فوك! ألم يكن الأفضل أن تعيش فى رعب من بطرس الأكبر العظيم – الذى كان عظيما– عن أن تكون عضوا من البروليتاريا تحت قيادة الرفيق لينين، أو حتى أن تكون الرفيق لينين نفسه، على الرغم من أنه كان أعظم بكثير من أى مليونير.

القوة ليست تحت سيطرتنا، فهى إما أعطيت لنا من المجهول، أو أننا لم نحصل عليها، ومن الأفضل أن تلمسها فى آخر عن ألا تعرفها مطلقا. من الأفضل أن تكون روسيا وتطلق النار على نفسك خوفا من بطش بطرس العظيم عن أن تعيش مثل الأمريكانى الغنى الذى لم يعرف القوة على الإطلاق ويعيش فى جهل تام بها.

القوة هى أرقى وأعظم الأسرار قاطبة. إنها الغموض الذى يلف وجودنا كله ويؤكد كينونتنا. حتى انتصاب القضيب يعد الحركة العمياء الأولى للقوة، وقد يقال إن الحب يدعو القوة للحركة ولكن يبدو أن العكس هو الصحيح، فالقوة هى التى تدعو الحب إلى الوجود.

(٩)

للقوة أشكال متعددة. هناك القوة الجسدية مثل قوة شمشون!! وقوة السلالة مثل داود، وقوة الإيمان مثل محمد، والقوة العقلية مثل قوة سقراط، والقوة الأخلاقية مثل قوة موسى، والقوة الروحية مثل قوة عيسى أو بوذا، والقوة الميكانيكية مثل قوة ستيفنسون، وقوة العبقرية الحربية كقوة نابليون، وقوة نفوذ المال مثل هنرى فورد، كما أن هناك تجليات حقيقية للقوة تأتى من مصدر مجهول.

كل هذه القوى تختلف عن قوة المليونير التى تأتى من الجشع والحسد الإنسانى. القوة تضيف شيئا جديدا للعالم. قد يكون جرامافون أديسون، أو قانون نيوتن، أو روما القيصر، أو مسيحية عيسى، أو أنقاض أتيلا. شىء جديد يحل محل شىء قديم وأحيانا يتطلب الأمر تهيئة المكان للقوة أولا.

القوة واضحة وأكثر وضوحًا فى تدميرها عن بنائها. الشجرة تسقط فى ضجيج ولكنها تنمو بدون صوت. ولكن القوة المدمرة هى قوة أيضا مثلها مثل القوة البناءة. حتى أتيلا، سوط الله الذى ساعد فى محو العالم الرومانى من الوجود، كان عظيما بالقوة. كان سوط الله، وليس سوط عصبة الأمم الذى يُستأجر ويُدفع له نقدًا.

لو كان لا بد من وجود سوط، فليكن سوط الله، ولتكن القوة. لحظة تجلى القوة الإلهية هى لحظة الحق، سواء كانت لأتيلا أو لنابليون أو جورج واشنطن. ولكن لويد جورج وويلسون ولينين. لم يشعلوا خوفًا حقيقيا أو عاطفة حقيقية، فى حين أن تجليات القوة تشعل العواطف، وستفعل دائما.

طوبى للأقوياء؛ لأن لهم ملكوت الأرض.



البنت الصغيرة تريد أن تعرف!

(١)

لو أنك كاتب فلن يربكك أكثر من الفرق بين الأشياء التى يجب أن تقولها والأشياء التى يُسمح لك بطباعتها. عند التحدث إلى فتاة ذكية، "البنت الصغيرة" والتى تمثل العذر المفترض لمنع النشر، ستجد أنك لست مطالبًا بانتقاء كلماتك وترك التفاصيل المهمة جانبا فحسب، وإنما ستجد أنها - أى الفتاة البريئة - تمطرك بوابل من الأسئلة الصعبة وبكل الأساليب اللغوية الجريئة، طالبة كل أشكال الإجابات المستحيلة. ستفكر فى داخلك "يا إلهى، هل هذه هى البنت البريئة التى من أجلها تُصادر وتُحجب الكتب!". وتتعجب كيف بالله أجيبها؟ عندئذ تقرر أن الطريق الوحيد للإجابة عن أسئلتها هو الطريق المستقيم؛ لأنك لو راوغتها سوف تدرك ذلك بسرعة وتكرهك. هى ليست غبية - تلك الفتاة البريئة - إنها أبعد ما تكون عن ذلك. وهى تكره المراوغة. عندما يتحدث أحد مع والدها فى غرفة مكتبه فى وجودها، فعليه أن ينتقى كلماته ويراقب معانيها، ويصير الرجل عصبيا مخافة أن يقول شيئا تفسره هى على نحو لا يقصده. ولكن فى كل مرة من المرات سواء بالمكتب أو الحديقة تنظر الفتاة البريئة إليك أنت بقلق ويكون كل ما يمكنك أن تقوله لها "أرجوك، لا تغضبى من أبيك. هو على هذا النحو وعلينا أن نتحمله" أو أن تقول "أبوك مغفل كبير ولكنه عزيز عليك؟ أليس كذلك؟".

إنه انعكاس شاذ للترتيب الفكتورى. الأب سينتفض، ويتشامخ، ويرتعد فى غرفة مكتبه، والفتاة البريئة تطرحك أرضا بجرأتها، وعليك التسليم بأنها الرجل خاصة عندما تقول بجراءة غريبة "أرجو ألا تكون قد جعلت أبى يدرك ما تعتقده عنه". "لكن ما الذى أعتقده عنه؟" وتجيب قائلة "إن ذلك بالغ الوضوح". وتنهى الموضوع.

أسلِّم بأن الصغار أصغر منى أم أكبر أكثر ذكاءً مما أعتقد، ويسببون لك الحرج بأسئلتهم غير المألوفة. أنا لم أقض سنوات عمرى أزرع البرقوق، ولكنى فى مواجهة فتاة فى الثانية والعشرين أجد نفسى وقد وقفت فى حلقى بذرة برقوق لا أعرف ماذا أفعل معها.

(٢)

تقول "لماذا يكون أبى على هذا النحو؟" وفى سؤالها ألم حقيقى. تسألها "على أى نحو؟" وتجيب "أنت تعرف ما أعنى!" إنه كالنعامة التى تضع رأسها فى الرمل مما يجعل مؤخرتها مكشوفة. إنه لمحزن أنه شديد الذكاء فى الأمور الأخرى".

"ما الذى يجب أن يكون عليه الرجل ليجيب؟ لماذا يكون الرجال على هذا النحو" هى تصر، فأسأل: من؟ فتقول "الرجال، مثل أبى" فأقول "أعتقد أنه يعانى شيئا من الفزع"، فتقول "تماما ولكن ما الذى يثير فيه كل هذا الفزع؟".

يجب أن أعترف بأننى لا أعرف. تقول "بالطبع لا يوجد ما يثير الفزع، فلماذا لا نجعله يرى ذلك؟".

عندما يبدأ جيل الصغار من الجنس الأنثوى فى العشرينيات المبكرة إطلاق كلمة "لماذا؟" تجاهى فإننى أستسلم. فأى شىء يغضبها؟ أقل الغضب يجعلها تتخذ هدفا تصوب تجاهه سلاح روحها المتسائلة وتقول "لماذا؟"، وتكون الطلقة قاتلة. هى تجيد التصويب.

- لماذا لا أستطيع الحديث مع أبى كإنسانة عاقلة؟
- أعتقد أنه يرى أنك لا زلت صغيرة.

أقول لها ذلك فترد "وكيف يستطيع أن يقيس كمية العقل التى يجب أن أكون عليها، ولماذا يفكر على هذا النحو؟" وما أن تبدأ فى قول لماذا فلا نهاية لذلك. من مائة سنة مضت تساءل بعض الإصلاحيين: "لماذا كان الرجل متفوقا بلا حدود

على المرأة". وجاءت السنوات البطيئة بالإجابة "هو ليس كذلك". ثم جاء الصغار فى تلك الأيام قائلين "لماذا يكون الآباء دائمًا على حق؟". وبنهاية القرن ثبت أنهم ليسوا كذلك! ومنذ ذلك الحين، توقفت الفتاة البريئة عن أن تكون مصابة بالأنيميا، فكل الفتيات منذ ثلاثين عاما خلت كن مصابات بالأنيميا، وعلى الرغم من أنها ليست أقل براءة فإنها أكثر براءة من جيل جدتها أو أمها، فلا يوجد شيء لم تطلق عليه أسئلتها. فتاة اليوم البريئة تسأل "لماذا يطأ أبى الحب بقدمه؟ لقد كان من أبطاله يومًا ما وفقًا لكلام أمى؟".

من المخيف أن يجلس كل الكبار ليقوم الصغار بجعلهم أهدافا لطلقاتهم. "لماذا؟" الإجابة هى، يبدو أنهم كعربات القطار! كبار السن يبدو أنهم يساقون بواسطة قطار يلف بهم ولا يحيدون عن المسار، وهم يتبعون النصائح القديمة التى تلزمهم بتوخى الحذر. فكل شاب قد خرج ليدمر فتاة صغيرة. الفتاة الصغيرة تعرف شيئا أو شيئين عن ذلك فهى ليست بالبيضة النيئة التى من المفترض أن تكونها. ومعظم الشباب من الرجال شديدى اللطف سوف يسوؤهم كثيرا تدمير أية فتاة صغيرة، حيث إنهم يعرفون تماما كيف يقومون بذلك، وهذا ما تدركه الفتيات الصغيرات ثم "لماذا لا يرى أبى ذلك؟". هو يستطيع أن يرى ذلك ولكنه مرتبط بالقاطرة بحيث إنه ما أن يعطيه الشاب ظهره فلن يرى فيه سوى الخطر، الخطر على ابنته. شر الآخرين عقيدة راسخة عند كبار السن، فالأب دائما يقول لابنه "يا بنى، سترى فى الحياة أن يد كل إنسان مرفوعة ضدك". وفى الحقيقة لا يجد الابن شيئا من ذلك فى الحياة. كل إنسان عليه أن يصارع من أجل نفسه، هذا حقيقى، ولكن معظم الناس مستعدون لتقديم بعض العون عندما يستطيعون. قد يكون العالم قاطرة، ولكن ليس هذا لأن الأفراد فيه يكونون أشرارًا بطبعهم. على الأقل تسعة وتسعون فى المائة من أبناء هذه الأمة وأية أمة أخرى أناس محترمون تماما، قد يكون لديهم بعض الصراع الذى يخوضونه ليستمروا، ولكنهم لا يلحقون الضرر بأحد إذا استطاعوا.

(٣)

يبدو أن هذه هى الخبرة العامة للشباب ولهـذا لا يهتمـون بقطـار الـشر الإنسانى الذى يبدو أنه يسيطر على عقل الكبار فيما يختص بعلاقتهم بالجيل التالى. يسأل الشباب "ما هذا القطار بالضبط ، ما الشر الذى نتحصن منه؟" ويجيب الكبـار "بالطبع، لا خطر علينا ولكن عليكم أنتم الصغار عديمى الخبرة..".

ولا يرى الصغار شيئا بالطبع إلا النفاق الخالص. ليست لديهم الرغبـة فـى التحصن. إذا كان القطار موجودا، فسيحبون أن يلقوا عليه نظرة لقياس ذلك "الشر" الشهير. ولكن لأنهم لم يقابلوه مطلقا، فإنهم يقررون أن القطار لم ولن يوجد وإنمـا هو اختراع لروح العجائز، آخر عصا يمكن للكبـار أن يـضربوا بهـا الـصغار ويشعروا بالرضا عن أنفسهم. "بالتأكيد لا أمل مع أبى وأمى، يجب على المـرء أن يعاملهما كأطفال بلهاء" هذا ما يقوله الشباب. وتقول الأم "أنا لا أبالى ولكن على أن أحمى أولادى". هؤلاء عبارة عن أطفال صناعيين فى مخيلة أبوية ويجب تحذيرهم من كل ما يوجد خارج تلك المخيلة، وبالتالى يستمدون إحساسًا عظيمًـا بالـسلطة الأبوية وبالأهمية.

الخطر على الشباب هو أنهم سيتساءلون عن كل شىء موجود حتى لا يبقى شىء. ولكن ذلك لا يجب أن يكون سببا لكى يتوقفوا عن السؤال. يجـب التـساؤل عن الأكاذيب القديمة لكى ينحسر وجودها حتى ولو أدى الأمـر لخـسارة أشـياء تستحق الإبقاء عليها. عندما يتم التساؤل عن كل شىء، ستبدأ المتعة الحقيقية فـى وضع الأشياء الصحيحة فى مكانها. ولكن لا شىء سيكون طيبا ما لم يتم الـتخلص من الأكاذيب القديمة.



"الجنس" مقابل "الجمال"

(١)

من المؤسف أن "الجنس" كلمة صغيرة قبيحة، وإن كانت فى الحقيقة غير مفهومة. ما الجنس؟ كلما زاد تفكيرنا فيه قل ما نعرفه عنه.

يقول العلم إنه غريزة، ولكن ما الغريزة؟ من الواضح أن الغريزة شىء قديم موغل فى القدم ووجدت مع الإنسان لدرجة أصبحت معها لا تثير التساؤلات. ولكن هذا الشىء، مهما كان كنهه، لا بد وأن تكون له بداية، ولا توجد فى الحقيقة بداية للجنس، فأينما وجدت الحياة وجدت الغريزة. الجنس بالتالى ليس شيئا يمكن تعريفه أو توصيفه.

يتحدثون عن الجنس على أنه شهية مثل الجوع، وبأنه الشهية للتكاثر، هل هذا معقول؟! يقال إن الطاووس ينشر ريشه الجميل من أجل إغواء الأنثى لكى تدعوه ليشبع شهيته للتكاثر، ولكن لماذا لا تنشر الأنثى ريشا جميلا لتغوى الطاووس وتشبع رغبتها فى التكاثر هى الأخرى. بالتأكيد فإن رغبتها فى إنتاج البيض والكتاكيت هى بالقوة نفسها التى للذكر. لا يمكن أن نصدق أن دافعها الجنسى هو من الضعف بحيث تحتاج إلى كل هذه الزينة الزرقاء الرائعة من الريش لكى تثيرها. لا، إن الأمر ليس كذلك على الإطلاق.

بالنسبة لى، لم أر مطلقا أنثى طاووس تنظر إلى الزينة الزرقاء للذكر. لا أعتقد أنها تراها على الإطلاق، ولا أصدق أنها تعرف الفرق بين اللون الأزرق والألوان الأخرى.

لو أننى رأيت أنثى الطاووس تنظر بانتباه وإعجاب إلى الذكر وهو ينشر ريشه، لاعتقدت أنه ينشر كل هذا الريش ليجتذبها. ولكنها لا تنظر إليه مطلقا، كل ما فى الأمر أنها تقلده عندما ينفض ريشه وكأنها تقول له "أنا الأخرى أستطيع أن أفعل ذلك"، وهذا كل ما فى الأمر.

هذه النظريات عن الجنس تثير الدهشة. الطاووس يباهى أنثاه بالريش مع أنها لا تنظر إليه أبدا. إننا نكون فى غاية السذاجة إذا تصورنا الأمر على هذا النحو، وأن الأنثى لديها خاصية التقدير الشامل لشكل الذكر ولونه.

(٢)

يقال إن البلبل يغرد هو الآخر ليجذب أنثاه، لكن ما يعد غرابة شديدة هو أنه يغنى أفضل ما يكون عندما ينتهى موسم التكاثر وتصبح الأنثى غير مهتمة به على الإطلاق. إذن، إذا لم يكن يغنى لكى يجتذبها فلا بد وأنه يغنى لأنه يحب الغناء؛ لتسليتها وهى ترقد على البيض.

كل تلك النظريات فى رأيى ساذجة وغير حقيقية. هناك إرادة خفية وراء كل النظريات عن الجنس وهى إرادة إنكار وإلغاء غموض الجمال؛ لأن الجمال غموض لا نستطيع أن نأكله أو نصنع منه رداءً. يقول العلم إنه مجرد خدعة للإيقاع بالأنثى وجعلها تتكاثر، ولكننا نكون ساذجين إذا صدقنا ذلك؛ فالأنثى لا تحتاج كل هذا العناء للإيقاع بها؟ الأنثى تتكاثر حتى فى الظلام، والجمال والغناء لا دخل لهما فى ذلك.

للعلم كراهية غامضة للجمال لأنه لا يتلاءم مع نظرية السبب والأثر. والمجتمع له كراهية غامضة للجنس لأنه يتداخل دائما مع خطط جمع المال. ولهذا تتوافق الكراهيتان لتجعلا من الجنس والجمال مجرد شهية للتكاثر.

الجنس والجمال هما شىء واحد كالشعلة والنار. لو كرهت الجنس فستكره الجمال، وإذا كنت تحب الجمال فأنت تحب الجنس. بالطبع تستطيع أن تحب الجمال فى شىء أصم مثل لوحة أو تمثال وتكون كارها للجنس، ولكن أن تحب الجمال الحى فلا بد وأن تحب الجنس وتحترمه.

لا يمكن فصل الجنس عن الجمـــال، كمـــا لا يمكـــن فـــصل الحيـــاة عـــن الشعور.أعظم كوارث حضارتنا هى كراهيتها للجنس. لكن ما الذى يـــسبب تلـــك الكراهية الشديدة للجنس أكثر من التحليل النفسى الفرويدى؟ إنه يغرس فينـــا خوفـــًا مقلقًا من الجنس ويفسره بأشياء احتمالية لا وجود لها.

(٣)

المرض النفسى العميق للإنسان المحدث، رجلاً كان أو امرأة هو حالة ينـــشأ فيها من إحباطات عميقة فى علاقته بالغير، وفى رأى فرويد أن جزءًا كبيـــرا مـــن هذه الإحباطات تنتج من فشله فـــى إقامة علاقات صحيحة مع الجنس الآخر، وقـــد تنشأ من الفشل فى الجنس، وبناء على رأى السيد فرويد فإن النجاح فـــى الجـــنس يؤدى إلى تلك النجاحات الأخرى، فكل الأفعال ترد إلى دوافع جنسية... هذا رأيه؟

إذن الجنس هو أساس كل شىء، نحيا به ونجىء منه ونسعى إليه، والجمـــال والجاذبية هما أدواته. المرأة تكون جميلة وهى فى العشرينيات؛ لأنه الوقت الـــذى يتصاعد فيه الجنس بهدوء إلى وجهها، كما تصعد الـــوردة إلـــى قمـــة الخميلـــة. والجاذبية هى جاذبية الجمال، مع أننا ننكرها ما وسعنا ذلـــك ونحـــاول أن نجعـــل الجمال خاويًا وهامشيا ما استطعنا. ولكن دائما، الجاذبية هى جاذبية الجمال.

الجمال هو أمر لم نتعلمه ويصعب علينا التحدث عنه. نحن نحاول أن نضع للجمال ترتيبا ثابتا؟ أنف مستقيم، أعين واسعة، .. إلخ". ونعتقد أن المرأة الجميلـــة هى التى تكون قسماتها فى أحسن ترتيب ممكن، والرجل الوسيم يجـــب أن يكـــون مثل رودولف فالنتينو. هذا ما نعتقده.

أما فى الحياة الفعلية، فنحن نسلك سلوكًا مختلفًا تمامًا، فنقول "هـــى شـــديدة الجمال ولكن أنا غير مهتم بها". مما يظهر أننا نستعمل كلمة جميلة بطريقة خاطئة.

يجب أن نقول: "إن لها الخصائص النمطية للجمال، ولكنها ليست جميلة بالنسبة لى".

(٤)

الجمال هو خبرة، ولا شيء غير ذلك. ليس بالنمط الثابت أو ترتيب الملامح. إنه شيء نحسه، وهج موصول بالحُسن. ما يعذبنا هو أن إحساسنا بالجمال شديد الارتباك والسطحية بحيث لا نرى الأفضل فيه. ولكن إذا نظرنا إلى السينما فإننا نرى جمالا فى وجه تشارلى شابلن، والغريب أنه أعظم مما هو موجود فى وجه فالنتينو. هناك جمال حقيقى فى أعين تشابلن وحواجبه، وميض أخّاذ وشيء نقى. لكن إحساسنا بالجمال مشوه وغليظ ونحن لا نرى ذلك، ولا نعرف ذلك حتى عندما نراه. نرى فقط ما هو شديد الوضوح، مثل جمال رودولف فالنتينو، الذى لا يسر إلا لأنه يلائم المفهوم الجاهز للوسامة.

لكن أقل الناس وسامة يمكن أن يكون جميلا وأن يبدو جميلا. ما يحتاجه فقط هو نار الجنس لكى تغير الوجه القبيح وتجعله وجها جميلاً. هذه هى حقيقة الجاذبية الجنسية، لمسة الإحساس بالجمال. وبطريقة عكسية، لا يمكن أن يكون هناك شيء منفر مثل امرأة جميلة. فحيث إن الجمال هو أمر يتعلق بالخبرة وليس بالشكل المحدد، لا يمكن أن يكون شخص ما قبيحا كالمرأة الجميلة حين تكون خالية من وهج الجنس، وتكون حركتها باردة وقبيحة، عندئذ سوف تظهر شديدة القبح والأشد قبحا، هو مظهرها الخارجى الجميل.

(٥)

لكن ما الجنس؟ نحن لا نعرف، ولكن لا بد وأنه طراز من النار لأنه دائما ما يعطى إحساسًا بالدفء والمتعة والتوهج. عندما يصبح التوهج ساطعا سطوعًا

خالصًا نحس بالجمال. تواصل الدفء، وتوهج الجنس هما الجاذبية الجنسية الحقيقية. جميعنا لديه نار الجنس تضطرم وتتدلع بداخلنا. لو عشنا حتى التسعين فإن النار تظل موجودة، وإذا ماتت نصبح مجرد جثثا تعيش، وهو ما يمتلئ به العالم الآن.

لا يوجد أسوأ من إنسان انطفأت بداخله جذوة الجنس؛ لأنه يصبح مخلوقًا بليدًا يريد الجميع تجنبه. ولكن مادمنا أحياءً، فإن نار الجنس تتوهج فينا، فهى فى الشباب تضطرم وتشع، وبمرور العمر تتوهج برقة واستدامة، وتظل فينا حتى تموت. دائما قد يكون لدينا بعض التحكم فيها ولكنه تحكم محدود، ولهذا يكرهها المجتمع.

وما دامت نار الجنس تتوهج فينا باستمرار، وهى مصدر الجمال والغضب، وتشعل حواسنا على غير فهم منا، فهى مثل النار الفعلية، تحرق أصابعنا لو لمسناها بلا ضوابط. الإنسان الاجتماعى لرغبته فى أن يكون "آمنا" فهو يكره نار الجنس، ولحسن الحظ لا ينجح الكثيرون فى أن يصبحوا أناسا اجتماعيين، فنار آدم القديم تشتعل داخلهم، ومن خصائص تلك النار هى أنها تنادى النار وتدفع للرغبة. نار الجنس هنا توقد نار الجنس هناك. قد تزيد الاشتعال وتحوله إلى وهج ناعم، وقد تؤدى إلى لهيب لافح، أو تفجر بركانا.

(٦)

متى توهجت نار الجنس فستجد استجابة فى مكان أو آخر، قد تنتج مجرد إحساس بالدفء والتفاؤل، ستقول عندئذ "أنا أرغب تلك الفتاة، إنها بالفعل من الطراز الجيد". وقد تنتج تلك النار وهجًا يجعل العالم يبدو أجمل والحياة تبدو أفضل. عندئذ تقول "إنها امرأة جذابة، أنا أرغبها" أو قد توقد شعلة تنير وجهك أولا قبل أن تضىء الكون. عندئذ تقول "إنها امرأة جميلة. هى تبدو لى جميلة".

يتطلب الأمر إذن امرأة نادرة ليتولد لديك إحساسٌ حقيقى بالجمال. ليس لأن المرأة قد ولدت جميلة، فنحن نقول ذلك لنتجاوز فهمنا المشوه الضعيف للجمال. لقد وجدت الآلاف والآلاف من النساء اللاتى يعتبرن حسناوات. واليوم توجد الآلاف والآلاف من النساء شديدات الحسن، ولكن قليلات جدا منهن اللاتى يوصفن بالجميلات. لماذا؟ لضعف جاذبيتهن الجنسية. المرأة الحسناء تصبح جميلة عندما تتوقد نار الجنس فيها وتكون قوية وخالصة فيها، وتنعكس فى ملامحها وتلامس النار التى تشتعل لدىّ. هنا فقط تصبح المرأة جميلة بالنسبة لى، وتصبح فى جسدها الحى امرأة جذابة، وليست مجرد صورة فوتوغرافية لامرأة جميلة. ما أحلى المرأة الجميلة ولكن ما أندرها أيضا. كم هى شديدة الندرة فى عالم ملىء بالنساء الحسناوات. قد توصف حسناء بأنها مليحة القسمات ولكنها ليست جميلة. النسوة الحسناوات، المليحات هن من يملكن القسمات الحلوة والشعر البديع. ولكن المرأة الجميلة شىء آخر! إنها تجعل النار تسرى فينا بجاذبيتها الجنسية بتعبيراتنا الفقيرة المتهالكة. إنها تجعل الجاذبية الجنسية تنعكس على وجه من يراها. اليوم، بدلا من نار الجمال، توجد الجاذبية الجنسية. الاثنان هما شىء واحد، كما أفترض، ولكن على مستويات شديدة التباعد.

إن السكرتيرة الجميلة المخلصة لرجل الأعمال لا تزال عالية القيمة لجاذبيتها الجنسية ولا ينطوى ذلك على علاقات غير مشروعة بأية صورة، حتى الفتاة ذات الجمال اليسير تحب أن تشعر بأنها تساعد رجلا، إذا ما قبل الرجل مساعدتها. هذه الرغبة فى قبوله مساعدتها هى جاذبيتها الجنسية. إنها النار الحقيقية وإن كانت حرارتها قليلة، ولكنها تساعد فى الحفاظ على عالم "الأعمال" حيًّا. ولولا دخول السكرتيرة الأنثى إلى مكتب رجل الأعمال من آن لآخر لأحس بالقتامة وكره العمل تماما، فهى تستدعى النار المقدسة من داخلها وتوصلها كالكهرباء إلى رئيسها فى العمل، فيشعر بالتدفق الإضافى للطاقة وبالحيوية والتفاؤل بما ينعش الأعمال.

(٧)

بالطبع هناك الجانب الآخر من الجاذبية الجنسية والتى قد تؤدى إلى كارثة للشخص الذى توجه إليه، فحينما تبدأ المرأة فى استخدام جاذبيتها الجنسية

لأغراضها الخاصة تكون تلك لحظة سيئة لرجل سيىء الحظ. ولكن هــذا الطــراز من الجاذبية الجنسية قد استخدم بكثرة فى الآونة الأخيرة بحيث لم يعد بــالخطورة التى كان عليها سابقا.

الغانيات الجذابات جنسيا اللاتى يدمرن الكثير من الرجال فى قصص بلزاك لم تكن الأمور سهلة بالنسبة لهن. الرجال أصبحوا أكثر دهاء وأقل خجلا حتى على المستوى العاطفى. فالرجال يصيحون بأنهم يشمون رائحة فأر فى اللحظــة التــى يشعرون فيها بأن المرأة التى يجالسونها تفتقر إلى الجاذبية الجنــسية. وهــذا أمــر يستدعى الشفقة؛ لأن الجاذبية الجنسية هى مجرد اسم قبيح لجزء من شعلة الحيــاة، ولا يوجد رجل يعمل بحماس ونجاح ما لم تكن هناك امرأة قد أوقدت فى عروقــه بعض النار، وليست هناك امرأة تقوم بعلمها المنزلى باستمتاع حقيقى ما لم تكن فى حالة حب دائم، وقد تستمر المرأة فى حالة الحب هذه لخمسين سنة دون أن تــشعر بأى ملل.

لو أن حضارتنا قد علمتنا كيف ندع الجاذبية الجنسية تنساب بطريقة مناسبة وكيف نحافظ على نار الجنس صافية وحية، تضطرم وتتوهج بــدرجات متفاوتــة، لأمكننا جميعا أن نعيش حياتنا فى حب ونحس بالتلذذ والمتعة، فالذى نحــسه مــن الحياة الآن هو رماد.. رماد.. رماد.




اللامبـــالاة

(١)

تقع شرفتى بالفندق الذى أقطن فيه بالجانب الشرقى منه، وجارى من اليمين رجل فرنسى أبيض الشعر هو وزوجته، أما جيرانى من اليسار فسيدتان إنجليزيتان بشعر أبيض، وكنا جميعا نخجل من بعضنا بعضا.

كنت عندما أنظر من غرفتى فى الصباح وأرى السيدة الفرنسية فى دثارها الحريرى القرمزى وهى تقف فى تراس غرفتها فى الصباح، وكأنها ربان فوق الجسر، أعود للداخل بسرعة قبل أن تتمكن من رؤيتى، وفى أى وقت كنت أخرج فيه خلال اليوم كنت أشعر بالسيدتين ذواتا الشعر الأبيض وهما تعودان سريعا لغرفتيهما كأرنبتين صغيرتين تهرولان إلى الجحر.

ولأن ظهيرة اليوم كانت حارة، استيقظت فجأة وخرجت إلى الشرفة حافيا، وجلست أتأمل العالم. كانت البحيرة أمامى تتلألأ كالزجاج، والجبال عابسة والخضرة رائعة الاخضرار وإن كان كل شيء يلفه الصمت. كان هناك اثنان من الحصادين يحصدان بالمناجل بأسفل التل وكنت أسمع صوت ضربات المنجل.

فجأة ظهرت سيدة بيضاء الشعر فى دثار حريرى رمادى فى التراس المجاور ونظرت ناحيتى وهى تبتسم وقالت "الجو قد أصبح ممتعًا الآن". قلت "لكنه ما زال باردًا". وافقت على ذلك وتحدثنا عن الحصادين وكيف يسمع المرء بوضوح أصوات المناجل.

صرنا كما لو كنا فى خلوة. تحدثنا عن الكريز والفراولة ومحصول العنب، وقادنا الحديث إلى إيطاليا، والسنيور موسولينى. وقبل أن أدرك موقفى، كانت السيدة بيضاء الشعر قد اقتلعتنى من شرفتى بعيدا عن البحيرة الزجاجية والجبال والخضرة والحصادين وأشجار الكريز إلى المجال المضطرب للسياسة رغما عنى، مع أننى كنت أستمتع بمنظر الرجلين وهما يحصدان. كان الأصغر سنا فى سروال

قطنى أزرق، طويل الساقين وعارى الرأس وشعره أسود، وكان يعمل بهدوء. أما الآخر فكان فى سروال أسود وعلى رأسه قبعة من القش كقبعة البحارة، ويضرب بالمنجل بقوة وعنف.

كنت أرقب بفضول حركات الرجلين. كان الشاب ذو السروال الأزرق نحيلا، والأكبر السمين فى السروال الأسود. حاولت إثارة اهتمام السيدة بهما، ولكن كل ذلك لم يكن يعنيها فى شىء، الحصادين، الجبال، أشجار الكريز ولا أى شىء آخر حولنا.

(٢)

كان كل شىء حولنا لا يحظى باهتمامها، بل بدا وكأنه يخفيها ويكاد يبعدها عن التراس، ولكنها تمسكت بموقعها وبدلا من أن تخاف وتبتعد، انتزعتنى بقوة وألقت بى فى الصحارى الفارغة للصواب والخطأ والسياسة والفاشية وما إلى ذلك، مع أننى فى الحقيقة لست معنيا بالصواب والخطأ والسياسة والفاشية والحرية، أو أى شىء من هذا القبيل، وكل ما أردته هو النظر إلى الرجال وهم يحصدون. كنت أتساءل لماذا يتجاهل الناس الأشياء التى يجب أن تسترعى انتباههم؟ تغلق السيدة ذات الأعين الزرقاء عينيها عن كل ما حولنا، وتأخذنى بعيدا إلى السنيور موسولينى الذى ليس موجودا أمامها وإلى الفاشية؟ لماذا لا تقنع بأن تكون حيث هى؟ لماذا لا تسعد بما تراه؟ أنا أفهم الآن لماذا صارت عيناها شديدة الاستدارة بشكل ملحوظ جدا لأنها تهتم بكل ما هو غير مرئى، وكل ما هو ليس فى مجال نظرها. أى شىء على الأرض لا يخصها تهتم به، فهى تهتم بالتحدث عن إيطاليين غير مرئيين ولا تبالى مطلقا بالحصادين الذين تستطيع سماع ضرباتهم ويلبسون سراويلَ زرقاء وسوداء، لو أنها نزلت من الشرفة وعبرت المنحنى العشبى وقالت للحصاد البدين "تحياتى يا سيدى، لماذا تلبس السروال الأسود؟" لقلت عندئذ "يا لها من سيدة رائعة"، ولكن حيث إنها تزعجنى بالسياسة الدولية، أستطيع فقط أن أقول "يا لها من امرأة متعبة".

النساء عادة ما يبالين والمبالاة تأكلهن. هن يدعون المبالاة بالفاشية وعصبة الأمم، أو بما إذا كانت فرنسا على صواب وما إذا كانت مؤسسة الزواج مهددة، لدرجة أنهن لا يعرفن أين هن. إنهن لا يعيشن الواقع ويحلقن في سماء غير سمائنا. لقد أخذتني عنوة إلى الصحراء وجرجرتني إلى الحديث في السياسة والمبادئ والصواب والخطأ وما إلى ذلك. لقد حكم عليهن بأن يكن تجريديان، والحديث إليهن يدخلك فى متاهة لا تستطيع الخروج منها بسهولة.

(٣)

هناك فرق كبير بين العيش الفعلى وهذا العيش التجريدى. ما العيش الفعلى؟ إنه قضية تتعلق بالاتصال المباشر. لقد كان هناك اتصال حسى مباشر بينى وبين البحيرة والجبال وأشجار الكريز والحصادين وشجرة الليمون. لقد انقطعت عن كل هذا حين سمعت كلمة "فاشية"، والسيدة فى الغرفة المجاورة هى من قطعنى عن تأملاتى الفعلية. لقد قطعت هذه السيدة رأسى وألقت بها فى فضاء التجريد. ومن المفترض أن نحب جيراننا.

عندما يتعلق الأمر بالعيش، فنحن نعيش عبر غرائزنا وعبر حواسنا. الغريزة تجعلنى أهرب من السيدات شديدات الحماس، تجعلنى الغريزة أشم زهور الليمون وأبحث عن الكريز الغامق. ولكن حواسى هى التى تجعلنى أشعر بصفاء البحيرة وصمت الجبال وحيوية الخضرة تحت الشمس، وبالشاب الذى يلبس السروال الأزرق ويحصد النجيل برقة بواسطة المنجل، وبالرجل الكبير ذى القبعة الذى يضرب المنجل بعنف. أنا لن أخرج إلى الشرفة بعد ذلك ثانية.



أعطهـــا شكـــلا

(١)

تكمن المشكلة الحقيقية للنساء فى محاولتهن الدائمة لملاءمة أنفسهن لنظريات الرجال عن النساء. عندما تكون المرأة كاملة فإنها بذلك تكون ما يريـده الرجـال، وعندما تكون غير كاملة ومصابة بالهوس، فلا بد وأنها لا تعـرف مـا يجـب أن تكونه، ولا كيف تصل إلى الكمال، وأية صورة للمرأة فى عين الرجـل يجـب أن تكونها.

بالطبع، حيث يوجد الكثير من الرجال بالعالم، توجد الكثير مـن النظريـات الذكورية لما يجب أن تكون عليه النساء. ولكن الرجال يميلون للتنمـيط، والـنمط وليس الفرد هو ما ينتج النظرية أو "المثل الأعلى" للمـرأة، فالرومـان – أولئـك الأرستقراطيون شديدو الوعى – قد وضعوا نظرية ومثلا أعلى لربة البيت وكانـت تتوافق تماما مع شهوة الرومان للتملك. "زوجة القيـصر يجـب أن تكـون فـوق الشبهات"، وعلى ذلك آلت زوجة القيصر على نفسها أن تكـون فـوق الـشبهات، بغض النظر عن المدى الذى يغوص فيه القيصر إلى ما تحت الشبهات. بعد ذلـك وضع نيرون نظرية "السرعة"، وبعدها أصبحت السيدات سريعات للجميع.

وصل دانتى مع بياتريس العفيفة النقية إلى درجة عالية مـن الرومانـسية، وتجلى ذلك فى أدبياته المهمة، وفى عـصر النهـضة حظيـت المـرأة المتعلمـة بالاحترام واهتمت النساء المتعلمات بكتابة الشعر والنثر، وصَوَّر ديكنز فى رواياته الزوجة "الطفلة"، ومنذ ذلك الحين انتشرت زيجات الأطفال. إذن فـالمرأة النبيلـة، الزوجة النقية والأم المخلصة كن مسيطرات على المضمار، لكنهن كن مـسخرات للعمل حتى الموت.

(٢)

أمهاتنا البؤساء كن من هذا الطراز لذلك فنحن الأبناء لشعورنا بالخوف من أمهاتنا النبيلات نميل للعودة إلى نموذج الزوجة "الطفلة". فقط يجب أن تكون الزوجة الطفلة بالنسبة لنا، شيئا صغيرا صبيانيا، وتلك هى اللمسة الوحيدة التى أضفناها؛ فالرجال صغار السن يخشون الأنثى الحقيقية لأنها تمثل لهم مجازفة خطرة مثل دورا الخاصة بدافيد، فلتكن إذن شيئا صغيرا صبيانيا.

هناك بالتأكيد أنماط أخرى، فالرجال القادرون يصنعون نماذج للنساء القادرات، الأطباء يصنعون ممرضات قادرات، ورجال الأعمال يصنعون سكرتيرات قادرات. وهكذا توجد كل الأنماط.

يوجد أيضا فى المقابل المثل الأعلى للرجل فى نظر النساء. وهن يتصورنه ويعونه وفقا لتصورات خاصة بهن. وهكذا يتخلى القدر عن المرأة. ليس لأنها لا تملك عقلا، فلديها العقل، ولديها كل ما لدى الرجل. الفرق الوحيد هو أنها تبحث عن شكل ملائم.

أعطنى شكلا لأتبعه، سوف تظل تلك هى صيحة المرأة دائما، فهى لم تكن قد اختارت لنفسها شكلا وهى صغيرة بحيث تستطيع أن تظل بهذا الشكل باستمرار ولا تغيره، أو أن تعيد صياغة شكلها بتأثير فكرة الرجال عن النساء.

المشكلة الحقيقية حاليا ليست فى أن النساء تسأل ويجب أن تسأل عن الشكل المطلوب للأنوثة، فالرجال يعطوهن تلك الأشكال مثل الزوجة "الطفلة"، الفتيات اللاتى يشبهن الأولاد الصغار، السكرتيرات الكاملات، الزوجات النبيلات، الأمهات المضحيات بذواتهن، النساء النقيات، العاهرات اللاتى يبتذلن أنفسهن ليسلين الرجال. المشكلة فى تلك الأنماط الشاذة للأنوثة التى وضعها الرجال للنساء، والتى لا تشتمل على أى محتوى إنسانى. الرجل مستعد لأن يقبل المرأة ندًّا له وبأى شكل حتى لو كانت رجلا فى ثياب نسائية، كملاك أو كشيطان، بوجه طفولى أو كماكينة،

كخادمة أو من النبيلات. لكن الشيء الوحيد الذى لا يستطيع أن يفعله هو أن يقبلها بذاتها كإنسانة حقيقية.

(٣)

النساء تحب الحياة وفقا للأنماط الغريبة، وكلما اشتدت غرابتها زاد استحسانهن لها. ما الذى يمكن أن يكون أكثر غرابة من النمط الحالى للفتيات الذى يشبهن فيه الصبية بقسماتهن المصطنعة؟ إنه مظهر مستهجن. ولأنه مستهجن بشدة تحب النساء أن يقلدنه ويعشن وفقا له. ما الذى يمكن أن يكون مثيرًا للنفور أكثر من طراز الوجه الطفولى للصبى الصغير؟ وعلى الرغم من ذلك تتعلق به الفتيات بشدة.

ولكن هذا ليس السبب الحقيقى للمأساة. السبب الحقيقى هو فى المسخ غير الطبيعى للشكل، كما فى حالة بياتريس ودانتى. إن بياتريس كان عليها أن تظل عفيفة وطاهرة طوال حياتها وفقا لنمط دانتى، ودانتى كان له زوجة وأطفال بالمنزل. لم يكن هذا هو الأسوأ، وإنما الأسوأ هو أنه كان يمقت أية امرأة تعيش وفقا للنمط الرجولى. هناك كراهية عميقة لنمط الفتاة التى تشبه الصبية. هى أحيانا ما تكون على درجة عالية من التهذيب فى المجتمع، ولكن الرجال الصغار الذين ألهموها هذا النمط يكرهونها فى قلوبهم وتزعجهم رؤيتها على هذا الشكل.

عندما يتعلق الأمر بالزواج، ينهار هذا النمط ويسقط تماما، فالرجل لا يتزوج من الفتاة التى تبدو كالصبى ويكره هذا الشكل بشدة، ويبدأ عقله فى التفكير فى الأنماط الأخرى التى تمثل الأنوثة الكاملة، ويصبح فى حالة ارتباك شامل، فمهما كان النمط الذى تحاول المرأة أن تعيشه، يريد الرجل منها نمطا آخر، ويميل إلى نمط الأنوثة الحقة.. فهو المفضل لدى الرجال.

المرأة الحديثة ليست غبية، ولكن الرجل الحديث غبى. هذا يبدو لى أوضح تفسير للأمر. الرجل الحديث غبى لأن كل تصوراته عن المرأة مشوشة لأنه لا يعرف مطلقا ما الذى يريده أن تكون عليه. سوف نرى التغيرات فى أنماط النساء يلاحق

أحدها الآخر وبسرعة، ولأن الرجال صغار السن لا يعرفون ما الذى يريدونه، ففى خلال سنتين قد تصبح النساء منقبات أو عاريات تماما كالنساء السود فى وسط إفريقيا، أو قد يرتدين دروعًا نحاسية مثل الفرسان أو أى شىء آخر، وذلك لأن الرجل صغير السن لا يعرف بالضبط ما يريده منهن.

(٤)

النساء لسن غبيات ولكن عليهن الحياة وفقا لنمط أو لآخر. هن يعرفن أن الرجال أغبياء ولا يقبلون ولا يحترمون تغيير النمط. ولكن يجب أن يكون هناك نمط وإلا لما استطعن الحياة! ولهن فى ذلك منطقهن الخاص، فللنساء منطق العاطفة وللرجال منطق العقل والاثنان مكملان لبعضهما، ولكن فى الغالب ما يكونا متعارضين. منطق العاطفة فى النساء ليس أقل عنادًا وصدقا من المنطق العقلى للرجال، ولكنه يعمل بطريقة مختلفة والمرأة لا تفقده. قد تعيش لسنوات وسنوات وفقا للنمط الذكورى، ولكن فى النهاية فإن منطقها الأنثوى هو الذى يسود ويتغلب منطق العاطفة فى النهاية. هذا هو التفسير الجزئى للتغير المدهش للنساء. فقد يعشن عفيفات لسنوات كبياتريس، أو كزوجات "أطفال" ثم فجأة تصبح بياتريس العفيفة لهن شيئا مختلفا تمامًا وتصبح الزوجة "الطفلة" لبؤة شرسة لأن النمط الذى يعشنه لم يكن يناسبهن.

بينما يكون الرجال أغبياء حين يعتمدون على منطق العقل فى اختيار نمط نسائهن ويسلكون الطريق الخطأ، فهم يقضون السنوات فى تدريب النمط ذى وجه الصبى الطفل إلى أن يصل إلى الكمال، وبعد الزواج يرغبون فى شىء آخر. فلتحترس الشابات من الرجال الذين يعشقونهم، ففى اللحظة التى يمتلكوهن فيها سيغيرون رأيهم بسرعة ويرغبون فى شىء مختلف تماما، فإذا تزوجوا من ذوات وجه الصبى الصغير يشتهون المرأة النبيلة أو النقية أو الراقية أو الأم ذات الصدر الرؤوم أو السكرتيرة أو العاهرة التى تلبس الحرير الأسود أو الأكثر جنونا أو توليفة من كل ما سبق فى امرأة واحدة.

(٥)

هذا هو منطق العقل للرجال. عندما يتعلق الأمر بالنساء فإن الرجال يبدون بلهاء ولا يعرفون ما يريدون، وبالتالى يزهدون ما يحصلون عليه، فحين يريدون كعكة بالقشدة يريدون فى الوقت نفسه كعكة باللحم والبيض.

من حقائق الحياة أن النساء يجب أن يلعبن دورهن وفقا لنمط الرجل. المرأة تعطى أفضل ما عندها للرجل عندما يعطيها الرجل نمطا مرضيا لتلعب دورها وفقا له. ولكن حاليا، مع الأنماط الجاهزة، القديمة البلهاء ما الذى تستطيع النساء أن تعطيه للرجال سوى الجانب التافه من عواطفهن؟ ما الذى يمكن أن تعطيه امرأة لرجل يريد منها أن تكون بوجه طفل صغير؟ ما الذى يمكن أن تعطيه سوى ما يعطيه الأبله؟ ولأن النساء لسن غبيات، ولا يسهل خداعهن لفترة طويلة، فإن ما يعطينه لا يعدو سوى خربشات وجيزة من مخالبهن تجعل الرجل يبكى ويصرخ طالبا أمه.



هل تتغير النساء؟

(١)

يتحدثون عن الأمور التى ستحدث فى المستقبل، حيث سيتم تربية الأطفال على الزجاجات، وينتهى هذيان الحب، وسيأتى زمن لن يمكن فيه تمييز النساء عن الرجال. لكن كل ذلك يبدو لى محض هراء. نحن نحب أن نتخيل أننا شىء جديد تمامًا على وجه الأرض. ونحب أن نتملق أنفسنا. السيارات والطائرات هى أشياء حديثة وإن لم تكن جديدة. يمكن بالطبع التمييز بين الأمرين، ولكن الناس ليسوا أعلى كثيرا من الناس الذين كانوا يُحملون على المحفات أو يركبون الهودج أو العربات التى تجرها الخيل أو الذين ساروا على الأقدام من مصر إلى الأردن أيام خروج موسى. الإنسانية لديها قدرة لانهائية على البقاء وبأية كيفية. هذا هو جوهر الإنسانية.

هناك العديد من الوسائل التى أصبح بها الإنسان إنسانا، ومعظم هذه الوسائل لا تزال موجودة حتى اليوم ولكن بعد أن طورها الإنسان. كما أن هناك العديد من النساء مثل كليوباترا وزينوبيا وسميراميس وجوديث وروث وحتى الأم حواء، هن موجودات إلى اليوم كما كن موجودات فى الأمس البعيد. الظروف هى التى جعلتهن كليوباترا وسميراميس فى عصرهن، لكنهن كثيرات بيننا الآن بأسماء أخرى وأشكال أخرى؛ لأن عصرنا يسعى وراء الكم لا الكيف. ولكن الناس المتميزين هم الناس المتميزون فى أى مكان، فى بريطانيا أو فرنسا أو حتى إفريقيا. الناس المتميزون متشابهون وكل ما يختلف هو النسبة بين هؤلاء الناس المتميزين إلى الناس العاديين.

(٢)

حاليا، هناك أغلبية كاسحة للمتميزين الذين لا يختلفون كثيرا عن غيرهم من الناس المتميزين بالحضارات السابقة، ومنذ أن أصبح الإنسان إنسانًا.

النساء هن جزء من المنظومة الإنسانية ولسن شيئا معزولا. هن لسن شيئا جديدا مثل الحرير الصناعى، وفيهن أيضا المتميزات كالرجال. يقولون إن المرأة الحديثة هى طراز جديد مختلف، ولكن هل هى كذلك؟ أنا متأكد من أنه كانت هناك الكثيرات من النساء فى الماضى يشبهن نساءنا الآن، ولو كنت قد تزوجت بواحدة منهن لما وجدت أى فرق عن زوجتى الحالية. النساء هن النساء فى كل زمان، كل ما فى الأمر أن لهن مراحل. فى روما وفى سيراكيوز وفى أثينا وفى طيبة منذ أكثر من ألفى أو ثلاثة آلاف سنة، كانت توجد الآنسة والسيدة التى توجد فى الوقت الحالى، بشعرها القصير وزينتها وعطرها، وكانت تلهم الرجال الأحاسيس نفسها التى تلهمها لنا نساؤنا حاليا.

رأيت نكتة فى جريدة ألمانية تصف رجلا صغير السن وامرأة صغيرة السن وهما يقفان ليلا بشرفة أحد الفنادق التى تطل على البحر. قال لها "أترين النجوم وهى تغوص بصفحة المحيط المظلمة؟" قالت: "اختصر الأمر، رقم غرفتى هو ٣٢". هذا من المفروض أن يكون فى عصرنا الحديث، ولكن أعتقد أن المرأة فى روما قالت "اختصر الأمر" لعشاقها الرومان بالطريقة نفسها ، وكذلك المرأة بالإسكندرية فى زمن كليوباترا. بعض مراحل التاريخ تعد جديدة، وعندما تتحرك عجلة الزمن تصبح النساء متجددات، ويصبحن غير متجددات بمضى الوقت. النساء الرومانيات فى الإمبراطورية الرومانية كن بالتأكيد متجددات، وكذلك النساء فى مصر البطلمية، متجددات ويواكبن العصر بكل تأكيد، ولكن كانت الفنادق تدار بطريقة أخرى!

(٣)

التجدد والتحديث ليسا بالأمر الذى اخترعناه، إنه شيء يحدث فى نهايات الحضارات. فكما أن أوراق الأشجار الخضراء تتحول إلى صفراء فى الخريف، فكذلك النساء فى نهاية كل الحضارات المعروفة، الرومانية واليونانية والمصرية، كن حديثات وذكيات وأنيقات، ويقلن "اختصر الأمر" ويفعلن ما يسرهن.

هنا لنا أن نتساءل عن عمق تلك الحداثة، حتى فى المرأة، أنت تسمح لها بفرصة كاملة وإذا لم تسمح لها بذلك فستأخذها قسرًا. علامة التجدد فى المرأة هى أنها حين تقول "اختصر الأمر" يجب أن يختصر الرجل كل الكلمات والعبارات ويدخل مباشرة فى صلب الموضوع ويحدد ما يريد!

إن كل ما يريده هو مجرد مكان صغير وعلاقة غرامية شديدة التفاهة، ومن الغريب أن يكون ما يريده على هذا القدر من التفاهة. لكن هكذا تصل الفتاة الجديدة إلى ما تريده بجرأة وجسارة وتكرار، لتجد أن حياتها هى سلسلة من تلك المواقف. "اختصر الأمر يا فتى!" وعندما تأتى إلى الموقف رقم ألف تصبح منهكة، فبعد تكرار هذه المواقف تأتى النهاية الفارغة تماما، حيث لا يوجد ما يمكن اختصاره!

تبدأ الفتاة بعد ذلك تموء وتقول للفتى "ضع جديدا فى الأمر"، ولأن الفتى قد اختصر الأمر تماما بحيث لن يضيف إلى الأمر شيئا أبدا، فإنه يقول "لا أستطيع أن أعطيك سوى الحب يا صغيرتى"، وتقبل الفتاة ذلك لأنها تعرف أنه ليس سوى صدى للماضى الذى كان مثقلا بالعواطف بعد أن تكون قد اختصرت الأمر تماما، ووصلت به إلى القاع ستجد أن آخر ما ترغبه هو أن تستلقى على هذا القاع ولسان حالها يقول "أيها الفتى، ألن تفعل شيئا جديدًا؟"، ولأن الفتى قد اختصر كل شيء، لن توجد لديه أية إلهامات أو رغبة ليفعل أى جديد.

(٤)

النساء لا يتغيرن وإنما يتنقلن بين سلسلة منتظمة من المراحل. المرأة كانت العبدة، ثم الرفيقة، ثم الزوجة المحترمة، ثم الأم النبيلة، ثم المرأة العظيمة، والمواطنة، ثم الأنثى المستقلة، ثم الفتاة الجديدة التى تقول "اختصر يا فتى"، وعندما اختصر الفتى كل الأمر، بدأت آلة الزمن فى العمل، ولأنه لا يوجد ما تعمل عليه سوى فتاة "اختصر الأمر" فإنها تطحنها لتعيدها إلى مرحلة العبدة مرة أخرى، وتستمر الدورة من جديد، إلى أن نصل مرة أخرى بعد ألف أو ألفى سنة إلى فتاة "اختصر الأمر يا فتى!"

اعتادت النساء أن تفهم بصورة أفضل من الرجال قاعدة عش ودع الآخرين يعيشون، اعشق ودع الآخرين يعشقون، ويصر الرجال على وضع أهداف للحياة وللحب، ولكن النساء يعرفن ما هو أفضل، فقد اعتدن معرفة أن الحياة تتدفق تدفقًا رقيقًا. وفى حركة دائمة لا تعرف نهاية حتى لو كانت هناك أماكن وعرة. اعتادت النساء رؤية أنفسهن كشلالات ناعمة متدفقة من الجاذبية والرغبة والجمال، ينابيع متدفقة رقيقة من الطاقة والسلام. ثم تتغير الفكرة فجأة ويرين أنفسهن أشياءً معزولة، إناث مستقلات لكنهن أدوات للحب وأدوات للعمل، وأدوات للسياسة وأدوات للسرور، أو أى من ذلك. ومع ذلك يطلبن من كل شىء أن يكون له غرض، حتى الطفل الصغير وحتى الحب نفسه يجب أن يكون له غرض. عندما تبدأ النساء فى البحث عن الغرض لا يترددن، فحين يقطعن زهرة يقلن "لا بد وأن هناك غرضا لهذه الزهرة"، ويجب أن نعرفه، ثم يبدأن فى قطف أوراق الزهرة حتى لا يبقى منها شىء، ثم يقطفن مركزها ويصلن إلى الأجزاء الخضراء دون أن يصلن إلى الغرض فيقطعن قاعدة الزهرة قائلات "هذه زهرة غبية ليس لها غرض".

(٥)

الحياة ليست قضية أغراض وإنما قضية تدفق. التدفق هو الفيصل. إذا فكرت فى الزهرة فهى كالنهر الصغير المتدفق والذى لا يتوقف عن الجريان أبدا ولو لحظات. منذ لحظة ظهور البرعم الصغير فوق الأوراق والساق، وينتفخ ببطء ثم يتفتح وتظهر الأوراق الملونة من الغطاء الأخضر وتكتمل الزهرة البيضاء والذهبية متألقة على قمة الساق ثم تذبل فى سكون وتسقط وتختفى، ومع ذلك لا تنتهى الأزهار، إنها لا تتوقف، إنها دورة حياة مستمرة. التفتح ثم الإشراق ثم الذبول الناعم. كالنافورة التى تقذف الماء إلى أعلى ثم يعود الماء إليها لتقذفه لأعلى ثانية وهكذا بدون توقف. الشىء نفسه بالنسبة للحب. لا غرض هناك.

لا يوجد ما يمكن اختصاره باستثناء الزيف والذى لا هو حب ولا حياة. الحب نفسه تدفق، شلالان صغيران من الأحاسيس، واحد من المرأة والآخر من الرجل، يتدفقان ويتدفقان ولا يتوقفان أبدا. أحيانا ما يومضان بالنجوم وأحيانا يخبوان، ولكنهما لا يتوقفان بل يستمران فى التدفق ثم يتلاحمان ويندمجان، لكنهما لا يتوقفان أبدًا عن التدفق. قد تنتج علاقة واحدة أزهارا عديدة كما ينتج نبات الورد الكثير من الورود، ولكنها جميعا ستموت ثانية عندما يحل الخريف، ولكن النبات نفسه لا يموت. لو أن الأزهار لا تذبل لما كانت أزهارا وإنما أشياء صناعية. ولكن الزهور التى تذبل لها جذور وفى الجذور يستمر التدفق. استمرار التدفق هو الذى يعنينا، ومقولة عش ودع الآخرين يعيشون، تعنى أنه ليس للحب أى غرض.

❁❁❁❁❁



التملـــك

(١)

قضية التملك، كما قرأت مؤخرا أصبحت قضية دينية، المتدينون يصرون على أن التملك لا يمكن أن يكون أمرا دينيا؛ لأن المتدين لا يكترث بأن يمتلك أو لا يمتلك، الذى يكترث بامتلاك المال وبالمتاع والعقارات هو لا دين له، ولكن ما إن يدخل الدين إلى الساحة إلا ويخرج منها الاهتمام بامتلاك الأشياء فى هذا العالم.

أعتقد أن تلك المفاهيم تعد قاسية بعض الشىء على الإنسان. حيث إننى لا بد وأن أنفق أفضل فترات حياتى فى كسب العيش وفى الحصول على القليل من المتاع ما أمكن. إذن فإما أن أعترف بأننى إنسان شقى بلا دين فى معظم أوقاتى أو أن أصبح شحاذا معدوما ومتطفلا على غيرى من الرجال الذين يعملون.

هناك خطأ واضح فى هذا الجدل. العمل من المفروض أنه مقدس، والأجور حقيرة ودنيوية، وحساب التوفير بالبنك بالتأكيد يتعارض مع الدين وفقا للتفسير الكنسى الخالص. فأين نحن من ذلك؟ هناك شىء خسيس فى اكتناز المال. ولكن الأشد وطأة هى كارثة ألا يكون لديك مال على الإطلاق عندما تحتاج إليه.

المشكلة الخاصة بقضية التملك سواء للمال أو المتاع هى أن معظمنا قد مل منها مللاً عظيما. آباؤنا كانت تملؤهم الإثارة من كسب المال، وبناء بيوتهم وتدبير الاحتياجات عند التقدم فى العمر والادخار من أجل أولادهم.

الأولاد يرثون ما يتركه آباؤهم ولكنهم لا يرثون الإثارة من آبائهم وأمهاتهم، ولا يعرفون عنها إلا أقل القليل، وهو ما لا يعرفه الآباء مطلقًا. لو أن أبى كانت تملؤه الإثارة من التوفير، لكنت قد امتلأت بالإثارة من إنفاق آخر جنيه أملكه، ولو أن أبى أعطى كل ما يملك للفقراء لكنت استمتعت بجعل الأمور أكثر بهجة من أجل نفسى. لو أن أبى ضيع ما يملك لكنت قد التمست له العذر لأنه كان مبذرا ومتلافا.

لكن الآباء فى الخمسين سنة الماضية كانوا يوفرون ويبنون بيوتا ويتملكون ثروات ويتركون ميراثًا لأبنائهم ويبشرون بقدسية العمل. وهم بذلك يكونون قد تعبوا كثيرا وأدوا ما عليهم. الصغار لا يؤمنون بقدسية العمل وفكرة الادخار من أجل أطفالهم تصيبهم بالملل. لو بنوا لأنفسهم بيتا صغيرا، لسئموا منه خلال فترة وجيزة. هم يريدون سيارة يتنزهون بها ومالا لينفقوه فى المتعة، ولكن الممتلكات هى ببساطة مملة لهم. ما فائدة امتلاكك أشياء ما لم يكن بمقدورك أن تفعل بها شيئا؟

وهكذا سيصل الصغار إلى عدم الاكتراث الدينى بالتملك من خلال الملل.

(٢)

لكن الملل من التملك لا يحل المشكلة؛ لأنك مهما أحسست بالملل فعليك أن تعيش ولكى تفعل ذلك يجب أن تكسب عيشك ويجب أن تمتلك بعضا من الممتلكات. لو أن لديك زوجة وأطفالا فإن الكسب والتملك يصيران من الأهمية بمكان. وهكذا، الكثيرون من الشباب فى أيامنا هذه يسوقون أنفسهم باضطرار إلى العمل والأعمال، وهم يشعرون بالملل الداخلى من كل ذلك ويشكون من حياتهم، لكن ما الذى يمكن فعله حيال ذلك؟ ما يمكن فعله هو مواجهة الموقف.

الشاب الصغير هذه الأيام يقول لنفسه "لقد مللت من صنع القليل من المال ببطء، ومللت من فكرة امتلاك نصيبى الضئيل"، لماذا لم تكن لى عمة عجوز أرثها حين تموت وتترك لى مالاً وفيرًا؟" لماذا لا أتزوج من امرأة غنية؟ لماذا لا يساعدنى أحد على مواجهة الحياة؟ هذا على ما يبدو هو سلوك الشباب الإنجليز. هم فى الواقع لا يطلبون الكثير ولا يسعون وراء الثراء. كل ما يريدونه كما يقولون، هو الاستقلال، والذى يعنيهم ليس الاستقلال الحقيقى وإنما التحرر من ملل كسب العيش. كسب العيش كان لآبائنا وأجدادنا نوع من المغامرة، ولكنه بالنسبة لنا لم يعد كذلك، بل صار مللا. والموقف خطير؛ لأنه وعلى الرغم من كل شىء يعد تغيرًا فى المشاعر يؤدى بالتبعية إلى تغير العالم.

عندما يقال فى جريدة التايمز إن قضية تملك الثروات أصبحت الآن قضية دينية، فإن ذلك لا يعنى أن القضية هى: هل أتملك بيتى ذا الحجرات الستة، أم لا قد أصبحت قضية دينية؟ وإنما هى إشارة غامضة للملكية القومية، وما إذا كانت الأمة أم الأفراد سيتملكون الأرض والمصانع ، وهذا هو ما يشيرون إليه.

ربما أصبحت الملكية العامة أم الخاصة موضوعًا دينيا، ولكن إذا كان الأمر كذلك، كقضية الرجل وبيته الخاص فإنها أصبحت موضوعًا دينيا ليس لاهتمامنا الحماسى بذلك وإنما لعدم اكتراثنا الممض. الدين يجب ألا يكترث بموضوع التملك وكذلك نحن. معظم الناس يتملكهم الضجر عند طرح مشكلة الملكية الفردية أم القومية وبالتالى فهم عند مناقشتهم هذه النقطة يبدون متدينين بشدة.

لقد فقد التملك غرضه وفقد حيويته وأصابنا بالملل، سواء أكان عاما أم خاصًّا، قوميًّا أم فرديا. وعلى الرغم من ذلك فإننا نتعلق بما نملك، والغريزة فى ذلك طبيعية تماما، ولكننا لا نزال نحس بالملل من موضوع التملك وكلما أدركنا ذلك بسرعة كان ذلك أفضل لأن ذلك سيحمينا من البلشفية.

لو أمكننا الوصول إلى إجماع عادل على أن التملك ممل، وجمع المال ممل، وكسب العيش ممل، لاستطعنا التخلص من الكثير من الملل. فالأرض على سبيل المثال، لا أحد فى الحقيقة يريدها ولا أحد يريد مناجم الفحم. حتى الأمة لا تريدهما. لقد سئم رجال هذه الأمة من المناجم والأرض والأجور. لماذا لا نعطى كل ذلك للنساء؟ لنساء بريطانيا! الحاجة الزائدة للمال هى حاجة أنثوية، فلماذا لا نعطى للنساء وسائل جمع المال الذى يحتاجونه أكثر؟ يجب أن يعترف الرجال بأنهم فاشلون. لو منحنا النساء وسائل جمع المال، فلربما حدث إشباع للاحتياج الأنثوى الشديد للمال.

❁❁❁❁❁

سـيدٌ فى بيتـه

(١)

نحن لا نزال محكومين بالتعبيرات الجاهزة. خذ على سبيل المثال: "الرجل يجب أن يكون سيدًا فى بيته". هناك العديد من المسلمات القديمة التى نصدقها نظريا. كل صبى صغير يرى نفسه سيد بيته عندما يكبر، وحين يكبر تكبر الفكرة معه، ومن الطبيعى عندما يحين الوقت ويجد أنه ليس سيدًا لبيته أن يقول "هاته النسوة المتجبرات مصرات على تسيد الموقف، وهن فى ذلك على خطأ عظيم".

ما يجب أن نحترس منه هو التفكير الجماعى. فكرة أن الرجل يجب أن يكون سيد بيته هى مجرد فكرة جماعية. لا يوجد رجل يفكر فى ذلك بالنسبة لنفسه. هو يقبلها كما هى، كعضو فى الجماعة. هو يولد مرتبطًا بهذه الفكرة ارتباطا شديدا. فى الحقيقة، نولد جميعا مرتبطين بشدة بالأفكار الجماعية بحيث يصعب علينا التخلص منها أو القيام بحركة من جانبنا لتغييرها. نحن نصيح كجمع من الغوغاء بأفكارنا الجماعية ولا نفعل غير ذلك. "يجب أن يكون الرجل سيد بيته"، و"بيت الرجل الإنجليزى هو قلعته" و"خادمان أفضل من خادم واحد" و "ما أسعد الزوجة التى لديها سيارتها الصغيرة" و "واجب الزوج أن يعطى زوجته ما تريد". و"واجب الزوجة أن تقول لزوجها نعم يا حبيبى". كل تلك الأمور عبارة عن أفكار جماعية عادة ما تتناقض مع بعضها ولكنها دائمًا فعالة. لو أردت أن تخرس إنسانا، قل له إحدى الأفكار الجماعية، وسيسكت تماما.

ما يجب عمله مع الفكرة الجماعية هو تفريدها. فبدلا من التأكيد الجماعى "يجب أن يكون الرجل سيد بيته"، يجب أن يقول الرجل المقصود "أنا، جيم، يجب أن أكون سيدا فى بيتى على زوجتى جوليا"، وما إن تنجح فى تحويل المسألة إلى قضية شخصية وتحقق ذلك على الأرض، إلا وتشعر بتأنيب الضمير. تستطيع أن تقول بعنف وأنت تشرب قهوة الصباح "يجب أن يكون الرجل سيدا فى بيته"، ولكن

الأمر يحتاج إلى شجاعة أكثر لتقول "اسمى جيم، ويجب أن أكون سيد هذا البيت، سيدا عليك يا جوليا" بما يضع الأمور فى نصابها. لكن نادرا ما تصبح الأمور هكذا، فالسيد يرغى ويزبد بفكرة جماعية، والزوجة ترغى وتزبد برفض جماعى، مما يؤدى إلى ورطة كبيرة.

(٢)

فى الحقيقة، عندما يبدأ جيم فى النظر إلى قلبه وإلى بيته، يكتشف اكتشافا مذهلا أنه ليست لديه أدنى رغبة فى أن يكون سيد البيت. على النقيض، تبعث تلك الفكرة بالسأم إلى نفسه، وعندما ينظر إلى جوليا بهدوء وهى تصب القهوة يجد أن رغبته فى أن يكون سيدا على هذه الأنثى الصغيرة غير موجودة على الإطلاق. هذا هو الفرق بين الفكرة الجماعية والتفكير الفردى الحقيقى. الرجل لا بد وأن يكون سيد بيته. ولكن جيم يجد أن فكرة أن يكون سيد بيته تافهة، وفكرة أن يكون سيدا على جوليا لا تلهمه بشىء. هو فى الحقيقة لا يكترث بما تفعله جوليا بيومها حين يكون بعيدا فى عمله. هو يريدها أن تسلى نفسها ولا تزعجه، وهذا هو الأمر معه.

هكذا تسقط فكرة أن يصبح الرجل سيد بيته عندما لا يكترث الرجل بسيادته. وهذا هو أسوأ ما فى الأفكار الجماعية. إنها تكون غير مقنعة لبعض الرجال، ورجال آخرون يرفضونها تماما. مشكلة أن يكون الرجل سيد بيته ليست حاليا بمشكلة؛ لأن الرجل لا يكترث بها على الإطلاق. الرجل بالفعل غير مكترث، وإن كان من وقت لآخر يرددها كفكرة جماعية وتتسبب له فى بعض الأضرار.

من الأمور المسلم بها أنه عندما تتسيد الموقف امرأة، فلأن الرجل لا يريد أن يفعل ذلك. الأمر ليس إصرارًا من جانب المرأة وإنما عدم اهتمام من جانب الرجل. الرجال لا يكترثون ولكن عندما يفعلون، فلا مجال هناك لتدخل النساء. الرجال يهتمون بالهندسة والأعمال الميكانيكية ولا مجال لتدخل النساء فى هذه

الأمور، لكنهم لا يكترثون ألبتة بالزى والموضة والأمور المكتبية أو بأعمال المنزل مما يجعل النساء يتدفقن كالسيل على تلك الأعمال. لو صار لدينا مجلس عموم غالبيته من النساء فإن السبب البسيط لذلك هو أن الرجال سيسعدهم أن يتركوا سن القوانين للنساء لأنهن يجدن الثرثرة!

(٣)

اللامبالاة أمر غريب، أمر يوجد وراء التفكير الجماعى والنشاط الجماعى، مثل الفجوة فى الأساسات. لا نزال نحدث ضجة عظيمة بالنسبة للبرلمان، ولكن فى الواقع معظم الرجال لا يكترثون بالبرلمان، ويبدون اهتماما بالبيت والأبناء والزوجة، ولكن هم فى الحقيقة غير مبالين بالبيت أو بالزوجة، ولا يريدون أن تسبب لهم هذه الأمور أعباء إضافية، فيتركون الأمر برمته للزوجة ولا يرغبون لأن يكونوا سادة.

اللامبالاة ليست هى عدم الاهتمام، فعدم الاهتمام يعنى عدم الاكتراث بالأشياء قليلة الأهمية، ويعنى أيضا ألا تكون سببًا للقلق. ولكن اللامبالاة هى إهمال هذه الأشياء تماما وينتج من فقدان الإحساس بها. الرجال الذين لا يكترثون يشعرون بالقلق من ذلك. وفى الوقت نفسه يستاءون من اهتمام النساء بتلك الأمور الصغيرة وادعاءهن أهميتها وبالتالى يتسيدن الموقف.

المشكلة ليست فى تسيد النساء، وإنما فى عدم اكتراث الرجال، والذى يعد المرض الحقيقى لهذا الزمن، فعدم القدرة على الاهتمام بأى شىء دائما ما يكتنفه القلق.

لكن متى يبدأ عدم الاكتراث فى الظهور؟ هو ينتج عن الاهتمام الزائد عن الحد أو الاهتمام بالأمر الخطأ. فى الماضى القريب، كان هناك عدم اكتراث بالسياسة من جانب بعض الرجال، وكان ذلك يعود إلى أن هؤلاء الرجال كانوا لا يحبون السياسة ولا يكترثون بالأمور السياسية. إذا كان جيم غير مكترث ببيته

الصغير ويترك كل الأمر لجوليا فإن ذلك يعود إلى أن أباه وجده كانا يوليان اهتمامًا كبيرًا بالبيت لدرجة السأم، ولأن الرجال يهتمون بشدة بوظائفهم حاليا؛ فإن ذلك يعود إلى أن آباءنا وأجدادنا كانوا يعتبرون الوظيفة شيئا بالغ الأهمية؛ وبالتالى أرهقهم الإحساس بها إلى أن أصبحت منفرة لهم.

الرجال يتركون الساحة للنساء عندما يكونون غير مكترثين داخليا بالساحة. ما تسيطر عليه النساء هو فى الحقيقة ما يتنازل عنه الرجال لهن فى المعركة، فهن لا يأخذن السلاح من الرجال إلا حينما يسقط السلاح من أيديهم.

الرجال حاليا يأكلهم القلق من عدم اكتراثهم ويلومون النساء، ويرددون كالببغاء الأفكار الجماعية مثل "الرجل يجب أن يكون سيدًا فى بيته".



حـكم النســاء

(١)

رجـــال هذه الأيـــام وبصفة خاصة الشباب منهم، يخـــافون من النساء، هم لا يرون أنهم أصبحوا أقلية فحسب، وأن النساء يفوقونهن عددا، ولكـــن يـــشعرون أيضا بأنهم يستطيعون مقاومة طوفان طاقة إغراء السيقان الحريرية للنساء. نـــساء فى كل مكان، وجميعهن قد اتخذن أهبة الاستعداد.

قد يظهر الشاب الصغير اهتماما قليلا بالمسألة، ولكن روحه الذكورية تكون منتبهة!، نساء، نساء، فى كل مكان، جميلات ومثيـــرات بجـــواربهن الحريريـــة، ويفعلن ما يردن وغير مباليات بأحد. النساء كالجراد يهبطن على كـــل الوظـــائف، ويقتنصنها ببراعة كالنمل النشط وينشرن من حولهن الأضواء الملونـــة للـــسعادة. والشاب الصغير بالطبع يشعر باليأس. قد لا يكون "تومى" يائسا من فتاتـــه" إلـــزى ولكنه عندما يراها مع زميلاتها من الفتيات يصبح خائفا، ولأنه خائف يهتـــف فـــى داخله "الرجل يجب أن يصبح سيدا". كلمة "يجب" هى محل الاهتمام. قـــد يكـــون تومى سيدا على إلزى فى بيته الصغير ولكنها عندما تنطلق فى الصباح إلى عملها وتنضم إلى رفيقاتها ذوات السيقان الناعمة، فمن الذى يستطيع أن يكون سيدا لها؟، ليس تومى بالتأكيد.

الأمر ليس فى حكم النساء اللاتى يرتدين الملابس القصيرة. لم تعد الملابس القصيرة ذات أهمية، فالأرجل الناعمة لا تخفيها الملابس ولا الجـــوارب، والمـــرأة الشابة التى تشعر بجمالها لن تنفق حياتها فى رعاية زوج صغير. هى غير مهتمـــة بذلك بالمرة. إذن فإن حكم النساء الذى كان مشكلة تؤرق آباءنا وأجـــدادنا لا يعـــد شيئا بالنسبة لنا.

(٢)

الرجل ليس خائفًا من أن تحكمه النساء، إن خوفه أعمق من ذلك، فهو يخاف أن يتم اكتساحه، وأن يتحول إلى شئ كمالى للمرأة عارية السيقان، فهـو يتحـدث بمرارة عن حكم النساء وعن التسلط الأشد مرارة للنساء، ويتحدث بهمس عن عودة الرجال ليصبحوا السادة مرة أخرى. وهو يعـرف جيـدا أنه لـن يعـود سيـدا مرة أخرى. هـو يتمنى أن يعيش ليرى رؤوس النسـاء تقطـع، ومعهـن رأس مارى ملكة إسكوتلندا. ولكنه لا يستطيع أن يقطع رأس المرأة الحديثة، فذلك يـشبه محاولة قطع رأس جرادة فى سرب من الجراد. لقد خرجت المرأة عـن الـسيطرة ولن يستطيع إعادتها إلى سيطرته مرة أخرى. وهى بالقطع لن تعود لتكون تحـت سيطرته مرة أخرى.

نحن نواجه حكم النساء، حكم الأمومة، هى الكلمة المخيفة التى تصيب الذكر بالرجفة. ما تعنيه هذه الكلمة غير محدد، ولكنها توحى بتبعية الرجل للمرأة. تلـوح النساء بالسوط والرجل أمامها كالكلب المدرب يقفز فى الطوق. الطـوق المـشتعل بالنار. يا له من كابوس!!

حكم الأمومة كما هو معروف، يعنى أن تحكم الأم؛ لأنها هى رأس العائلـة. أن يرث الطفال اسم الأم، وتنتقل الممتلكات من الأم إلى الابنة الكبرى مع إعطـاء الأولاد معاشا هزيلا. الزوجة هى التى تقسم على حب زوجها، بينما يقسم الـزوج على توقير الزوجة وطاعتها. لا يبدو أن ذلك يختلف عما هو حادث بالفعل، فيمـا عدا أنه عندما تزوج تومى سميث من إلزا جونز أصبح اسمه السيد جونز، وهذا ما يحدث فى تسع حالات من كل عشرة.

هذا هو حكم الأم الذى ننزلق إليه. لا فائدة من التصدى للمدّ، فـالمرأة فـى حالة فيضان، ولكن تحت حكم الأم المسيطرة، علينا ألا نصل إلى مرحلـة فقـدان الهوية، فالرجال والنساء سيظلون دائما رجالاً ونساءً. لا جديد تحت الشمس، وحكم الأم قديم وكان موجودًا وسيظل موجودًا. لكن ماذا عنهن فى الحياة الفعلية؟! قيـل إنه فى التاريخ القديم لم يكن هناك سوى حكم الأم، حيث كان الأبناء يكتسبون اسـم

الأم وينتمون إلى قبيلة الأم، بينما يظل الرجل بلا اسم على حد علمي. إن نظام حكم الأم لا يزال موجودا فى قبائل البربر فى الصحراء وفى جنوب الهند بنفس سمات النظام القديم.

إذا نظرت إلى صورة فوتوغرافية للبربر، ستجد أن الرجال يبدون مرحين وأشداء، بينما النساء يبدين متعبات كما لو كن قد قمن بكل العمل. يبدو أن الأمر كان كذلك فى الماضى البعيد. فتحت النظام الأمومى الذى يسبق نظامنا الأبوى، كان الرجال يستمتعون بالصيد والرقص والقتال بينما تقوم النساء بكل العمل بالإضافة إلى رعاية الصغار.

(٣)

حكم النساء فى نظرى قد لا يكون شديد السوء، من حق المرأة أن تحتضن أبناءها وأن تطلق عليهم اسمها، وفيما يختص بالممتلكات وبأثاث المنزل والمال الذى يوجد بالبنك، فمن الطبيعى أنها أشياء تخصها.

حكم المرأة ليس شيئا يجب أن نخشاه، إنه يمثل حلاً لمشكلتنا الاجتماعية المتعبة. خذ مثلا هنود البيوبلو فى صحراء أريزونا. هم لا يزال لديهم طراز من حكم الأم. الرجل يتزوج فى قبيلة المرأة ويعيش فى بيت عائلتها، وما يزرعه من الذرة يذهب إلى قبيلتها، وأبناؤه هم أبناء قبيلتها ويحملون اسم الأم، وكل ما يأتى إلى البيت يخصها ويصبح ملكا لها. ليس للرجل حق فى البيت لأنه يخص قبيلتها وأى شيء فى البيت هو ملك لها، فبيت المرأة الهندية هو قلعتها.

(٤)

لكن، ماذا عن الرجل تحت هذا النظام المخيف لحكم الأم؟ هل يكون الرجل عبدا للمرأة؟ لا، فالزواج بالنسبة له شيء ثانوى، حدث صغير. إن واجبه الأول

ليس تجاه زوجته وأولاده، فهم ينتمون للقبيلة. واجبه الأول هو تجاه القبيلة. الرجل عضو نشط ويرتبط بالقبيلة، وثانويا هو ابن أو زوج أو أب.

حياة الرجل الحقيقية لا يقضيها فى بيته الصغير، وإنما يقضى معظمها فى المعبد تحت الأرض والمخصص لتجمع الذكور فقط حيث تمارس الطقوس الدينية للقبيلة، ثم إنه أيضا قد يمارس الصيد أو الطقوس المقدسة فوق الجبال، أو يعمل فى الحقول. ولكنه يقضى شهورا معينة من السنة فى بيت زوجته وينام فيه. أما باقى الأيام فيقضيها أساسا فى المعبد حيث ينام ويعيش مع أقرانه من الرجال يتدربون على يد كبار رجال القبيلة.

الهندى شديد التدين، والدين بالنسبة له هو الحياة نفسها، وأى شىء يفعله هو عمل دينى، سواء زراعة الذرة أو حصاده، أو سلخ فروة رأس عدو أو ولادة طفل، حتى غسيل شعره الأسود الطويل هو عمل دينى، ويعتقد أنه بجهده مع القبيلة تبقى القبيلة حية. بالطبع هذه ديانة بدائية وثنية ووفقا لمعاييرنا، ولكنها ديانة!

نأتى إلى الأطفال. عندما يصل الأولاد إلى عمر الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، يؤخذون من أمهاتهم ويعهد بهم إلى الكبار من رجال القبيلة، الذين يعلمونهم أسلوب الحياة فى المعبد، أو يأخذونهم إلى المعسكرات المقدسة بالجبال ويقومون بإعدادهم ليصبحوا رجالا. قد يذهبون لتناول الطعام فى بيوت أمهاتهم ولكنهم يعيشون وينامون مع الرجال.

(٥)

هذا هو حكم الأم القديم، وهو الصيغة الغريزية التى يأخذ بها المجتمع إلى وقتنا الحالى. يبدو أن إرسال الأولاد للمدرسة عند عمر الثالثة عشرة لتجهيزهم لمرحلة الرجولة كانت غريزة اجتماعية، وأنها لغريزة اجتماعية للإنسان أن يترك زوجته وأولاده فى أمان فى البيت ويخرج هو للصيد والقنص مع أقرانه من الرجال لكى يحصل على ضروراته الحياتية العميقة. هناك النادى والحانات العامة

والتى تعد البدائل للمعبد المقدس، وبلا شك أنها ضرورية تماما لمعظم الرجال. فى النادى والحانات العامة يتعلم الرجال خبرات مختلفة من البعض ويتناقشون فى السياسة ويتبادلون الأفكار ويصنعون التاريخ. فى النادى والحانات العامة يحاول الرجال إشباع غرائزهم الاجتماعية العميقة، ولكى يفعلوا ذلك يجب أن يبتعدوا عن أسرهم وعن النساء تماما.

فى السنوات الأخيرة، سيطرت الأسرة على الرجل وبدأت فى تحطيمه. حين تتمسك الأسرة بالرجل، فإن غرائزه الاجتماعية العميقة تتلاشى ويصبح شيئا سلبيا. عندئذ تصبح المرأة هى الأقوى والأكثر إيجابية وتنطلق بحرية إلى العالم.

لنعد إلى حكم النساء. فلتأخذ النساء الأطفال ويمنحنهم أسماءهن، فالطفل الحكيم فقط هو من يعرف أباه. لتأخذ النساء الثروة، فما الذى سيفعله الرجل حيث يرث ساعة تخص جده!، فلتصنع النساء من تجمعهن قبيلة كبيرة من أجل الحفاظ على أنفسهن وعلى أبنائهن. فهذا ليس سوى العدل.

وأيضا، ليتحرر الرجال مرة أخرى، ليتحرر الرجال من ضغوط الأسرة وممتلكات الأسرة. فلنعط للمرأة استقلالها التام ومعه المسئولية الكاملة. هذا هو السبيل الوحيد لإرضاء النساء. أعطهم استقلالهم الكامل وكذلك المسئولية الذاتية كأمهات وكرؤوس للأسرة. عندما يأخذ الأبناء اسم أمهم فسترعى الأم هذا الاسم كما يجب. وأعط للرجال أماكن جديدة للاجتماع حيث يكون بمقدورهم الجلوس معا وإشباع احتياجاتهم الاجتماعية العميقة، والتى لا يمكن إشباعها إلا بعيدًا عن النساء. من الضرورى لحياة المجتمع الحفاظ على أعضائه فى حيوية عضوية، لحمايتهم من ورطة الفوضى الناجمة عن الثورة الصناعية.

۞۞۞۞۞

حالة الفزع

(١)

ماذا حدث للإنجليز ليصبحوا خائفين من كل شيء على هذا النحو؟ إنهم فى حالة من الفزع الشديد ويتصرفون كقطيع من الفئران المذعورة حال رؤية القط. هم فى رعب من أشياء كثيرة .. المال والثروة، والحرب والعمل والبلشفية، والأدهى من ذلك كله أنهم مرعوبون جدا من الكلمة المطبوعة. هذه حالة غريبة جدا وإذلال للعقل لأناس كانوا دائما شجعاناً، وبالنسبة للأمة، تعد حالة خطيرة جدا للعقل، فعندما يقع شعب فى حالة الفزع، فليساعده الله. الفزع العام يقود أحيانا إلى رعب عام عندها يقول المرء، فليساعدنا الله.

هناك بالطبع مبرر معين للخوف. لقد حان وقت التغيير. لقد تملكتنا الحاجة للتغيير. نحن نتغير، ويجب أن نتغير ولا نستطيع تفادى التغير أكثر مما تستطيع أوراق الأشجار مقاومة الاصفرار والسقوط فى الخريف. نحن نتغير وفى طور التغير، ولسوف يكون التغير عظيما، ونحن نشعر بذلك غريزيا ونعرف ذلك، لكننا خائفون لأن التغير مؤلم، ففى فترات التحول الخطير يكون كل شيء غير مؤكد وتكون الأشياء الحية هى الأكثر تعرضًا للعطب والتلف.

ولكن لماذا كل هذا الخوف؟ فمع التسليم بكل الآلام والأخطار والشكوك التى تواكب التغير، فلا يوجد مبرر لأن يجتاحنا كل هذا الفزع. لو فكرنا فى الأمر، فإن كل طفل يولد هو بذرة للتغير، وخطر على أمه، فهو يمثل ألمًا عظيمًا عند الولادة ومسئولية جديدة بعد الولادة، أى أنه تغير. لو وقعنا فى حالة الفزع عند حدوث ذلك، فعلينا أن نتوقف عن أن يكون لنا أبناء بالمرة، ويكون من الأفضل هو ألا يكون لدينا أطفال. لماذا لا نواجه الأمر كالرجال والنساء؟

المرأة التى تنتظر طفلاً تقول لنفسها "نعم، أنا أشعر بعدم الارتياح، وأحيانا أشعر بالتعاسة وتنتظرنى أوقات الألم والخطر ولكن لدىّ فرصة طيبة للنجاة خاصة

إذا ما كنت ذكية وسآتى بحياة جديدة إلى العالم. أشعر بالأمل وبالسعادة. إذن يجب أن أقبل ما هو مُرٌّ مع ما هو حلو، فلا ولادة بدون كرب".

على الرجال بالطبع أن يسلكوا السلوك نفسه عند ولادة أوضاع جديدة وأفكار جديدة وعواطف جديدة. ولكن أشعر بالأسف حين أقرر أن معظم الرجال لا ينهجون ذلك النهج، بل يسقطون فى حالة الفزع. جميعنا يعرف أننا نواجه تغيرا اجتماعيا عظيما وإعادة تنظيم كبيرة للمجتمع. القليلون من الرجال ينظرون إليه ويحاولون معرفة كنه هذا التغير، لكن لا أحد فينا يعرف ما الذى سيصير إليه. لا يوجد حل جاهز، فالحلول الجاهزة هى أعظم الأخطار على الإطلاق. التغير تدفق بطئ يجب أن يحدث خطوة بخطوة، لكن لا بد من حدوثه. إننا لا نستطيع أن نقوده كالماكينة البخارية ولكننا يمكن أن نكون منتبهين وأذكياء فيما يتعلق به، ونراقب الخطوة التالية ونراقب الاتجاه والتوجه الأساسى. علينا التحلى بالصبر وعلينا الانتباه، وأن تكون لدينا الإرادة الإنسانية الطيبة، فهذا هو ما تحتاجه أوقات التغير وليس الفزع.

(٢)

إنجلترا الآن على شفا تغير عظيم وجذرى. خلال الخمسين عاما القادمة سوف يتغير الإطار العام لحياتنا الاجتماعية ويتبدل. العالم القديم لأجدادنا سيختفى ويذوب كالجليد، ومن المحتمل أن يتحول إلى فيضان جارف. لكن كيف سيكون العالم الخاص بأحفادنا بعد خمسين سنة، هذا ما لا نعرفه. الإطار الاجتماعى سيكون شديد الاختلاف عن عالمنا اليوم. إن علينا أن نتغير، وأملنا وصحتنا كلاهما يكمن فى قدرتنا على التغير وفى قدرتنا على التكيف مع الظروف الجديدة وعلى استعدادنا لقبول الأوضاع الجديدة والتعبير عن رغبات جديدة ومشاعر جديدة. الشجاعة هى الكلمة العظيمة التى يجب أن تستخدم، أما الهلع فلا ينطق إلا بكارثة.

هناك تغير عظيم قادم ولا بد أن يأتى. جميع الترتيبات الخاصة بالمال سوف تتغير، لكن إلى ماذا، لا أعرف. النظام الصناعى بكامله سوف يتغير. سوف يكون العمل مختلفا وسيكون الأجر مختلفا. الملكية سوف تختلف، الطبقات ستختلف وستتحول العلاقات الإنسانية وستكون أبسط. لو أننا أذكياء ومنتبهون وغير هيابين ستكون الحياة أفضل كثيرا وأكثر كرما وتلقائية وحيوية وأقل مادية. لو تملكنا الفزع والعجز والاضطهاد فلربما صارت الأمور أشد سوءًا عما هى عليه الآن. الأمر لنا، الأمر متروك للرجال ليصبحوا رجالا، عندما يكون الرجال شجعانا وراغبين فى التغير لا يمكن أن يحدث شىء، ولكن ما إن يسقط الرجال فى كمين الخوف مع ما يصاحبه من توقعات سيئة، فيجب ألا نتوقع إلا أسوأ الأمور. أن نكون متماسكين، فهذا أمر ولكن الشغب ضد التغير أمر آخر. فالشغب بأى شكل لا يمكن أن يؤدى إلا إلى نتائج كارثية. وعندما تقع الجماهير فى حالة الفزع ويحدث الشغب الجماهيرى فإن النكبة تكون قريبة.

(٣)

لا مناص عن تغير النظام الاجتماعى بأكمله ليس لأن الظروف تتغير – وإن كان هذا يعد سببا جزئيا – ولكن لأن الناس يتغيرون. نحن نتغير، أنت وأنا، نتغير جوهريا بمرور السنين، نشعر بأحاسيس جديدة، وتسقط القيم القديمة وتنشأ قيم جديدة. الأشياء التى اعتقدنا أننا نرغبها بشدة تصبح غير ذات بال ولا نهتم بها. الأشياء التى بنينا حياتنا عليها تتساقط وتختفى وهى عملية مؤلمة ولكنها ليست مأساوية. كلب الماء الذى كان يهز ذيله فى حبور وهو فى الماء لا بد وأن يشعر بالضيق الشديد عندما يبدأ ذيله فى الاختفاء وتبدأ أرجله فى الظهور. كان الذيل أعز ما عنده وأكثر أعضائه نشاطا وحياته كلها فى هذا الذيل، ولكن الآن، يجب أن يذهب الذيل. قد يبدو الأمر قاسيا عليه عندما يتحول إلى ضفدعة صغيرة، ولكنها حتمية التطور.

أنا ككاتب روائى، أشعر أن اهتمامى ينصب على التغير داخل الفرد، التغير الاجتماعى العظيم يثير اهتمامى ويجعلنى مضطربا، لكننى أعجز عن الخوض فيه لأنه ليس مجالى. أنا أعرف أن التغير قادم، وأعرف أننا يجب أن يكون لنا نظام أكثر كرما وإنسانية يقوم على قيم الحياة وليس على قيم المال. هذا ما أعرفه. ولكن ما الخطوات التى يجب اتخاذها؟ فهذا ما لا أعرفه. غيرى من الرجال قد يعرفون ذلك بصورة أفضل.

إن مجالى هو أن أعرف المشاعر داخل الإنسان و أجعل المشاعر الجديدة متيقظة وواعية. ما يعذب الناس المتحضرين حقيقة أنهم مليئون بالمشاعر التى لا يعرفون عنها شيئا ولا يدركون كنهها ولا يستطيعون التعبير عنها أو إشباعها ولا يعيشونها، وبالتالى فهم معذبون. إنها مثل أن يكون لديك طاقة لا تستطيع استخدامها، هى تدمرك. والمشاعر هى صورة من صور الطاقة الحيوية.

إننى مقتنع أن الأغلبية من الناس حاليا لديهم مشاعر طيبة وكريمة لا يستطيعون معرفتها أو تجربتها لأن لديهم خوفًا وكبتًا. لا أصدق أن الناس سيصبحون سفلة، ولصوصا، وقتلة، ومجرمين جنسيين لو تم تحريرهم من القسر القانونى، بالعكس أنا أعتقد أن الأغلبية العظمى ستصبح أكثر كرما وأطيب قلبًا. أنا مقتنع بأن الناس يريدون أن يكونوا أكثر سماحة وأطيب قلبًا عما يسمح لهم به نظامنا الاجتماعى الذى يحكمه المال. الصراع القاسى من أجل المال، والذى نحن مجبرون عليه، يجرح طبيعتنا الطيبة لأكثر مما نستطيع أن نتحمله. أنا متأكد بأن ذلك هو حال عدد كبير من الناس.

(٤)

يصدق الشيء نفسه على مشاعرنا الحبيسة، ولكنه بدرجة أسوأ. فنحن نتعامل مع الجنس بخطأ كامل، مع أنه لا يوجد شيء أهم من الجنس فى الكائن الإنسانى، فنحن لا نتحدث عنه ولا نذكره إلا ونحن حريصون على عدم الخوض

فيه بحرية أو الاستغراق فى تفاصيله، حيث إنه أمر يثير الاضطراب وبصورة ما يعد خطأ؟ .

المشكلة مع الجنس هى أننا لا نجرؤ على الحديث عنه لكننا نفكر فيه طبيعيا. قد نكون غير مخلصين جنسيا فى السر، لكننا لسنا فاسدين. نحن مجرد بشر يعيش فينا الجنس. سنكون بخير لو لم يكن لدينا هذا الخوف غير المبرر من الجنس. عندما كنت صبيا فى الثامنة عشرة اعتدت أن أتذكر بكل الخجل والغضب فى الصباح تلك الأفكار والرغبات الجنسية التى كانت لدىّ خلال الليل. خجل وغضب وخوف من أن يعرف أحد بذلك، وكرهت الذات التى كنت عليها فى الليلة السابقة.

معظم الصبية على هذا النحو، وهذا بالطبع خطأ فظيع. الصبى الذى كانت لديه أحاسيس وأفكار جنسية مستثارة كان أنا، بشخصيتى الحية، دافقة القلب والمشاعر، والصبى الذى تذكر فى الصباح تلك المشاعر بذلك الخوف والخجل والغضب كان أنا أيضا بشخصيتى الاجتماعية والعقلية، فى حالة الخوف يكون الاثنان منقسمين ضد بعضهما. الصبى منقسم على ذاته، والفتاة منقسمة على ذاتها والناس منقسمون على ذواتهم، إنها حالة كارثية.

(٥)

مر وقت طويل قبل أن أتمكن من أن أقول لنفسى "لن أشعر بالخجل من أفكارى ورغباتى الجنسية لأنها هى نفسى وذاتى وجزء من حياتى. سأقبل نفسى جنسيا كما قبلتها عقليا وروحيا، وأعرف أننى شىء فى وقت وشىء مختلف فى وقت آخر، ولكننى دائما أنا، شخص واحد وذات واحدة. الجنس هو من نفسى، والعقل هو من نفسى ولن يجعلنى أحد أشعر بالخجل من ذلك".

استغرق الأمر وقتا طويلاً لكى أصل إلى هذا القرار، ولكنى أتــذكر كيــف شعرت بالتحرر والدفء والتعاطف تجاه الناس. لم يعد عندى ما أخفيه عــنهم أو شــىء أصاب منه بالهلع خشية أن يعرفوه، كل ما يخصنى من جنس يخصنى أنا، ويعيش فى كيانى أنا مثل عقلى وروحى، والجنس للرجل هو ذاته مثــل عقلــه وروحــه، والجنس للمرأة هو ذاتها مثل عقلها وروحها. إذا وصلت إلى هذه القناعات فــستجد أن التعاطف الإنسانى يتدفق بشكل أعرق وأصدق وبصورة رائعة. لكن من الغريب أن تلك القناعات يصعب الوصول إليها سواء للرجل أو للمرأة. القناعات الطبيعيــة هى التى تسمح بتدفق الدفء الطبيعى لتعاطف الدم دون كبت أو خوف.

أتذكر أننى عندما كنت شابا يافعا، كنت أثور غضبًا حين أكون مع امرأة ولم أفعل شيئا، وأكون فقط قد قضيت كل الوقت فى الحديث معهــا محــاولاً أن أدرك شخصيتها وعقلها وروحها. الأمر الآخر كان يجب إبعاده تماما عن ذهنى. كانــت العلاقة دائما مشوهة.

الآن، على الرغم من عدوانية المجتمع، تعلمت ما هو أفضل. أعــرف الآن أن المرأة هى ذاتها الجنسية، وأستطيع أن أشعر بالتعاطف الجنسى الطبيعى معهــا وهذا التعاطف الصامت يختلف تماما عن الرغبة أو أى شىء من ذلك القبيــل. إذا استطعت فعلا التعاطف مع امرأة بالنسبة لذاتها الجنسية، فإن ذلك ما هــو إلا دفء قلب وتراحم، وهما أكثر تدفقات الحياة طبيعية فى هذا العالم. ربما تكــون امــرأة عمرها خمسة وسبعون عاما أو طفلة فى الثانية من عمرها، فالأمر سيان، ولكــن حضارتنا بخوفها وهلعها وكبتها أوشكت على تدمير التدفق الطبيعى للتعاطف العام بين الرجال والرجال وبين الرجال والنساء. هذا تحديدًا ما أود أن أعيــده للحيــاة. التدفق الدافئ الطبيعى للتعاطف العام بين الرجل والرجل وبين الرجــل والمــرأة. الكثير من الناس يكرهونه، بالطبع، يكرهونه بحيث يجب أن يعتبرهم المرء رجــالاً غرائزيين يقودهم الجنس الخالص الخالى من العاطفة. العديد من النــساء يكرهنــه بالطريقة نفسها.

(٦)

الصحف تصفنى بالشخص المنفر ذى "العقل القذر". واحدة من النساء، المتعلمات والغنيات، كتبت عنى تقول: "أنت يا من هو خليط من الرجل والشمبانزى تصيب أنوف الرجال بالاشمئزاز"، ولأنها كانت متزوجة كان يجب أن تقول أنوف النساء، وهؤلاء الناس يعتقدون أنهم على حق تمامًا وأنهم تربوا تربية طيبة. إنهم آمنون داخل ما هو مألوف وما تعنيه هو أننا مخلوقات لا جنسية ومجرد كائنات اجتماعية. إنها امرأة باردة ومسيطرة وجبانة، وتظن أنها آمنة فى موقعها داخل المألوف.

أنا واحد من أقل الناس دفعًا للتنفير، ولا أبالى مطلقا بالذين يكرهون كتاباتى ويصفوننى بالشمبانزى. إذا كان هناك شىء واحد لا أحبه فهو الجنس الرخيص العبثى. وإذا كان هناك شىء واحد أصر عليه فهو أن الجنس شىء رقيق، حساس وحيوى يجب على المرء ألا يعبث معه. لو أن هناك شيئا أدينه فهو الجنس دون إحساس. يجب أن يكون الجنس تدفقا حقيقيا، تدفق للتعاطف والدفء وليس شيئا للخداع أو لحظات للتهيج، أو مجرد بعض العهر.

لو كتبت كتابا عن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، فليس لأننى أريد كل الرجال والنساء أن يبدأوا فى اتخاذ عشاق بدون تمييز أو الدخول فى علاقات غرامية غير منضبطة. كل هذا الخلط المزعج بين العلاقات الغرامية والعهر ما هو إلا جزء من الجنس الرخيص حيث يمارس لغرض ما، وبالتالى لن يكون ممتعا وسيكون كريها كالكبت ودليلاً على الخوف. ما عليك عمله هو أن تتخلص من حالة الفزع الجنسى، ولكى تفعل ذلك يجب أن تكون مهذبًا وكامل التهذب، وأن تقبل الجنس بكليته فى وعيك. اقبل الجنس فى وعيك، ودع الشعور البدنى الطبيعى يعود إليك، كن مدركًا ببساطة للطبيعة الجنسية فى كل رجل وكل امرأة فى كل فتى وفتاة وكل حيوان، وما لم يكن الرجل أو المرأة يرى فيه عهرًا، فعليك أن تحس تجاهه

بالتعاطف. إن هذا يعد أهم شيء الآن، هذا الإدراك الجسدى الرقيق. إنه يحافظ على رقتنا وعلى حياتنا فى الوقت الذى تكمن الخطورة الشديدة فى أن نصبح جامدين وبصورة ما متصلبين دون داعٍ.

(٧)

عليك أن تقبل الطبيعة الجنسية والجسدية لك، ولكل مخلوق آخر. لا تكن خائفا منها. لا تخش الوظائف الجسمانية. لا تخف مما يطلق عليه كلمات بذيئة. لا خطأ فى الكلمات. إن خوفك هو الذى يجعلها بذيئة، الخوف غير مطلوب. إن خوفك هو الذى يرهقك جسمانيا ويبعدك عن الأقرب والأعز إليك، وحين يتباعد الرجال والنساء عن بعضهم بعضا جسمانيا، يصبحون خطرين، عاهرين وقساة. عليك بقهر الخوف من الجنس وإعادة أحاسيسك للتدفق الطبيعى. عليك أن تستخدم الكلمات المعتادة التى يسمونها بذيئة، والتى هى جزء من التدفق الطبيعى. إذا لم تفعل فلن تعرف معنى الدفء الغريزى للحياة، وستكون الكارثة فى انتظارك.



مُستعبدٌ فى المدنيـــة!

(١)

ما لم يتعلمه الرجال هو أن يهبّوا دفاعًا عن مشاعرهم الغريزية ضد الأشياء التى تلقنوها. المشكلة هى أنهم أمسكوا بنا ونحن صغار. الصبية الصغار يرسلون للمدارس فى سن الخامسة حيث تبدأ المباراة فى الحال، مباراة استعباد الفتى الصغير، فما إن يعهد به إلى المدرسات الشابات أو المسنات حتى ينقضضن عليه ويبدأن فى تشكيل ذلك الشيطان الصغير المسكين. لا أحد يتساءل ولو للحظة عن سلطة هذه النسوة فى تشكيل حياة رجل صغير. يقول الجزويت "اعطنى طفلاً فى سن السابعة، وسوف أكون مسئولا عن كل ما يفعل طوال عمره"، ولكن المدرسات لسن بذكاء الجزويت ولا يعرفن بوضوح ما يقمن به، على الرغم من ذلك يقمن به، يجعلن من الصبى الصغير رجلا تحت التكوين.

أنا أسألك الآن، هل تعتقد حقًّا أن المدرسات مؤهلات لتشكيل أساسيات الرجل؟ هن نساء ممتازات وممتلئات بأفضل الدوافع، وكلهن نجحن فى بعض الاختبارات، ولكن بحق السماء، ما الذى يجعلهن مؤهلات ليصبحن صانعات للرجال؟ إنهن جميعا فتيات صغار أو متوسطات العمر أو مسنات. لا تعرف أيًّا منهن شيئا عن الرجال، أى أنهن لسن من المفروض أن يعرفن أى شىء عن الرجال. كل ما يعرفنه إذن لا بد وأنه جاء من قراءات سطحية هن لا يعرفن بالتأكيد أى شىء عن الرجولة، فالرجولة فى أعين المدرسات خاصة كبيرات السن هى شىء غير مطلوب وغير سار. الرجال فى نظر المدرسات، عبارة عن أطفال كبار. ألم يمر الأطفال جميعًا من بين أيدى المدرسات؟، كذلك الرجال بالمثل.

(٢)

قد يكون رجال هذه الأيام عبارة عن أطفال كبار. ولكن إذا كانوا كذلك فيرجع ذلك إلى أنهم سُلموا وهم بعد فى سنوات عمرهم الغضة إلى النساء،

وأخضعوا لحكم النساء المطلق، الأمهات أولا ثم المدرسات. الأم ترضخ سريعا للمدرسات، ومن المدهش ذلك التبجيل الذى تكنه النساء العاديات للمدرسة المسنة فى حضانة الأطفال. فما تقوله المدرسة مقدس. لم يعد الملوك ملوكًا بالحق الإلهى المباشر، وهذا أمر يثير العجب. إنها عبادة أوثان، والوثن هو "الطيبة"، هى طيبة بصورة رائعة، وتقول لطفلها "الآن عليك يا جونى أن تراعى ما تقوله المدرِّسة، فهى تعرف ما هو أفضل بالنسبة لك. عليك أن تسمع ما تقوله جيدًا، وباستمرار"، والويل لجونى المسكين، ففى أول يوم له فى المدرسة يسمع: "الآن يا عزيزى جونى، يجب أن تجلس كالصبى المطيع كسائر الأطفال المطيعين"، وعندما لا يستطيع فعل ذلك يقال له "جونى، لو كنت مكانك لما بكيت. انظر إلى كلِّ الصبية الآخرين، إنهم لا يبكون، أليس كذلك يا عزيزى؟ كن صبيا طيبا وسوف تعطيك المدرِّسة دُبًّا لتلعب به. هل يحب جونى أن يحصل على دب ليلعب به، ها هو، لا تبك! انظر إلى باقى الصبية الطيبين، هم يتعلمون الكتابة.. ألا يريد جونى أن يكون صبيا طيبا ويتعلم الكتابة؟"

فى الحقيقة، لا يود جونى ذلك. ففى أعماق قلبه لا يريد أن يكون صبيا طيبا صغيرا ويتعلم الكتابة، ولكن المدرِّسة توجب عليه ذلك. المدرسة العزيزة تضعه على أول الطريق الذى يجب أن يسلكه ليصبح عبدًا صغيرًا مسكينًا، وما أن يبدأ حتى يستمر فى أن يكون صبيا صغيرا طيبا مثل غيره من الصبية الصغار الطيبين. المدرسة مثل نظام السكك الحديدية حيث يلقن الصبية الصغار الطيبين السير فى خطوط محددة إلى أن يتم القذف بهم إلى معترك الحياة عند عمر الرابعة عشرة أو السادسة عشرة أو أى عمر آخر. عند ذلك العمر تصبح عادة السير على خطوط محددة قد صارت ثابتة. الصبى الكبير الطيب يغير فقط مجموعة القضبان إلى مجموعة أخرى، وإنه لأمر شديد السهولة، السير على القضبان، لكنه يكون غير مدرك وأنه قد أصبح عبدًا للقضبان التى يسير عليها.

(٣)

الشىء المضحك أن لا أحد حتى أكثر الآباء وعيا وإدراكًا، قد تساءل عن جدوى هذه السياسة. "كل شىء من أجل جونى الصغير"، هو هدف تلك السياسة

المدرسية لأنها بالتأكيد هى الأصلح لجونى، حيث يجب أن يكون صبيا صغيرا طيبا مثل غيره من الصبية الصغار الطيبين.

ولكن أن يكون صبيا صغيرا طيبا مثل كل الصبية الآخرين معناه أن يكون عبدا فى النهاية أو إنسانا أوتوماتيكيا يتحرك على عجلات. إن ذلك يعنى أن جونى الصغير سوف تنتزع منه رجولته وتطمس فيه فى كل مرة تطل فيها. لا شىء أبرع من أصابع امرأة مسنة فى قطف الأفرع الغضة للرجولة عند بداية ظهورها فى الصبى لتحويله إلى ذلك الشىء المحايد، بدلا من الصبى الصغير الطيب. إنها صورة من رغبة التشويه التى تؤمن به الأمهات وتصر عليه، فهى تقول دائما "أريده أن يكون صبيا طيبا"، وتفشل فى أن تتذكر كيف يصيبها الولد الذى كان طيبا وأصبح زوجها بالضجر الشديد. الصبية الطيبون يعجبون أمهاتهم ومدرساتهم ولكنهم كرجال يصنعون أمة ضعيفة.

بالطبع، لا أحد يريد أن يكون جونى ولدا صغيرا سيئا. يرغب المرء فى أن يكون مجرد صبى دون أوصاف على الإطلاق. ولكن هذا مستحيل. ففى أفضل المدارس حيث تتوافر "الحرية" الكاملة يكون الإرغام على أن يكون طيبا، أقوى بكثير. يتم بناء الصبية فى صمت وتصميم وإرادة على أن يكونوا طيبين. ويكبرون طيبين ولكن يصبحون بلا فائدة.

لكن، ما الذى تعنيه الطيبة؟ إنها تعنى فى النهاية أن يكون مثل أى شخص آخر بلا روح بناءة يدعيها لذاته، فلا يجب أن تكون لك مشاعر تدعى أنها تخصك. يجب أن تكون طيبا فقط وتفعل ما هو متوقع منك. وهذا يعنى فى النهاية أنك لا تشعر بشئ على الإطلاق، وأن مشاعرك قد تم اغتيالها، وما تبقى لديك هى المشاعر "الطيبة" التى تم ترويضها وأنت صغير.

(٤)

أعتقد أننى أنتمى للجيل الأول من الرجال الإنجليز الذين تم ترويضهم. جيل أبى، وعلى الأقل بين عمال المناجم حيث نشأت، كان أبى لا يـزال بريًّـا، ولـم يذهب إلى أى شيء ذى أهمية أكثر من المدرسة. كانت معلمته اسمها الآنسة هيث ولم تفلح فى أن تجعل منه صبيا صغيرا طيبا وإن كانت قد نجحت بالكـاد فـى أن تعلمه كيف يكتب اسمه، وفيما يتعلق بالمشاعر، فهى لم تعرفها قط مثلها فى ذلـك مثل والدته، فهى أيضا لم يكن لديها أدنى فكرة عما يسمى بالمشاعر.

كانت البلاد لا تزال مفتوحة، فهرب أبى بعيدًا عن النـساء، وانـضم إلـى عصابته الخاصة، وإلى نهاية عمره كانت فكرته عن الحياة هـى أن يهـرب مـن الفضيلة، ويشرب الخمر، وربما كان يسرق الأرانب أحيانا. ولكن الصبية من جيلى أمسكوا بهم فى الوقت المناسب. فقد أرسلوا بنا عند عمر الخامسة إلـى المـدارس النظامية البريطانية والتى لم يكن فيها دبية للعب، والتى كنـا فيهـا نـرغم علـى الخضوع ونرغم للسير على القضبان. ذهبت إلى المدرسة التى كان أغلب رفـاقى فيها من أبناء عمال المناجم، وكان معظمنا سيصبح من عمال المناجم ولـذلك كنـا جميعا نكره المدرسة.

لن أنسى ما حييت الكرب الذى بكيت منه فى أول يوم لى بالمدرسة. كنـت أشعر أننى أسير ومقيدٌ بالحبال. أحس غيرى من الصبية الإحساس نفسه. كرهـوا المدرسة لإحساسهم بأنهم رهائن بها. كرهوا المدرسين لأنهـم بـدوا كالـسجانين. كرهوا حتى تعلم القراءة والكتابة. كانت النغمة التى لا تنتهى هى "عندما أنزل إلى المنجم سوف ترى حجم ما سأجمعه". كان هذا هو ما ينتظرونه، أن ينزلـوا إلـى المنجم، أن يهربوا، أن يصيروا رجالا، كانوا يريدون الهرب إلـى قـاع المـنجم للابتعاد عن اليأس القائم بالمدرسة.

(٥)

كان المدرس رجلاً عجوزًا طيبا وذا لحية بيضاء، وكانـت أمـى تحترمـه احتراما كبيرا. أذكر أنه أبدى غضبه منى ذات مرة لأننى لم أرغب فـى الإقـرار باسمى الأول وهو دافيد، وصاح قائلا "دافيد هو اسم رجل عظـيم ألا تحـب اسـم

دافيد؟" كان وجهه مربدًا بالغضب ولكنى كنت أكره اسم دافيد ولا أزال!، ولم يستطع إجبارى على أن أحب هذا الاسم على الرغم من أنه كان يريد ذلك.

كان دافيد اسمًا لرجل عظيم وطيب وبالتالى كان يجب إرغامى على حب ذلك الاسم. لو كان اسمى الأول هو أنانياس أو ماكميلان لكان لى العذر فى كراهيته، ولكن اسم دافيد لا عذر لى فى كرهه. لكن المدرس العجوز تمكن تدريجيا من إخضاعنا. كان أحيانا يضربنا ولكن لم ينجح معنا بالضرب وإنما بالضغط المستمر علينا بالقول "أيها الصبية الشرفاء المهذبون، ليكن سلوككم على طريقتى وليس على أية طريقة أخرى". وبذلك أخضع الأولاد، ولأنه كان متأكدا تماما من أنه على صواب ولأن الأمهات والآباء كانوا متفقين جميعا على أنه على صواب، نجح فى ترويض الصبية خلال الست أو السبع سنوات التى كان مسئولا فيها عنهم. كانوا أول جيل يتم ترويضه بالفعل.

لقد نزلوا بعدها إلى المنجم، ولكن حتى المنجم لم يكن الأرض السعيدة التى كان عليها فيما سبق. فى المنجم. كان كل شىء مصممًا على أن يسير فى خطوط، وفق أحدث الموجود، لكن أصبح الرجال أقل رجولة، مجرد آلات، وبعد أن تزوجوا أصبحوا ما كانت النساء فى جيل أمى يصلون من أجله، أزواجًا طيبين. ولكن ما إن يصبح الرجال أزواجا طيبين حتى تصاب النساء بالملل ويصبحن غير راضيات ويكتنفهن الضجر.

آخر مرة عدت فيها إلى الميدلاندز كانت خلال فترة الإضراب الكبير لعمال الفحم. كان الرجال فى مثل عمرى فوق الأربعين بقليل يقفون شاحبين صامتين ولا يجدون شيئا يقولونه أو يفعلونه، ورجال الشرطة يطوقونهم ليحافظوا على النظام. وللأسف، لم تكن هناك حاجة لذلك. رجال جيلى كان قد تم ترويضهم وسيحافظون على النظام حتى يصيبهم الصدأ. بالنسبة للزوجات والمدرسين والذين يوظفون عمالا لديهم، قد يكون جميلا أن عمالهم قد تم ترويضهم جيدا وأصبحوا مستأنسين، لكن بالنسبة لإنجلترا، فذلك يعد كارثة.

❁❁❁❁❁

عن المصير الإنســانى!

(١)

الإنسان حيوان مستأنس يجب أن يفكر، والتفكير يجعله أقل قليلا من الملائكة، ولكن استئناسه يجعله أحيانا أحط قليلا من القرد. لا فائدة من تقرير أن معظم البشر لا يفكرون. هذا صحيح، معظم البشر ليست لديهم أية أفكار أصيلة، ولكن ذلك لا يغير من حقيقة أنهم يفكرون. لا يستطيع الإنسان أن ينام بعقل خاوٍ، فالعقل يرفض أن يكون خاويا. ماكينة العقل تعمل تلقائيا ما دامت الحياة في الجسد، والماكينة تعمل ذاتيا ولا يتوقف العقل عن التفكير إلا بعد أن تتوقف الحياة ويموت الجسد.

قد تكون الأفكار قديمة. لا يهم، فماكينة العقل تطحن الأفكار القديمة أيضا مع الأفكار الجديدة. أكثر البدائيين الذين يعيشون فى الأحراش فى أفريقيا يتصرفون بنفس التلقائية الغريزية التى يتصرف بها أكثر الرجال الإنجليز تحضرا ورقيًّا. مجازفته بالموت دفاعا عن نفسه، جوعه، شهوته، خوفه من الحيوانات المفترسة، كلها أفكار ثابتة فى عقل البدائى الإفريقى الأسود، وكلها أفكار قائمة على الانفعالات الحسية فى وجدانه، ولكنها أفكار مهما كانت "بدائية". الفرق بين الفكرة البدائية والحديثة ليس كبيرا، ومن المدهش ضآلة التغير الذى طرأ على الأفكار الأولية.

حاليا نحن نحب الحديث عن التلقائية، الإحساس التلقائى والعاطفة التلقائية، والمشاعر التلقائية، ولكن تلقائيتنا هى مجرد فكرة. كل تلقائيتنا تنشأ فى العقل وتتطور فى الإدراك. منذ أن أصبح الإنسان حيوانا مفكرا مستأنسا فى الزمن السحيق ولم يعد حيوانا غريزيا. فى رأيى أن إنسان الكهف كان حيوانا نموذجيا ولديه أفكاره العنيدة. لم يكن كالغزال البرى أو النمر فى الجبال، لكنه كان يطحن أفكاره فى ماكينة جمجمته الثقيلة.

(٢)

لم يكن الإنسان تلقائيا أبدا كما نتصور، فمهما كان بريا ومتوحشًا وغير مستأنس، فإنه كان يشحذ أفكاره الثابتة الخاصة، ولم يكن أكثر تلقائية من سائق شاحنة فى لندن.

ابن الطبيعة البرية البسيط لا وجود له. فليكن الإنسان بدائيا على النحو الذى تعنيه الكلمة، ولكن لديه العقل. أعطه عاطفة معينة، وبين عقله وعاطفته سينتج أفكارًا طيبة بدرجة أو بأخرى.

الرجل البدائى يشحذ أفكاره عن آلهته وتمائمه ومحرماته بصورة أشد مما نفعل نحن لأفكارنا عن الحب والخلاص وفعل الخير، فلننس فكرتنا عن طفل الطبيعة البرىء؛ لأنه غير موجود ولم يوجد قط ولم يكن من الممكن أن يوجد. فعلى أى شكل كان يوجد عليه، كان له عقل وكان له أيضا عواطف. العقل والعواطف فيما بينهما ينتجان الأفكار، وهما اللذان ينتجان كل القيم والمُثُل. الإنسان لا يمكن أن يعيش بالغريزة فقط؛ لأن لديه عقلاً. الثعبان الذى سحقت رأسه يستطيع أن يتكاثر من عموده الفقارى ولكنه لا يملك أفكارًا. الإنسان له عقل وأفكار فمن الخطأ التفكير فى البراءة والتلقائية، فالإنسان ليس تلقائيا حتى الأطفال ليسوا تلقائيين على الإطلاق. كل ما فى الأمر أن أفكارهم الصغيرة المسيطرة قد لا تتفق فى أسبابها المنطقية. أفكار الطفل هى أفكار بالفعل ولكنها مفككة بشكل فكاهى والعواطف الناتجة عنها تختلط مع بعضها بصورة مضحكة.

(٣)

تتولد الأفكار من اقتران العقل والعاطفة. ولكنك بالتأكيد ستقول إنه من الممكن أن تنطلق العواطف حرة بدون عقل يحكمها، هذا مستحيل، فمنذ أن أكل الإنسان التفاحة حتى أصبح لديه عقل وإدراك واعٍ. أصبحت العاطفة وحدها بدون العقل كالزوجة التى ليس لها زوج، أى كأنها شىء هامشى. العواطف لا يمكن أن

تكون "حرة". إنك تستطيع أن تترك عواطفك تنطلق بحرية إذا أردت ولا تستطيع أن تتركها تنطلق معربدة كما يحلو لها؛ لأن عربدتها وانطلاقها بلا ضوابط لا يجلب سوى الملل. العواطف فى حد ذاتها تصبح مزعجة، والعقل بذاته يصبح شيئا عقيمًا ويجعل العواطف أيضا عقيمة. فما الذى يمكن عمله؟ علينا أن نجعل الاثنين معًا؛ لأن انفصالهما لا يؤدى إلى شىء طيب. العواطف التى لا يؤيدها ويلهمها العقل ليست سوى هستيريا، والعقل بدون تأييد وإلهام العاطفة هو مجرد شجرة ميتة لا تصلح إلا للنار.

إذا أخذنا النفس الإنسانية لوجدنا فيها الأركان الثلاثة البسيطة، العواطف والعقل، والأفكار. الإنسان محكوم بأفكاره الخاصة لا شك فى ذلك. فلنناقش ذلك مرة أخرى. عاشقان فى سبيلهما إلى الهرب بعيدا عن القناعات القديمة البغيضة وبسبيلهما لأن يعيشا حياتهما، ثم انظر إليهما. هما يفعلان كل ما يعرفان أن الناس تفعله عندما "يعيشون حياتهم". ويمارسون بعض المشاكسات بدلا من أن يكونا طيبين. ثم ماذا؟، إنهما يمارسان الأفكار نفسها ولكن فى الاتجاه العكسى!، فيذهب الرجل إلى غانية ويفعل الشىء نفسه الذى يفعله مع زوجته، هو يفعل ذلك بدافع المغامرة، ويتناسى مؤقتًا نفسه الطيبة، ويكون الأمر مريحا له جدا فى البداية عندما يتناسى ذاته الطيبة. ولكن بعد فترة وجيزة يدرك أنه لا يفعل جديدًا وأن ما يحصل عليه من الغانية هو نفسه الذى يحصل عليه من زوجته التى يحبها، لكن بدون عاطفة لأنه ألغى عقله وترك عاطفته تعربد كيفما شاءت.

(٤)

فى مركز العقل تترسخ الفكرة نفسها القديمة للنزوة. تقع فى الحب مع امرأة، وتتزوجها، وتحس بالبركات، وتنجب الأطفال، وتهب نفسك لأسرتك ولخدمة الإنسانية، وتحيا حياة سعيدة. أو بالعكس، تقع فى الحب مع امرأة، ولكنك لا تتزوجها، وتعيش معها تحت ظلال الورود، وتستمتع بالنزوة، على الرغم من رفض المجتمع لها، وتترك زوجتك تتجرع دموعها، وتنفق عليها المال الذى تدخره لزواج بناتك،

وتضيع قوتك. في مركز العقل توجد الفكرة، كل ما في الأمر هو أي طريق ستأخذ؟ وها أنت الآن أيها الرجل المسكين. كل ما تستطيعه هو أن تدور كالأبله في ذلك الطريق أو في الطريق الآخر. من داخل فكرة الحب تنبع بعض الأفكار الهامشية للنزوة حتى في أشد الرجال مثالية نجدها موجودة، ونجدهم يسيرون في المسارات نفسها ويحصلون على الانفعالات نفسها مطروحا منها إثارة العاطفة الممزوجة بالحب.

ما الذي يجب فعله؟ وما الذي تم فعله؟

لقد أحكمت الحلقة. كانت روسيا خليطا معقدا من الأفكار، أفكار بربرية قديمة للملكية الإلهية، للسلطة غير المسئولة والعبودية المقدسة. هذا التعقيد كان لا بد من إقصائه، فقد كانت روسيا سيركا عظيما بعظمتها وبؤسها ووحشيتها وغموضها. ولكن الرجال ذوي العقول قد غيروها، وتحول السيرك المزعج المليء بالمآسي الإنسانية إلى أرضية خصبة للأفكار وماكينة تنتج المثل العليا، فالإنسان حيوان مثالي، حيوان صانع للأفكار، وعلى الرغم من طبيعته الحيوانية يستطيع أن ينتج أفكارا متحررة.

ما يجب عمله هو أمر شديد البساطة، فالإنسان ليس أسير شرنقة أفكاره، فليمزق الشرنقة التي تحتويه وتخنق جذوره وتعتصره كالنبات الذي جف عصيره، فليس من المجدي انتظار تراكم الأحداث والظروف لكي تتمزق الشرنقة.

(٥)

هذا ما يفعله الناس حاليا. إنهم يؤمنون بضرورة تمزيق الشرنقة، يعرفون أن مدنيتنا سوف تتحطم إن عاجلا أم آجلا، لذلك يقولون "فلتتحطم ولكن دعني أعيش حياتي أولا". هذا طيب ولكنه سلوك جبان. هم يقولون إن "كل حضارة يجب أن تسقط في النهاية، انظر إلى روما". إذا نظرنا إلى روما، جموع من الرومانيين المتحضرين كانوا يعيشون بعواطفهم الجياشة النابضة بالحرية، وعدد من البرابرة،

يتقدمون نحوهم لمحوهم من الوجود، وانظر إلى الوراء قليلا إلى العصور المظلمة التى تحولت فيها إيطاليا إلى خرائب وإلى أرض مجدبة كالبقايا التى تخلفت عن العالم غير المكتشف، وحامت الذئاب والدببة فى شوارع المدينة العظيمة "ليونز". كانت روما فى شرنقة ولكن الشرنقة تمزقت إلى ذرات، وسقطت شجرة الحياة الرومانية القديمة على جانبها وماتت، ولكن بعد أن أنبتت بذرة صغيرة فى التربة المتشققة. نبتت الشجرة الصغيرة للمسيحية، وفى خضم الوحشية والذبح والقتل قامت صوامع الرهبان لتبقى على النور الخالد لجهد الإنسان حيا، حيث كان بعض الأساقفة يتجولون عبر الفوضى ويجمعون شجاعة رجال الفكر والصلوات معا. قلة مبعثرة من الرجال الذين وجدوا طريقا جديدا إلى الله، إلى مصدر الحياة. كانوا سعداء لأنهم أعادوا من جديد صلتهم بالإله العظيم، وسعداء لأنهم عرفوا الطريق وحافظوا على شجرة المعرفة مزدهرة.

هذا هو التاريخ الجوهرى للعصور المظلمة حين سقطت روما شعلة الشجاعة الإنسانية، والتى كانت فى تلك الأثناء قد انطفأت تماما وعادت بمعجزة إلى الحياة مرة أخرى. إن القوة الفائقة للرجال الشجعان تتدفق باستمرار ولا تنقطع حتى لو صار خيط الشعلة رفيعا جدا. النور الخالص للتحفز الإنسانى المتجدد لا ينطفئ أبدا. قد تنطفئ أنوار المدن العظيمة ويسودها الظلام، ولكن دائما يحافظ نور الله على هذه المدن مضيئة وتضيء مشاعل معرفة الله هنا وهناك كما فى عصرنا الفكتورى العظيم، عصر الفهم الإنسانى، ولكن النور لا ينطفئ أبدًا.

(٦)

هذا هو الواجب الإنسانى. النور يجب ألا ينطفئ أبدا حتى اليوم الأخير للحياة. نور السعى الإنسانى إلى الإدراك والذى هو بالضرورة نور المعرفة الإنسانية بالله.

المعرفة الإنسانية بالله تستمد نورها من زيوت مختلفة. الإنسان وعاء غريب، يوجد به ألف نوع من الزيت ليبقى نور معرفة الله مضيئا. ولكن من الواضح أنه يستخدم مصدرا واحدًا للزيت فى المرة الواحدة وعندما ينضب الزيت يصبح فى أزمة، ويبحث عن نبع جديد للزيت.

كان هذا فى عهد الرومان. النار الوثنية العظيمة للمعرفة ذبلت تدريجيا، فقد نضب زيتها، ثم جاء عيسى ليبدأ شعلة صغيرة ويزودها بزيت جديد.

اليوم، تكاد أنوار المسيحية تخفت وتنطفئ وعلينا أن نوجد لها مصدرًا جديدا فى أنفسنا.

لا فائدة من القول "أنا لم أصنع العالم ولست مسئولا عن إصلاحه. الزمن والأحداث سيقومان بالعمل". الزمن والأحداث لن يفعلا شيئا. البشر يكونون أسوأ بعد الانهيار. الروس الذين نجوا من ويلات الثورة أغلبهم انتهوا كبشر. العزة الإنسانية الحقيقية اختفت، وكان كل ما بقى هو مخلوق إنسانى منهار يقول لنفسه "انظر إلىّ! أنا حى! أستطيع أن آكل المزيد من الزبد" الانهيار يجتاح كل شىء، ففى أوقات الويلات والكوارث، تنطفئ أنوار النزاهة والكرامة الإنسانية فى روح الإنسان، ولا يبقى سوى مخلوق متألم غير إنسانى يغمره العار، وغير قادر على شىء. إنها أعظم أخطار الانهيار، خاصة فى أوقات عدم الإيمان كهذه الأوقات، حيث يفتقر الإنسان للإيمان والشجاعة للإبقاء على روحه حية ومنتبهة وغير منكسرة. الإنسان مسكين وحيوانى للأبد، وله خيار لا مفر منه وهو أن يتقدم للأمام بمغامرة التفكير. هو مغامر بالتفكير، ويجب أن يكون مغامرا. بعد أن يبنى لنفسه بيتا يلوذ بداخله ويبدأ فى الاعتقاد بأن بمقدوره أن يقنع بمعرفته، تتململ روحه ويتحطم البيت على رأسه.

(٧)

هذا جزء من مصيرنا ككائنات مفكرة. مصير الإنسان هو البحث عن الله وتشكيل تصور عن الحياة، وحيث إن الله ندركه ولا نراه، وحيث إن الحياة هى

دائما أكثر من فكرة أو تصور، فمن إدراك الله وتصور الحياة نرى الله الذى تركناه داخلنا وحولنا، والحياة التى أغلقناها علينا تنقلب فى النهاية ضدنا. هذا هو قدرنا ولا شيء سيغيره.

عندما ينقلب علينا الإله الذى أهملنا معرفته سنغرقه فى ظلمات العدم، وعندما تنقلب علينا الحياة التى أغلقناها علينا ستتحول إلى جنون، وسم يجرى فى عروقنا، لن يبقى سوى شيء واحد نفعله. علينا أن نجتهد للوصول إلى قلب الأشياء، حيث توجد الشعلة النورانية الدائمة ونحصل منها على شعاع من النور. باختصار، علينا القيام بمغامرة مريرة بالتفكير حتى نصل إلى القطب المركزى للطاقة. علينا أن نسمح لبذرة الفكرة الجديدة أن تنبت داخلنا، فى عقولنا غير الجريئة وعواطفنا المتبلدة. إنها بذرة لمعرفة الله ومعرفة الحياة، وبعد أن تنمو سوف تصبح شجرة عظيمة وفى النهاية تموت مرة أخرى مثلها مثل كل الأشجار، ولكن بعد أن تترك ثمارها الكثيرة والتى من بذورها تنبت أشجار أخرى جديدة.

إننا نسير بخطى واسعة، ونعيش بالنهار والليل، وشجرة المعرفة تنمو ببطء إلى ارتفاع عظيم ثم تموت وتصبح ترابا. هناك حياة طويلة للفرد ثم غرفة مظلمة للموت. أنا أعيش وأموت ولا أبحث عن شيء آخر. ما يخرج منى يعيش ويموت والله خالد، ولكن فكرتى عنه تخصنى. كل ما هو إنسانى فانٍ. المعرفة الإنسانية، الإيمان الإنسانى، العاطفة الإنسانية، كلها فانية. وهذا طيب جدا؛ لأنها حين تفنى يحل محلها الجديد. معرفة جديدة، وعاطفة جديدة، وإنسان جديد، لكن الذى يبقى هو الله والإيمان؛ فالله باق لا يتغير. كذلك الإيمان.

(٨)

ولأننى أعرف أن الشجرة ستموت فى النهاية، هل أتخلى إذن عن زرع بذرة؟ سيكون ذلك جبنا وغرورا. أنا أحب أن تتفتح البذرة وأن تظهر الشجرة. أحب أول ثمرة حين تنمو فى الأغصان، وأحب الشجرة الضخمة فى عظمتها

وأشعر بالأسى لأنها ستشيخ فى النهاية وستصبح جوفــاء وتــسقط علــى جانبهــا وينخرها النمل وتختفى من الوجود.

هذه هى دورة الحياة وكل الأشياء المخلوقة.

شكرا لله؛ لأنه يحفظ الحياة من الفناء.



المؤلف فى سطور

ولد "دافيد هربرت لورنس" فى "إيستوود" بــ "نوتنجهامشير" بــإنجلترا عــام ١٨٨٥، حيث كان الابن الرابع من خمسة أبناء لعامل فى المنجم وزوجتــه التــى كانت من الطبقة المتوسطة. التحق بمدرسة نوتنجهام الثانوية ثم بجامعة نوتنجهام. أول رواياته "الطاووس الأبيض" نشرت عام ١٩١١ بعد شهور قليلة من وفاة والدته التى كان قريبا منها بصورة غير عادية. فى ذلك الوقت قطع علاقته بالفتاة "جيسى تشامبرز" (مريام فى رواية أبناء وعشاق)، وأصبح مرتبطا بالفتاة "لــوى بــاروز". انتهى مستقبله كمدرس عام ١٩١١ نتيجة المرض الذى تم تشخيصه على أنه سل.

سافر لورنس عام ١٩١٢ إلى ألمانيا بصحبة "فريدا ويكلــى" التــى كانــت الزوجة الألمانية لمعلمه السابق للغات الأجنبية، وتزوجا عند عودتهما إلى إنجلتــرا عام ١٩١٤. كان لورنس آنذاك يعيش من عائد كتاباته. أتــم روايتيــه العظيمتــين "قوس قزح" و "نساء عاشقات" عامى ١٩١٥ ، ١٩١٦، حيث مُنِعَت الأولــى مــن النشر، ولم يجد ناشرًا للثانية.

بعد الحرب بدأ لورنس بحثه الشرس عن أسلوب حياة أكثر إشباعًا عن الذى تقدمه الحضارة الصناعية الغربية. أخذه البحث إلى صــقلية، ســيلان، أســتراليا.. وأخيرا نيومكسيكو. عادت أسرة لورنس إلى أوروبا عام ١٩٢٥. آخــر رواياتــه "عشيق الليدى تشاترلى" منعت من النشر عام ١٩٢٨، وصودرت رســوماته عــام ١٩٢٩، ومات فى فيينا عام ١٩٣٠ عن عمر يناهز الرابعة والأربعين.

أنفق لورنس معظم حياته القصيرة يأخذ من الحياة ما تعطيه، وعلى الــرغم من ذلك أنتج عددًا هائلاً من الأعمال التى اشــتملت علــى الروايــات والقــصص

والقصائد والمسرحيات والمقالات وكتب الرحلات والترجمات. بعد وفاتـــه كتبــت فريدا تقول "ما رآه وأحسه وعرفه أعطاه فى كتاباته لرفاقه من البشر، عن عظمـــة العيش والأمل فى حياة أكثر وأكثر، كان ولا شك موهبة بطولية تستعــصى علـــى القياس"..

المترجم فى سطور

محمد قدرى عمارة

- من مواليد مدينة طنطا عام ١٩٤٧.
- أمضى سنوات دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية بمدنية طنطا، ثم التحق بكلية الزراعة جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٣، وحصل على بكالوريس العلوم الزراعية عام ١٩٦٧ بدرجة ممتاز وعين معيدًا بقسم الوراثة والجينات بالكلية.
- سافر إلى إنجلترا فى بعثة للحصول على درجة الدكتوراه، وحصل على الدكتوراه فى علم الوراثة والجينات من جامعة ويلز عام ١٩٧٧.
- بعد حصوله على الدكتوراه عين مدرسا بقسم الوراثة بكلية الزراعة جامعة أسيوط، ثم أستاذًا مساعدًا، ثم أستاذًا، وهو الآن رئيسٌ لقسم الوراثة بالكلية.
- ترجم العديد من الأعمال من الإنجليزية إلى العربية منها:

• انتصار السعادة	برترَاند رسل
• الدور الجنسى للمرأة والرجل	آيفلين أشتون جونز
• المختارات من أعمال تشيكوف	أنطون تشيكوف
• مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى
• نقد المسرح الإنجليزى	ستيفن هيوز
• أفضل ما كتب رسل	برترَاند رسل
• عبادة الإنسان الحر	برترَاند رسل
• ما وراء المعنى والحقيقة	برترَاند رسل

- الإنسان والإنسان الأعلى — جورج برنارد شو
- مغامرات توم سوير — مارك توين

كما قام بترجمة العديد من المقالات والقصص القصيرة التي نشرت في المجلات المختلفة.

المراجع فى سطور

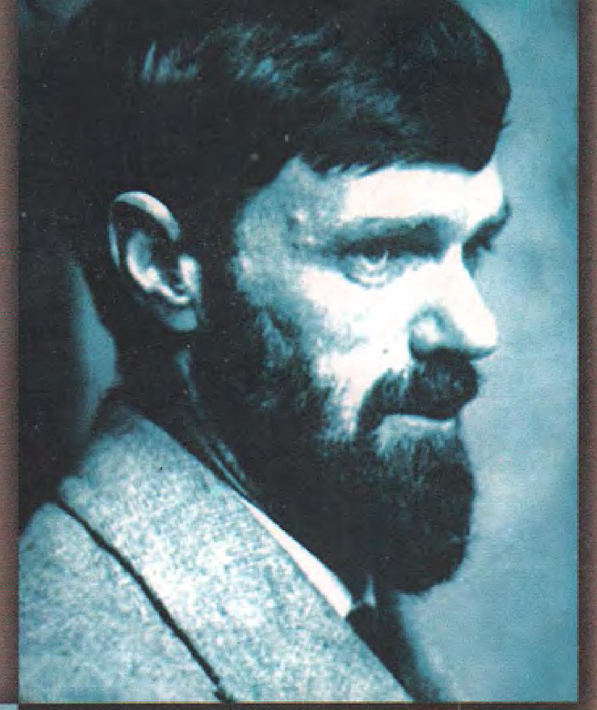
إلهامى جلال عمارة

- من مواليد محافظة الغربية.
- حصل على بكالوريوس التجارة فى جامعة الإسكندرية وعلى زمالة جمعية المحاسبين والمراجعين بأدمنتون بكندا، وعمل محاضرًا فى جامعة ألبرتا لعدة سنوات تفرغ بعدها للكتابة الأدبية.
- عضو اتحاد كتاب مصر واتحاد الكتاب العرب وصدرت له العديد من الروايات والمسرحيات والمجموعات القصصية والدراسات الأدبية والنقدية.
- عضو نقابة المهن السينمائية، شعبة السيناريو، وكتب العديد من الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية.

التصحيح اللغوى: **سهام أبو العمرين**

الإشراف الفـــنى: **حسن كامل**







هذه المجموعة الغنية من أهم أعمال د.هـ. لورنس، والتى لم يسبق نشرها، هى تقديم لواحد من عظماء الأدب الحديث. ولمن يعرفون لورنس تعد إضافة جديدة لأفكاره ومعتقداته التى كان شديد التمسك بها.

يحتوى الكتاب على مجموعة من المقالات التى تمثل آراءه فى عدد من القضايا الحيوية والمهمة، كما يحتوى على رأيه فى رواية "عشيق الليدى تشاترلى" والذى قد يكون أعظم مقال مفرد كتبه لورنس على الإطلاق... هذا بالإضافة إلى مجموعة من القصص التى لم يسبق نشرها.

إن قدرته التصويرية ليس لها نظير، ولا يزال صوته قوياً وبليغاً، ليس فقط عن الحب ولكن عن الحرب أيضاً.

تجيب هذه الأعمال عن سؤال مهم هو لماذا نال لورنس كل هذا الإعجاب، ولماذا تعرض للهجوم ؟!

تصميم الغلاف: هشام نوار